الإمارات
THE EMIRATES

مَـــرَاوِد

مجلة منوعة تعنى بالتراث الثقافي

العدد 60 – نوفمبر 2023، السنة السابعة

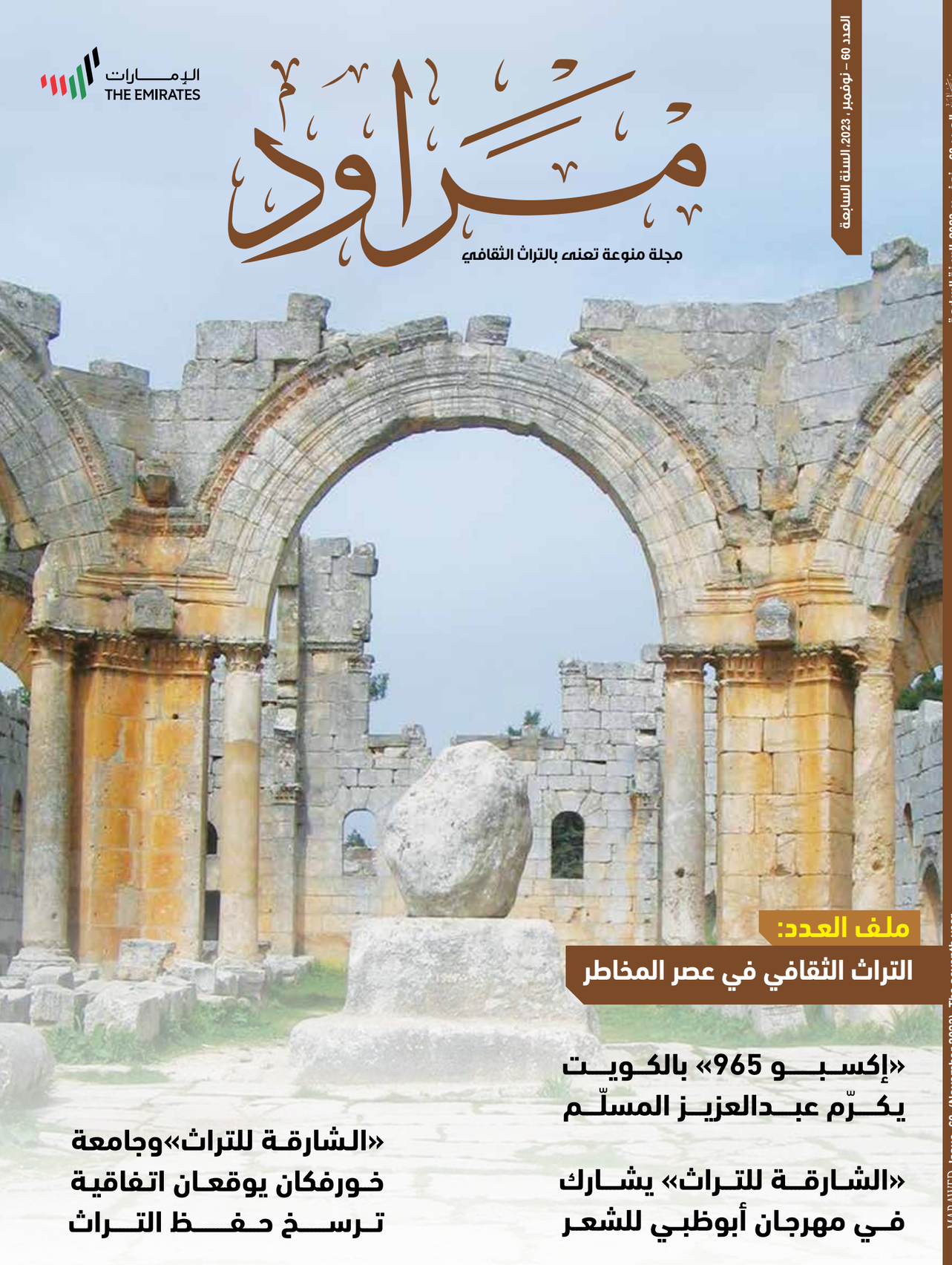

ملف العدد:

التراث الثقافي في عصر المخاطر

«إكسبو 965» بالكويت يكرّم عبدالعزيز المسلّم

«الشارقة للتراث» يشارك في مهرجان أبوظبي للشعر

«الشارقة للتراث»وجامعة خورفكان يوقعان اتفاقية ترسخ حفظ التراث

MARAWED Issue, 60, (November 2023), The seventh year

العدد 60 – نوفمبر 2023، السنة السابعة

صدر حديثاً

إدارة المحتوى والنشر
Content and Publishing Department
unesco
Centre Under the auspices of UNESCO
معهد الشارقة للتراث
SHARJAH INSTITUTE FOR HERITAGE

مُرَاوِد

سياسة النشر

تعنى مجلة «مراود» بالتراث الثقافي الإماراتي بالدرجة الأولى، ثم العربي والعالمي، وتسعى من خلال أبوابها إلى الاضطلاع بتلك الغاية، والتركيز على موضوعات تراثية تتّسم بالجدة والموضوعية والتنوّع والشمول، ومقاربة التراث، بحثاً وتوثيقاً ودراسةً وتدقيقاً، كما تعمل المجلة على تتبّع تجليات التراث الثقافي في الأعمال الإبداعية الإماراتية والعربية من خلال الاحتفاء والتوظيف والاستحضار لمختلف عناصره ورموزه.

وتركّز المجلة على الموضوعات الثقافية والتراثية والإعلامية التي تلامس مختلف جوانب التراث الثقافي من مهن وحرف وألعاب وحكايات وأزياء وزينة وحلي وفنون وموسيقى.. وكل ما يتّصل بفروع التراث الثقافي وعناصره، محلياً وعربياً وعالمياً.

يشترط في المواد المقدّمة للنشر:

- الجِدّة والأصالة، وألا يكون سبق نشرها أو مقدّمة للنشر لدى مجلات أخرى.
- الموضوعية في الطرح والمصداقية في التناول.
- سلامة اللغة، وسلاسة الأسلوب.
- التوثيق العلمي وعزوُ كل قول إلى قائله.
- ألا تتضمن المواد ما ينافي المبادئ الأخلاقية والمقدسات الدينية أو يخدش الحياء، أو ينافي الذوق العام.
- ترفق مع المواد صور عالية الدقة والجودة.
- يراعى في ترتيب المواد المقدّمة للنشر الجانب الفني والموضوعي وفق رؤية هيئة تحرير المجلة.
- يحق لهيئة التحرير التصرف في صياغة المواد، متى كان ذلك ضرورياً، لتتماشى مع سياسة النشر، ومع الطرح الإعلامي المناسب للقارئ.
- إدارة التحرير غير ملزمة بشرح أسباب رفض نشر المواد ولا إرجاعها.
- المواد المنشورة لا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة، وإنما عن رأي كتّابها.
- تستقبل المواد والمشاركات على بريد المجلة الإلكتروني: **marawed@sih.gov.ae**

للتواصل مع إدارة التحرير:

0097165014898

marawed@sih.gov.ae

التراث في زمن المخاطر

د. عبدالعزيز المسلّم

رئيس معهد الشارقة للتراث

رئيس التحرير

تعدّ تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة واحدة من التجارب الرائدة في الفضاء العربي، لما تعكسه من أهمية وخصوصية، وتكشف لنا البواكير الأولى للعناية بالتراث والاهتمام به وإحيائه، وزرع قيمه في نفوس الأطفال والنشء، وكل أفراد المجتمع والجماعات والمجموعات عبر منافذ عديدة، عن الأهمية الكبرى التي أولتها دولة الاتحاد للتراث، بفضل جهود القائد الرائد والحكيم، الوالد المغفور له، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيّب الله ثراه، حيث كان التراث حاضراً في فكره ورؤيته عبر سنوات طوال أمضاها في حفظ التراث وتوثيقه، وتسخير الجهود كافة من أجل النهوض بتلك الغاية النبيلة، ضمن رؤية ثقافية شاملة ومتكاملة، أسهمت في المحافظة على التراث بوصفه المعبّر بحق عن الهوية المحلية والخصوصية الثقافية لمجتمع الإمارات.

كما تعزّزت تلك العناية، وترسّخت على مدى السنوات الماضية، وأسهمت ـ بعد حين ـ في تسجيل كثير من العناصر التراثية الإماراتية، ضمن قوائم «اليونسكو» لحماية التراث الإنساني، وكانت لإمارة الشارقة جهود واضحة وعلامات بارزة في المحافظة على التراث الثقافي، تجاوزت النطاق الجغرافي الضيق إلى العالم أجمع.

في الآونة الأخيرة شهد العالم الكثير من الكوارث الطبيعية، من زلازل وفيضانات اجتاحت مدن العالم وقراها، وخلفت وراءها الكثير من الخراب والدمار الذي طال معالم البلدان ومواقعها التاريخية، ومبانيها التراثية التي كانت إلى الأمس القريب مزارات سياحية وتراثية، وقبلة يؤمّها كل مرتاد، هذا فضلاً عن القوى الظلامية التي أسهمت في تدمير التراث الإنساني بشكل مفجع ومؤلم، ترك أثراً سلبياً كبيراً، وفجوة عميقة في حياة الشعوب.

في هذا العدد سنسلط الضوء على هذا المبحث التراثي المهم، لرصد مواطن الخطر، ومواقع الضرر في المعالم التراثية والحضارية العربية، والسبل الكفيلة بمواجهتها والتصدي لها، من خلال عدد من المقاربات الرصينة التي تغوص في أعماق التراث العربي، وتستعرض لنا معالم وشواهد من التراث المهدّد في زمن المخاطر.

وفي العدد كذلك موضوعات غنية، وقراءات مهمة تستكشف معالم التراث الثقافي الإماراتي والعربي فالعالمي، وتحتفي بعناصره ومكوناته كافة.

المحتويات

العدد 60 – نوفمبر 2023

مراود

الغلاف

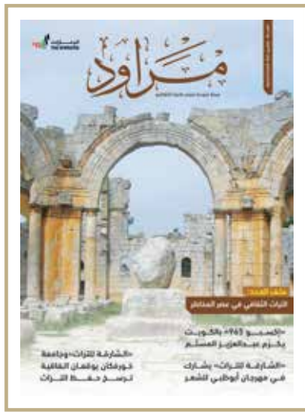

10
ملف العدد
التراث الثقافي
في عصر المخاطر

8
برامج وفعاليات
«الشارقة للتراث»
يحتفي بمرور عقدين
على توقيع اتفاقية
اليونسكو لصون التراث
الثقافي غير المادي

86
فنون شعبية
فن المخولف

88
دراسة
حمد بن عبدالله العويس
شاعر البعث والإحياء

102
زاوية
معرض الشارقة الدولي للكتاب..
شاهد على ترسيخ الشيخ
سلطان بن محمد القاسمي
لمكانة الشارقة في التاريخ الثقافي

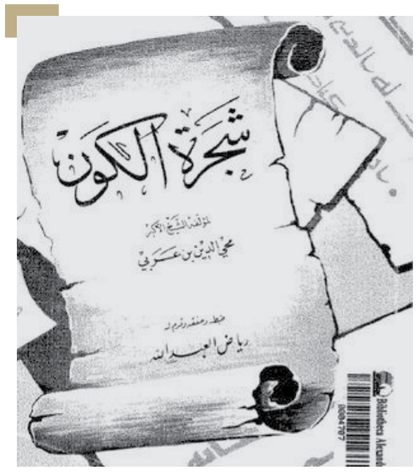

96
قراءة أدبية
«شجرة الكون»..
كتاب «الكلمة»
بلسان الباطن

خواطر
92
فلسطين
في الشعر الكويتي

رؤية
100
أثوابٌ ونمارق وزرابيّ
مبثوثة

ترحال الكلام
101
الشجر الذي يلد
أطفالا

مقاربات
106
ثقافة الحرب
عند هنود أمريكا

مجلة منوعة تعنى بالتراث الثقافي

رئيس التحرير
د. عبد العزيز المسلم
رئيس معهد الشارقة للتراث

مستشار التحرير
د. ماجد بوشليبي
كاتب وخبير ثقافي

مدير التحرير
د. منّى بونعامة
مدير إدارة المحتوى والنشر

هيئة التحرير
أ. علي العبدان
أ. عتيج القبيسي
أ. عائشة الشامسي
أ. سارة إبراهيم

سكرتير التحرير
أحمد الشناوي

التصميم والإخراج الفني
منير حمود

التدقيق اللغوي
بسام الفحل

التصوير
قسم الإعلام

صورة الغلاف:
كنيسة القديس سمعان العمودي بسوريا

128
أماكن تراثية
«متحف قصر العين» توثيق لمحطات من مسيرة مؤسس الدولة

الآراء الواردة في المقالات، والتحقيقات، والمقابلات، تُعبر عن رأي أصحابها ومواقفهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي وتوجه المجلة، ويتحمل أصحابها المسؤولية الأدبية أمام الرأي العام، والقانونية أمام الجهات المختصة.

800TURATH
+971 6 5092666
marawed_sih
www.sih.gov.ae

ISBN 978-9948-37-768-9

عبق الماضي
110
الزمن الجميل لمدرسة المهلب والخليل (خورفكان)

حرف تراثية
116
القلافة.. مهنة البحر

الموروث الشعبي
السدو العربي وتوأمه الحنبل المغاربي
118

أفق
الهدهد في التراث العربي والعالمي
132

كتابة ونقوش
حج عاهل إمبراطورية مالي
124

رؤى
السنع.. قيم لا تغيب عن الذاكرة الإماراتية
136

نافذة
144
مزرعة غابة سايهانبا الميكانيكية

قصص من التراث
140
الخياط المجنون

«الشارقة للتراث» يحتفي بمرور عقدين على توقيع
اتفاقية اليونسكو لصون التراث الثقافي غير المادي

بحضور سعادة الدكتور عبدالعزيز المسلّم، رئيس معهد الشارقة للتراث نظم المعهد احتفالية كبرى بمناسبة مرور 20 عاماً على توقيع اتفاقية عام 2003 لصون التراث الثقافي غير المادي، الصادرة عن منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو)، حيث كرّم الدكتور عبدالعزيز المسلّم، سعادة الدكتور عوض علي صالح، الباحث والمحاضر في التراث، بصفته الشخصية المكرمة بهذه المناسبة، تقديراً لجهوده في تحقيق أهداف الاتفاقية المنشودة على مدار السنوات الماضية، ولتأثيره الكبير في أنشطة اليونسكو بشكل عام.

وتضمنت الاحتفالية التي احتضنها مسرح مركز المنظمات الدولية للتراث الثقافي، التابع للمعهد، مجموعة من الفقرات والفعاليات والعروض المصاحبة، بحضور عدد كبير من محبي التراث ومسؤولي ومديري وموظفي معهد الشارقة للتراث.

«إكسبو 965» بالكويت يكرّم عبدالعزيز المسلّم

كرّم المعرض السنوي الخامس لفريق إكسبو 965 بالكويت، سعادة الدكتور عبدالعزيز المسلّم، رئيس معهد الشارقة للتراث، بحضور الشيخ فراس الصباح، وزير الشؤون الاجتماعية وشؤون الأسرة والطفولة الكويتي، وسعادة السفير الدكتور مطر حامد النيادي، سفير دولة الإمارات العربية المتحدة لدى دولة الكويت، تقديراً لدوره وجهوده في الحفاظ على التراث، ودعم أصحاب المتاحف الشخصية.

وشارك سعادة الدكتور عبدالعزيز المسلّم، رئيس المعهد، في الندوة الحوارية الخليجية حول أهمية دعم الحرفيين وأصحاب المتاحف الشخصية، وآفاق التعاون بين دول الخليج، وضرورة إقامة معارض خليجية مشتركة.

«الشارقة للتراث»
يشارك في مهرجان أبوظبي للشعر

شارك معهد الشارقة للتراث في مهرجان أبوظبي للشعر، في دورته الأولى، المقام في مركز أبوظبي للمعارض، بجناح استعرض فيه أبرز إصداراته في الشعر النبطي من دواوين ودراسات، مستعرضاً مسيرة الشعر النبطي ومدارسه واتجاهاته، وسيرة الشعراء القدماء الذين تركت قصائدهم بصمة خالدة في المشهد الشعري في الإمارات. كما ضم الجناح معرضاً لصور أعلام الشعر الشعبي في الشارقة وسيرهم.

وضمن البرنامج العلمي المصاحب لمهرجان أبوظبي للشعر، شارك سعادة الدكتور عبدالعزيز المسلّم، رئيس معهد الشارقة للتراث، في الجلسة الافتتاحية بورقة بعنوان: «أبعاد التجربة الشعرية في قصائد الشيخ زايد بن سلطان»، طيّب الله ثراه، مستعرضاً فيها مفردات من البيئة الإماراتية، بما تشتمل عليه من رموز، متحدثاً عن الطيور والمناخ والأمطار والتضاريس الجغرافية.

«الشارقة للتراث»
وجامعة خورفكان يوقعان اتفاقية ترسخ حفظ التراث

أبرمت جامعة خورفكان، اتفاقية مع معهد الشارقة للتراث، وذلك في إطار حرصها على ترسيخ أهمية حفظ التراث الثقافي، والإسهام في التقدم المعرفي والاجتماعي والاقتصادي للمجتمع.

وقّع الاتفاقية سعادة الدكتور عبدالعزيز المسلّم، رئيس معهد الشارقة للتراث، وسعادة الدكتور أحمد الشماع، مدير جامعة خورفكان، وذلك في مقر الجامعة.

وتهدف الاتفاقية، إلى تحقيق التعاون المشترك بين الجانبين في تبادل الخبرات العلمية والأكاديمية والبرامج التعليمية المتنوعة، والسعي في تطوير آلية تدريس التراث الثقافي والعلوم الإنسانية المختلفة، وإعداد وتقديم بحوث ودراسات تخصصية مشتركة في مجال التراث ودعم مجال النشر العلمي، بالإضافة إلى توجيه وتشجيع الطلبة والباحثين على تقديم دراسات تراثية تطبيقية تخدم المجتمع، وإتاحة الفرص التدريبية لهم لرفع كفاءتهم العلمية والعملية، وتهيئتهم لسوق العمل، إلى جانب التعاون في إعداد وتنفيذ المبادرات والمشاريع المشتركة، والإسهام في دعم الأنشطة والفعاليات التراثية والثقافية والمعارض الفنية البارزة، وتنظيم المؤتمرات والملتقيات البحثية والورش العلمية بين الطرفين.

ملف العدد

التراث الثقافي في عصر المخاطر

الشكل 7 دمار في أحد أجزاء من أسواق حلب القديمة

التحديات التي تواجه التراث الثقافي خلال الحروب: سورية نموذجاً بين 2012-2017

أ.د. مأمون عبدالكريم
رئيس قسم التاريخ والحضارة
بجامعة الشارقة

تمهيد:

واجه التراث الثقافي السوري مصاعب وتحديات كبيرة، بسبب الحرب التي تعيشها سورية منذ ربيع 2011، إن تطور العنف بسبب الاشتباكات العسكرية التي شهدتها كثير من المناطق في سورية، سبب تدميراً كبيراً لكثير من مكونات التراث الثقافي السوري الغني الذي يعود إلى آلاف السنين. أثرت تلك الأحداث المؤلمة التي تشهدها البلاد من غياب المؤسسات الحكومية المعنية من جهة، والسلطات الأثرية عن بعض المناطق بشكل كبير من جهة ثانية في تزايد الأخطار المُحدقة بالتراث الثقافي السوري، فتنامت أعمال الحفر السرّي المُمنهج من قبل عصابات مسلّحة تحترف هذه المهنة، كما تعاظمت بشكل ملحوظ أعمال تهريب الممتلكات الثقافية عبر الحدود التي خرجت عن سيطرة الدولة إلى دول الجوار، ومنها إلى الأسواق العالمية.

بسبب هذا العنف أصبحت مناطق واسعة على امتداد الجغرافية السورية مصنفةٌ على أنها مناطقٌ ثقافيةٌ منكوبةٌ جراء استفحال جرائم الحفر السّري، كما حدث في مواقع مهمة مثل أفاميا في شمالي سورية، وموقعي ماري ودورا أوروبس على نهر الفرات

(الشكل 1)؛ والتخريب المتعمد للأوابد الأثرية والتماثيل لأسباب أيديولوجية، كما حدث في مدينة تدمر (الأشكال 2-3-4) من قبل مجموعات «داعش»؛ أو تحولت إلى ساحات الحرب والاشتباكات، كما حدث في مدينة حلب، حيث تعرض جزء كبير من المدينة القديمة في هذه المدينة الاستثنائية المدرجة على لائحة التراث العالمي إلى أضرار هائلة (الأشكال 5-6-7)، مما أضرّ المباني والأسواق التاريخية فيها؛ كما سكن بعض الأهالي الذين نزحوا من المناطق المنكوبة في بعض المواقع الأثرية. وبسبب هذه الظروف فقد بادرت منظمة اليونسكو في المؤتمر السنوي للجنة التراث العالمي في كمبودية إلى وضع مواقع التراث العالمي في سورية الستة على لائحة اليونسكو للمواقع المعرضة للخطر في عام 2013.

الرؤية المطلوبة لحماية التراث الثقافي أثناء الحروب:

استندت رؤية المديرية العامة للآثار والمتاحف خلال الأزمة لعوامل رئيسة عدة:

أولاً- إفراغ المتاحف من المقتنيات وتوثيقها: تم إفراغ المتاحف من مقتنياتها، ووُضعت جميع القطع الأثرية في أماكن آمنة، وتم تركيب أجهزة إنذار في أغلب المتاحف، وزيادة عدد الحراس وتكثيف دوريات المناوبة. على الرغم من إجراءات الحماية المتخذة، فقد شهدت متاحف سورية عدة مع مرور سنين الحرب بعض السرقات خاصة في متحف الرقة، عندما سقطت بيد مجموعات «داعش»، أو مدينة إدلب بعد سقوطها بيد المجموعات الإسلامية المسلحة في مارس 2015، علماً أن المديرية العامة للآثار كانت قد اتخذت إجراءات الحماية فيهما على غرار المتاحف الأخرى في سورية، بالإضافة إلى ذلك، فقد تعرض جزء من القطع التراثية في المتاحف الأخرى للسرقة، مثل متحف التقاليد الشعبية في مدينتي دير الزور ودير عطية؛ أما القطع الأثرية الأخرى في بقية المتاحف، فبقيت سليمة، وتم نقلها إلى أماكن آمنة، وتم إنقاذ الأغلبية المطلقة منها بعد إجراء تغيير في استراتيجيات الحماية، بسبب تصاعد أعمال العنف غير المسبوقة، من خلال نقل كل ما يمكن نقله إلى العاصمة مع حلول صيف عام 2015. كما عمل فريق من خبرائها في توثيق التراث الأثري السوري، من خلال تنفيذ الأرشفة الرقمية للقطع الأثرية في المتاحف، وكذلك المواقع والمباني الأثرية، وتسجيل المعلومات عن وضعها الراهن والأضرار التي طالتها، مستعيناً بكل ما يتاح من صور ومقاطع فيديو معروضة على الإنترنت؛ أو من معلومات توفرها دوائر الآثار في المحافظات، أو يرسلها أبناء المجتمع المحلي في المناطق المتضررة. (الشكل 8-9).

ثانياً- تماسك الموظفين:

بقي معظم الموظفين في جميع المحافظات السورية في مناطق كانت لا تزال تحت سيطرة الحكومة أو خارج سيطرتها، كالمهندسين والآثاريين والفنيين والحراس والإداريين على رأس عملهم، وقامت المديرية العامة للآثار والمتاحف بتشجيعهم على الالتزام بمهمتهم المشتركة، وتعزيز شعور التضامن بينهم، من خلال اتخاذ العديد من الإجراءات الاستثنائية.

خلال هذه الأزمة، كان من الصعب على بعض الموظفين الوصول إلى المواقع الأثرية التي تقع في أماكن

الشكل 8 توثيق ثلاثي الأبعاد لواقع متحف تدمر في بعد تحريرها، الصورة من أرشيف المديرية العامة للآثار والمتاحف ومكتب إيكونيم في

الشكل 10 سكن اللاجئين الذين هربوا من الحرب واستقروا في المواقع الأثرية- صورة من أرشيف المديرية العامة للآثار والمتاحف

الشكل 9 عمليات إخلاء القطع المتضررة من متحف تدمر بعد تحريرها بالتعاون مع مختصين من البعثة البولونية

من مكان إلى آخر. فقد أطلقت حملة وطنية في خريف 2012 لتوعية الناس بقيمة ما تملكه هذه الأرض، وبدورهم في حمايتها؛ لأن الغاية هي الدفاع عمّا يجمع أبناء الشعب السوري. أخذت هذه الحملة أشكالاً عدة: الاحتفال بيوم التراث، وإقامة معارض للصور التي توثق الانتهاكات، ومحاضرات في المدارس، وكذلك الجامعات، والنشرات الصحفية، لنشر المعلومات حول أهمية تراثنا الثقافي، وأيضاً تشجيع جهود المنظمات غير الحكومية، وقد لعبت المجتمعات المحلية من خلال النخب المجتمعية، الدينية، الثقافية، دوراً مفيداً جداً في حماية المتاحف من اللصوص أثناء غياب السلطات الحكومية في بعض المدن والمناطق.

لقد كان لارتباط المجتمع المحلي بالتراث الأثري دور مهم في تخفيف الأضرار، وتقديم كل أشكال الدعم لإنجاح مهمة السلطات الأثرية في حماية وتحييد المباني الأثرية، خلال الظروف العصيبة التي تمر بها سورية. كان لتجربة المجتمع المحلي، على سبيل المثال في مدينة معرة النعمان، دور مهم أيضاً في إنقاذ المئات من لوحات الفسيفساء من السرقة في المتحف الوطني، عندما سقطت المدينة بأيدي المجموعات المسلحة، وغابت المؤسسات الحكومية من هذه المدينة في نهاية صيف 2012.

كما كانت الظروف الصعبة بسبب الاشتباكات في مناطق من شمالي سورية، قد دفعت بالسكان في عدد من المناطق لمغادرة قراهم، والسكن في عدد من القرى الأثرية المهجورة في ريف معرة النعمان، مثل قرى جبل الزاوية في كل من شنشراح وسرجيلا والبارة ودللوزة الاشتباكات، وفي كثير من الحالات كان السفر إلى هناك يشكل خطورة، لذلك تم اتخاذ إجراءات استثنائية لتجاوز هذه المشكلات؛ لذا قامت المديرية العامة للآثار والمتاحف بتوفير ميزانية إضافية لمساعدة بعض المتضررين من الأزمة، وتقديم الدعم بما في ذلك أماكن جديدة للإقامة أو وسائل للنقل، ومكاتب جديدة في مناطق أكثر أمناً. وفي بعض الحالات تم السماح للموظفين في هذه الأماكن بالبقاء في مدنهم حفاظاً على سلامتهم، والعمل مع المجتمع المحلي لرفع مستوى الوعي في مجال حماية التراث الثقافي، حيث كان من المهم لنا حماية حياة زملائنا في هذه الظروف الاستثنائية.

ا. التوعية والتعاون مع المجتمع المحلي:

بذل موظفو وكوادر المديرية العامة للآثار والمتاحف في جميع المحافظات جهوداً في إشراك جميع السوريين في حماية تراثهم الثقافي، والتعاون مع أبناء المجتمع المحلي، ووسطاء ونخب مجتمعية ودينية وفكرية، لتحييد مئات المواقع الأثرية وحمايتها من تداعيات الأحداث الراهنة، وتفاوتت نسب النجاح

وبترسا ومجليا.. إلخ، كانت هذه القرى قد أدرجت على لائحة التراث العالمي في اليونسكو منذ يونيو 2011، حيث كانت استراتيجية المديرية العامة للآثار والمتاحف، وبدعم من المجتمع المحلي هي إقناع هؤلاء السكان الذين استقروا في القرى الأثرية، في حماية مبانيها الأثرية من السرقة والتنقيب السري أو تكسير الحجارة الأثرية بقصد البناء الحديث، ففي عدد من الحالات نجحنا في تحويل السكان إلى حراس للمواقع الأثرية لمنع عصابات الآثار من التقرب من هذه القرى، والقيام بأعمال التدمير والتنقيب السري فيها. (الشكل 10).

بشكل عام كنا نتوجه دائماً إلى المجتمع المحلي في عدد من المناطق السورية، عندما تغيب السلطات الحكومية عنها بهدف حماية التراث من السرقة والتدمير، وفي نهاية المطاف فإن هذا المجتمع المحلي هو المالك الأول للتراث في منطقته قبل أن يكون ملكاً لكل السوريين أو للإنسانية جمعاء.

التعاون الدولي:

واصلت المديرية العامة للآثار والمتاحف برنامج النشر، وكثفت وجودها على الإنترنت، وقامت بتطوير الموقع الرسمي باللغتين العربية والإنجليزية، حيث أطلقت المديرية العامة للآثار والمتاحف موقعها الالكتروني منذ أواخر عام 2012، وتزويده يومياً بمعلومات وأخبار عن التعديات التي تطال التراث الأثري السوري خلال الأزمة. وتم التزام الشفافية ونشر المعلومات بطريقة مهنية بعيداً عن أي استخدام سياسي أو دعائي، كان الهدف منه مشاركة الشركاء في العالم للتعرف إلى حقيقة ما يجري، ما ساعد على تبادل المعلومات، كما نشرت جميع الصور التي توثق الأضرار والاستفادة منها مجاناً خلال الفترة الممتدة بين 2012-2017، وتم تنفيذ كثير من الأنشطة في مجال التراث الثقافي في الخارج بمساعدة دولية، وتم تحقيق بعض النتائج: مثل التعاون مع اليونسكو، الإيكوموس، الإيكروم (مركز آثار الشارقة)، الأيكوم، صندوق تمويل الأوابد العالمي، جمعية الأولويات الثقافية في روما، معهد الآثار الألماني والمتحف الإسلامي في ألمانيا، المركز العربي الإقليمي للتراث العالمي في البحرين، الإنتربول الدولي، ومعاهد وجامعات عالمية وتبادل الرؤى والمعلومات، كما كان للتغطية الإعلامية في الصحافة ومحطات التلفزة الدولية في أوروبا وأمريكا واليابان وكندا وغيرها في بعض الدول العربية دور كبير في إيصال رسالتنا إلى المجتمع الدولي، ما أسهم في تحريك كثير من المبادرات لمساعدة التراث السوري ضد السرقة أو التخريب.

الخاتمة:

وأخيراً، بذلت المديرية العامة للآثار والمتاحف خلال الفترة بين 2012-2017، التي تعد أسوأ مرحلة من الحرب في سورية، جهوداً حثيثة للحد من تأثيرات الأزمة في الآثار، وحققت نجاحاً على مختلف الصعد، أولها حماية الأغلبية المطلقة من المقتنيات في المتاحف في سورية، ونقلها إلى أماكن آمنة في العاصمة، وكذلك ما حققته من نتائج إيجابية من خلال التعاون مع أبناء المجتمع المحلي.

سعت المديرية العامة للآثار والمتاحف في كل أعمالها إلى توحيد رؤية السوريين حول الآثار في هدف واحد هو الدفاع عنها وتحييدها، باعتبارها تجسيداً لما جمع شعبنا دائماً، وحثّ السوريين على تحمّل المسؤولية الجماعية، والمشاركة في صون التراث الأثري من السرقة أو التخريب أو الطمس، وبفضل هذه الرؤية التي تبنتها المديرية العامة للآثار والمتاحف بقي أداؤها مهنياً وعلمياً ومؤثراً، وبقيت كوادرها موحدة في جميع المحافظات، وقد قدر لي أن أعمل مديراً عاماً للتراث الثقافي السوري في ذروة الحرب بين عامي 2012-2017 في ظروف استثنائية جداً، مع فريق آمن أفراده بانتمائهم إلى تراث بلدهم وثقافته، فترفعوا عن التجاذبات والخلافات، واجتهدوا وعملوا في ظروف صعبة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من تراث سورية.

مراجع:

- عبدالكريم، مأمون: الإرث الأثري السوري خلال الأزمة بين عامي 2011 و2013 باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية، وزارة الثقافة، سورية عام 2013.
- عبدالكريم، مأمون وقطيفان، لينا: (الإشراف والمشاركة): التراث الثقافي السوري خمس سنوات من الأزمة 2015–2011، وزارة الثقافة، 2016. باللغتين العربية والإنجليزية.
- M.ABDULKARIM, World Heritage at Risk: The Ancient Villages of Northern Syria before and during the Crisis of 2011–2021, Editing by Johan DARLINGTON, the publication supported by Gerda Henkel Foundation in Germany, 2023. In English
- ABDULKARIM M. Palmyra from War and Destruction to rehabilitation, The Future of the Bamiyan Buddha Statues, UNESCO–Springer, 2020.

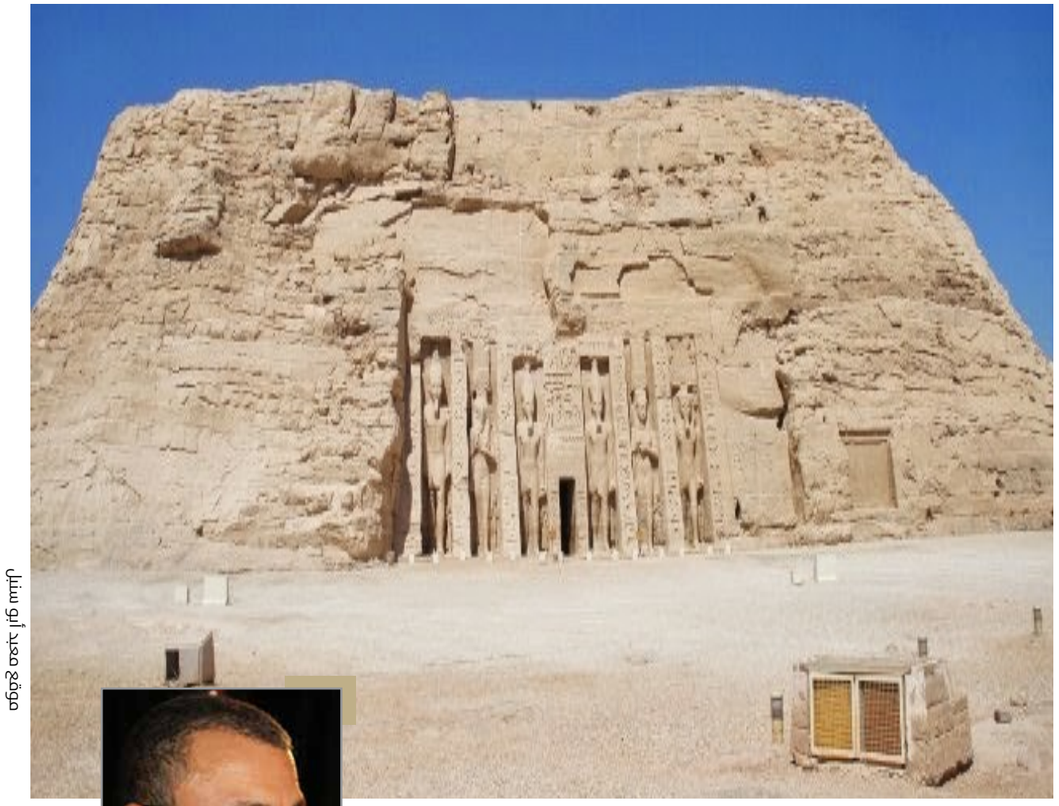

تصوير أوزير حمدي محمود

المخاطر الطبيعية والبشرية على التراث الثقافي في دول حوض النيل

أ. د. عبد العزيز صلاح سالم
أستاذ ورئيس قسم الآثار الإسلامية
بكلية الآثار جامعة القاهرة

مراود

تواجه مواقع التراث الثقافي العديد من الأخطار الطبيعية والبشرية التي باتت تهددها، فبالإضافة إلى الكوارث الطبيعية من التغير المناخي والفيضانات والسيول والزلازل التي تتسبب في أضرار بالغة على مواقع التراث الثقافي، تسهم كذلك الانتهاكات البشرية من الحروب والنزاعات المسلحة في تفاقم الأضرار على التراث الثقافي، واستفحالها، والتي تؤدي إلى الأضرار البالغة التي تلحق بهذا التراث الإنساني.

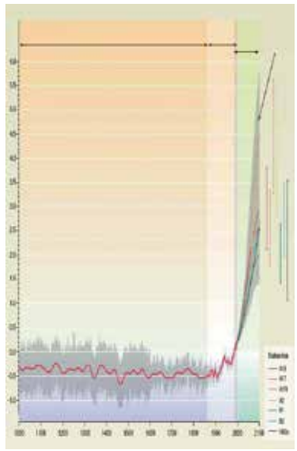

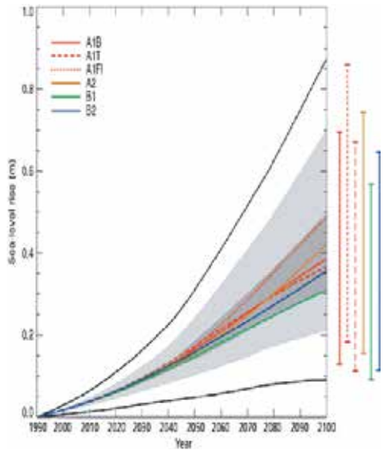

إن التغير المناخي على كوكب الأرض بات يثير قلقاً متنامياً في معظم دول العالم، حيث بلغ حجماً غير مسبوق، نتيجة لازدياد حركة النشاط البشري، حيث إن مناخ كوكبنا آخذ في التغيرُ، وقد بلغ هذا التغير حجماً غير مسبوق، وهو ما سينجم عنه العديد من المخاطر البالغة في مواقع التراث الثقافي، وهو ما يمثل خسارة فادحة للإنسانية، باعتبار التراث مورداً من موارد الحياة، ومصدراً للإلهام، لا يمكن الاستغناء عنه، ولا يمكن تعويضه إن لحق به الضرر أو التلف، فهو إرث البشرية. وقد بات المجتمع الدولي يعترف على نطاق واسع بأن التغيرات المناخية أصبحت تشكل أحد أبرز التحديات في القرن الحادي والعشرين، مما يستوجب اعتماد «نهج متكامل بشأن القضايا المرتبطة بحماية وصون مواقع التراث الثقافي»، حيث يؤثر تغير المناخ تأثيراً سلبياً في سلامة ممتلكات التراث الطبيعي والثقافي، وستتجلى هذه المخاطر فيما يلي:

- التأثيرات المادية المباشرة على المباني أو البنى التحتية على مواقع التراث الثقافي.
- التأثيرات التي تقع على البنى الاجتماعية التي تسفر عن تغيرات في المجتمعات، أو أن تفضي إلى هجرة هذه المجتمعات من مواطنها.
- التأثرات الضارة لتغير المناخ على نتاجات الإبداع البشري، حيث يؤثر تغير المناخ في الغطاء النباتي تأثيراً حاداً.

المواقع الأثرية التي غمرت بالمياه في جنوب مصر

فك وتركيب ونقل معبد أبو سنبل

إن تغير المناخ سيترافق مع تغيرات في الظروف البيئية التي تهدد الشواهد الأثرية المدفونة في باطن الأرض. كما أن هذه الشواهد الأثرية تبقى على حالها سليمة، وهي مدفونة بالأرض بعد أن تبلغ حالة من التوازن مع العمليات الهيدرولوجية، والكيميائية، والبيولوجية التي تحدث داخل التربة. لكن أي تغيير في بارامترات هذه العمليات، يمكن أن يُضعف قدرة الشواهد على البقاء، كما أن أي تغير في درجة حرارة التربة أو في مقدار ما تحتوي عليه من ماء سوف يؤثر في صون هذه المواقع. التغيرات في تركيبة الغلاف الجوي، وفي غازات الدفيئة وارتفاع منسوب مياه البحر ودرجة الحرارة السطحية للفترة الممتدة من عام ١٠٠٠ إلى عام ٢١٠٠. نقلاً عن: أوغستين كوليت، دراسات حالات عن تغير المناخ والتراث العالمي

شهدت منطقة حوض نهر النيل نشأة أعظم الحضارات التي عرفتها الإنسانية، حيث يربط نهر النيل بين مناطق ذات حضارات متنوعة، في الثقافات، والسلالات والديانات واللغات، وغيرها، وذلك نظراً لاتساع رقعة دول حوض النيل وتوفرها على معظم آثار الحضارات القديمة، من فرعونية وإغريقية، ورومانية وإسلامية، وهو الأمر الذي يجعل من التراث الثقافي والطبيعي في دول حوض النيل، تراثاً إنسانياً استثنائياً عالمياً، ويتوزع التراث الثقافي في دول حوض النيل في كل من مصر، والسودان، وإثيوبيا، وتنزانيا، والكونغو

معبد أبو سنبل

موقع معبد أبو سنبل

معابد الأقصر

الديمقراطية، وبوروندي، ورواندا، وكينيا، وأوغندا، وجنوب السودان، وإريتريا. ولضيق المقام هنا نكتفي بذكر مواقع التراث الثقافي في كل من مصر، والسودان، وإثيوبيا.

والثابت أن السدود الكبرى تمثل تأثيراً سلبياً في سلامة ممتلكات التراث الثقافي العالمي، حيث تفضي إلى زعزعة الأوضاع البيئية والاجتماعية، والاضطرابات الناجمة عن ذلك، وتزيد من سرعة نشاط التغير المناخي التي من شأنها تهدد مواقع التراث الثقافي.

كما أن مخاطر التغير المناخي لها تأثير مباشر في مواقع التراث الثقافي، القريبة من البحار والأنهار، ويعتبر موقع أبي سنبل في مصر من أولى المواقع التي تتعرض لمخاطر التغير المناخي بشكل مباشر، وذلك نظراً إلى أن معالمه الأثرية من مبان تراثية مثل معبد رمسيس الثاني في أبي سمبل، ودار عبادة إيزيس في جزيرة فيلة، غير ثابتة في أعماق التربة، حيث تم نقل أحجارها من موقعها الأصلي إلى مكان آخر، من خلال حملة دولية أطلقتها «اليونسكو» عام 1960م. وقد نقلت أحجارالمعبد ككتل صخرية كبيرة الحجم، وبالتالي فإن هذه العملية قد أفقدت أرضية المعبد وجدرانه صفة الثبات والرسوخ الضارب في أعماق التربة، مما يجعله أكثر عرضة للأخطار الطبيعية.

معابد الأقصر

والجديـر بالذكـر، أن معبـد أبـو سـمبل الصغـير أهـداه الملـك رمسـيس الثـاني للملكـة نفرتـاري زوجتـه الرئيسـة ومحبوبتـه، وتزيـن واجهتـه سـتة تماثيـل ضخمـة متسـاوية الحجـم، تمثـل الملـك والملكـة في إظهـار واضـح للمكانـة العاليـة التـي تمتعـت بهـا الملكـة لـدى زوجهـا.

ومـن جهـة أخـرى، فـإن التغـيرات في مسـتويات طبقـات الميـاه الجوفيـة، وفي دورات الرطوبـة، ومـدد الفـترات المطـيرة، ومسـتويات توافـر الميـاه الجوفيـة، وفي كيميـاء التربـة، سـوف تؤثـر في مـدى محافظـة البقايـا الأثريـة عـلى حالتهـا. و«مدينـة طيبـة في الأقـصر»، مـن بـين المواقـع التراثيـة التـي تتعـرض إلى مخاطـر التغيـير المناخـي، ومـما سـيكون لـه تأثـير سـلبي في عاصمـة مـصر في عـصري الدولتـين الوسـطى والحديثـة، التـي تعتـبر شـاهدة عـلى عراقـة الحضـارة المصريـة في ذروتهـا بمـا فيهـا معابـد وقصـور الكرنـك والأقـصر، ومقابـر وادي الملـوك ووادي الملـيكات.

وقـد كانـت طيبـة (الأقـصر) واحـدة مـن أهـم المـدن في مـصر القديمـة، وأكثرهـم ثـراء، وتضـم مواقـع أثريـة عـدة عـلى الضفتـين لنهـر النيـل، حيـث تضـم الضفـة الشرقيـة مدينـة الأحيـاء، وعـدد 14 معبـداً أشـهرهم معابـد الكرنـك والأقـصر. أمـا الضفـة الغربيـة فهـي مدينـة المـوتى التـي تضـم وادي الملـوك ووادي الملـكات، والمعابـد الجنائزيـة مثـل معبـد الرامسـيوم، ومعبـد رمسـيس الثالـث بهابـو، والمعبـد الجنائـزي للملكـة حتشبسـوت بالديـر البحـري.

وتعـاني مدينـة القاهـرة التاريخيـة مخاطـر ارتفـاع منسـوب الميـاه الجوفيـة، كـما أن ازديـاد نشـاط التغـير المناخـي

موقع مروي بشمال السودان

القاهرة التاريخية

موقع مروي بشمال السودان

موقع جبل البركل في شمال السودان

مدينة أكسوم القديمة بإثيوبيا

مدينة فاسيل الأثرية بإثيوبيا

يؤثـر سـلباً في هـذه المدينـة الـذي تعتـبر مـن أهـم وأكـبر المـدن التراثيـة في العـالم.

كـما أن ارتفـاع منسـوب ميـاه البحـار والأنهـار مـع مـا يترتـب مـن التحـات والغمـر الدائـم للمناطـق المنخفضـة، وازديـاد نسـبة كلوريـد الملـح البحـري في تربـة هـذه المناطـق، سـيكون لـه تأثـير مبـاشر في التحـف الأثريـة المحفوظـة في أماكـن مشـبعة بالرطوبـة أو عديمـة التهويـة أو تفتقـر إلى الأكسـجين، حيـث تـؤدي إلى زعزعـة تراتـب الطبقـات الأرضيـة بفعـل مـا تسـببه مـن تصدعـات وتغـير في مسـتويات سـطح الأرض. وهـذا أدى إلى مأسـاة في تاريـخ حضـارات إفريقيـا القديمـة، خاصـة الـتراث الثقـافي في مـروي بالسـودان التـي تعرضـت إلى الغمـر بالميـاه نتيجـة بنـاء سـد مـروي في عـام 2008 عنـد الشـلال الرابـع.

وتعتـبر المواقـع الأثريـة في مـروي مـن أهـم مواقـع الـتراث الثقـافي العالمـي المهـدد بالأخطـار، كونهـا عبـارة عـن مناطـق شـبه صحراويـة بـين نهـر النيـل وعطـبرة، التـي تضـم العديـد مـن الآثـار: مثـل الأهرامـات والمعابـد ومنـازل السـكن، والتـي تشـهد عـلى تبـادل الفنـون والهندسـة والأديـان واللغـات.

المراجع

عبدالعزيز صلاح سالم، التراث الثقافي العالمي في الدول العربية، معهد الشارقة للتراث، الإمارات، 2020.

UNESCO, World Heritage and Tourism in a Changing Climate, UNESCO & UNEP,2016.

التراث وغضب الطبيعة

أ.د. مصطفى جاد
عميد المعهد العالي للفنون الشعبية بالقاهرة -سابقاً

إذا تأملنا كمّ الكوارث الطبيعية التي لحقت بالعالم في الآونة الأخيرة.. فسنجد أن البشرية قد واجهت غضباً غير مسبوق من الطبيعة، ومظاهر هذا الغضب فاق كل ما قرأناه من حكايات خرافية، وأساطير كونية.. ظهر هذا الغضب في هذا الهجوم المهول من سيول، وأمطار، وعواصف، ورياح، وأعاصير، وزوابع، وحرائق.. عجزت جميع التكنولوجيات عن مواجهتها، وزلازل وبراكين في بقاع من الأرض لم نعتدها، ومناخ جوي، جعلنا تحت درجات حرارة عظمى وصغرى لا يستطيعها البشر.

وقد أحدث هذا كله تأثيراً مباشراً في التراث البشري بشقيه المادي وغير المادي.. وإذا كان التراث المادي متمثلاً في الآثار والمحميات الطبيعية وغيرها من أكثر عناصر التراث تضرراً كوننا نرى بأعيننا توابع التدمير ماثلة أمام أعيننا، فإن التراث غير المادي أو التراث الشعبي له النصيب الأكبر نتاج تلك الكوارث، غير أننا نشعر به على مدار الزمن.. ونستطيع تتبع ذلك في تغير نمط الحياة اليومية والموسمية للجماعات، حيث تتراجع المظاهر الاحتفالية - على سبيل المثال - إلى سعي وراء الاحتياجات الضرورية من رعاية طبية.. ومأكل، وملجأ، وغيرها من أسباب حماية الحياة.

ومفهوم «الكارثة الطبيعية» مرتبط بقدومها على غير المتوقع، ما يجعل منظومة البهجة تتحول إلى مظاهر عزاء.. لكننا قد نتوقف هنا لنتساءل عن أسباب الكوارث الطبيعية، لنجد بعض التفسيرات القادمة من عمق التراث الشعبي، فالمعتقد الشعبي في جميع أنحاء العالم يروي أساطير وروايات شعبية حول ما يعرف بأساطير الخلق، ومنها ما يفسر حدوث الزلازل - على سبيل المثال - وأشهرها في منطقتنا العربية وإفريقيا يفيد بأن الكرة الأرضية موضوعة على قرن ثور ضخم، كلما شعر بالتعب ينقل الأرض إلى قرنه الثاني.. وبين حركة الكرة الأرضية بين القرنين، تحدث تلك الزلازل التي نشعر بها.. وفي مناطق أخرى يتكرر الموتيف نفسه بحيوانات، أو كائنات أخرى غير «الثور» كالأفيال، أو الثعابين، أو السلاحف، أو الكائنات البحرية، أو الشياطين، أو البشر من ذوي القدرات العملاقة، فجميعهم يتلاعبون بالأرض، فتحدث الزلازل.. وعلى هذا النحو نجد تفسيرات شعبية حول البراكين، والسيول، والأمطار، والرياح.

غير أننا قد نقف – على المستوى الميداني لبحث التراث وغضب الطبيعة - على جانب مهم من مصادر تلك الكوارث التي يمكننا تلخيصها في عدم احترام البشرية لمعطيات التراث الثقافي للجماعات، والذي يقوم في الأساس على مصالحة الطبيعة، والإقبال على الحياة.. فكثير من المنتجات اليدوية التي كان يصنعها الإنسان بحرفية وإبداع، تحولت إلى منتجات تخرج من مصانع عملاقة، ينبعث منها كل ما يمكن أن يحدث خللاً في منظومة الطبيعة، لنجدنا أمام حرائق لم نستطع السيطرة عليها.. التهمت الغابات، وقضت على رئة العالم الخضراء.. كما تحول كثير من عاداتنا الشعبية اليومية التي كانت تقوم على الصحة العامة، كالمعارف البيئية المرتبطة بالزراعة، والصيد، وغيرهما.. إلى أن بدأنا في التدخل الشرس في بذور الأرض، والمواد الكيماوية الضارة، وأساليب الصيد غير الشرعية، والأطعمة التي أفسدت مناعة الجسم الإنساني.. فلم نجد الوقت لنروي الحكايات، ونغني السير والملاحم التي كانت تعيد صياغة أفكارنا، ونظرتنا للعالم.. وتركنا الكثير من الإبداعات التي أوشكت على الاندثار.. وقد أمهلتنا الطبيعة الكثير من الوقت حتى أعلنت غضبها، لنصبح في حالة من الذعر لنلهث لحماية تراثنا الذي توارثناه على مدى قرون.

وقد انتبه معهد الشارقة للتراث لهذه القضية منذ ثلاث سنوات، عندما بدأ يطلق ملتقى الراوي في بحث موضوعات مرتبطة بالروايات الشعبية حول الطبيعة، كالروايات حول الحيوان، والماء، والنبات، لنجد بين أيدينا الكثير من الدراسات التي تؤكد دوماً أن هناك بعض الخلل في التعامل مع ثلاثية الطبيعة تلك، وفي تقديرنا أن الكوارث الطبيعية جزء كبير منها نتاج هذا الخلل.. فالتراث غير المادي، وما يتضمنه من عادات وتقاليد ومعارف وفنون وحرف ومأثورات قولية من شأنه أن يحفظ البشرية من بعض كوارث الطبيعة.

كما انتبهت منظمة اليونسكو لهذه القضية، فأنشأت 2015 «صندوق التراث في حالات الطوارئ»، وهو صندوق متعدد الجهات المانحة، من أجل إيجاد آلية تمويل تتيح لليونسكو جمع أموال من دول العالم، والمؤسسات، من أجل مواجهة الأزمات الناجمة عن تلك الكوارث في جميع أرجاء العالم مواجهة سريعة وفعالة، وهو ما يتسق مع سرعة ومفاجأة حدوث «الكارثة الطبيعية» التي تأتي دون سابق إنذار، رغم ما توصلنا له من تقنيات متطورة.. والهدف الأساسي لهذا الصندوق هو مساعدة الدول - المشاركة فيه - على تفادي فقدان التراث الثقافي والتنوع الثقافي في حالات الطوارئ، والحدّ من هذا الأمر والتغلب عليه.

وعلى هذا النحو يُستخدم صندوق التراث في حالات الطوارئ لتمويل الأنشطة الرامية إلى التأهب والتصدي لحالات الطوارئ في المجالات التي تشملها اتفاقيات اليونسكو المتعلقة بالثقافة. ويشمل هذا الأمر جميع أشكال التراث الثقافي المادي والطبيعي والسلع والخدمات الثقافية، وأشكال التعبير، وجميع ما يتعلق بعناصر التراث الثقافي غير المادي المعلنة في اتفاقية 2003 لصون هذا التراث.

وفي تقديرنا أن غضب الطبيعة على هذا النحو من شأنه أن يتراجع، لو عقدنا العزم على مصالحة الطبيعة، والعودة إلى عناصرها الجمالية التي نعرفها جيداً.

د. اسعد عبدالرحمن
كاتب ـ السودان

آثار الحرب
في التراث الثقافي السوداني:
والتدابير الواجب اتباعها للحفاظ عليه

بدأت الحرب في السودان يوم 15 إبريل لتتزامن مع استعداد المجلس القومي للتراث الثقافي وترقية اللغات القومية للاحتفال باليوم العالمي للتراث، الذي صادف هذا العام يوم الثلاثاء 18 إبريل 2023م، والذي درجت غالبية دول العالم الاحتفال به منذ عام 1982م استجابة لدعوة المجلس الدولي للمباني والمواقع الأثرية ICOMOS ومنظمة اليونسكو بضرورة الحفاظ على التراث ونقله لأجيال المستقبل، وحمايته من الدمار الذي تسببه الحروب.

تم الترتيب للاحتفال بهذا اليوم المهم في هذا العام بالتنسيق مع الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون، ليقام بمباني التلفزيون يوم الثلاثاء الموافق 18 إبريل 2023م، الموافق 27 رمضان 1444 هجرية؛ لعراقة هذه المؤسسة؛ ولما تحتويه من إرث ثقافي صوتي بالإذاعة، ومرئي بمكتبة التلفزيون، وذلك لأن هذا الحدث تزامن مع ما يقوم به المجلس من تنفيذ مشروع الأرشفة الإلكترونية لأرشيف المجلس القومي للتراث واللغات، بالتعاون مع مركز بيت التراث، ولأهمية هذا المشروع للحفاظ على التراث وصونه ونقله للأجيال ولفائدة الدارسين والباحثين؛ وللترويج للتراث، ولما يحويه هذا المشروع من شراكات عدة، ومذكرات تفاهم مع جهات عدة، من أهمها هيئة الإذاعة والتلفزيون؛ وذلك لاعتبارات كثيرة، منها تبادل نسخ من مواد التراث المختلفة للاحتفاظ بها في أكثر من مكان، من أجل المحافظة على هذه المادة تحسباً وتحوطاً من حدوث كوارث طبيعية، حريق، وتلف نتيجة لسوء الحفظ، لكن، وبكل أسف، أتت الرياح بما لم تشتهِ السفن.

تحول فضاء هذا الاحتفال إلى ساحة حرب ضروس في أروقة الإذاعة والتلفزيون، وفي محيطها، انتظمت هذه الحرب وتوسعت دوائرها لتطال مدن بحري والخرطوم، بجانب مدينة أم درمان، العاصمة الوطنية، التي تكون فيها مجلس التراث بحي الملازمين؛ الحي التاريخي الذي يعود للفترة المهدية بالقرب من مباني الإذاعة والتلفزيون، والذي تربط بينهما طوابي أم درمان، كما نشبت هذه الحرب في كل المواقع الأثرية والتاريخية والفضاءات الثقافية بالخرطوم، في محيط القصر الجمهوري، حيث يقع متحف القصر بالقرب من متحف السودان القومي للأثنوغرافيا، وعلى مقربة أيضاً من متحف الآثار؛ متحف السودان القومي، ومتحف التاريخ الطبيعي بجامعة الخرطوم ومبناها التاريخي منذ 1904م، وعلى امتداد شارعها موقع وزارة الثقافة والإعلام الذي يعود للفترة المسيحية.

يقع المجلس القومي للتراث الثقافي وترقية اللغات القومية في حي الملازمين، وبه أرشيف للتراث الثقافي غير المادي، حفظت به مواد مختلفة في وسائط متعددة ومتباينة من عناصر التراث الثقافي غير المادي التي لا تقدر بثمن، جمعت من ولايات السودان المختلفة، تم تسجيلها من أفواه مبدعيها وممارسيها منذ سبعينيات القرن الماضي، وفي المقابل، نجد قسم الفولكلور بمعهد الدراسات الإفريقية والآسيوية بجامعة الخرطوم المؤسسة الأكاديمية التي تحتوي على مواد من التراث، جمعت أيضاً من ولايات السودان المختلفة منذ عام 1964م حفظت بأرشيف الفولكلور. الآن تم إعلان المنطقة التي يقع فيها مجلس التراث وهيئة الإذاعة السودانية ومحيطهما في مدينة أم درمان بأنها منطقة عمليات، وبكل أسف أضحت هذه المناطق ارتكازات لقوات ميليشيا الدعم السريع، وأصبحت ساحة للاشتباكات؛ ما أدى إلى دمار التراث المادي وغير المادي الذي يمثل الموروث الثقافي السوداني، ويعبر عن الهوية الثقافية السودانية التي ظللنا نبحث عن كنهها ومعرفة مكوناتها منذ استقلال السودان.

أصبح التراث الثقافي بشقيه المادي وغير المادي مهدداً بالزوال خلال الفترة منذ 15 إبريل اليوم الذي اندلعت فيه الحرب التي استمرت حتى يومنا هذا لأكثر

مـن أربعـة أشـهر، ذلـك لأن أرشـيف المجلـس القومـي للـتراث الثقـافي وترقيـة اللغـات يحـوي الـتراث الثقـافي غـير المـادي السـوداني بـكل مجالاتـه المختلفـة محفـوظ في وسـائط متعـددة منـذ مطلـع سـبعينيات القـرن المـاضي، عـلاوة عـلى أن هـذا الأرشـيف يحـوي مـادة منسـوخة مـن أرشـيف قسـم الفولكلـور بمعهد الدراسـات الإفريقيـة والآسـيوية بجامعـة الخرطـوم، وهـي تضـم أيضـاً تراثـاً وثائقيـاً ثقافيـاً وتاريخيـاً لا يقـدر بثمـن، وفـوق هـذا وذاك انتقلـت هـذه الحـرب إلى عـدد مـن الولايـات في مناطـق السـودان المختلفـة بولايـات دارفـور وكردفـان في مـدن: الجنينـة، زالنجـي، نيـالا، الفـاشر، والفولـة والأبيـض وغيرهـا؛ مـا أدى إلى حـدوث هجـرات سـكانية للعديـد مـن الجماعـات والمجموعـات التـي تبـدع وتمـارس الـتراث الثقـافي غـير المـادي، وتحمـل هـذا الـتراث وتحفظـه، بجانـب أن فيهـا متاحـف ومراكـز للـتراث وأرشـيفات حفـظ بهـا تـراث الجماعـات والمجموعـات التـي تقطـن تلـك المناطـق، كـما أن المجلـس القومـي للـتراث الثقـافي وترقيـة اللغـات بـدأ يؤسـس لوحـدات تابعـة لـه معنيـة بـإدارة الـتراث الثقـافي غـير المـادي، وفقـاً لاسـتراتيجيته لصـون وإدارة الـتراث في تلـك الولايات وفي غيرهـا مـن ولايـات السـودان المختلفـة، كـما تـم تدريـب أكـثر مـن مائتـين مـن الجنسـين مـن الكـوادر العاملـة في مجـالات الثقافـة المختلفـة، وفي المؤسسـات ذات الصلـة ومنظـمات المجتمـع المـدني والجامعـات والمتاحـف، بالإضافـة إلى الباحثـين والمهتمـين، وتـم تكويـن تسـعة فـرق لجمـع الـتراث، تـم تقسـيمها بحسـب المواقـع الجغرافيـة. الآن وفي ظـل الحـرب التـي تـدور في الخرطـوم وفي حـواضر الولايـات المختلفـة، أدى ذلـك إلى نـزوح تلـك الكـوادر، وأوقفـت العمـل بالمؤسسـات المختلفـة التـي تعنـى بـإدارة الـتراث، أو تمثـل فضـاءات لممارسـته ومراكـز لحفظـه، حيـث أصبحـت هـذه المواقـع ارتـكازاً لقـوات ميليشـيات الدعـم السريـع، ونتـج عـن هـذا الوجـود والاشـتباكات التـي تـدور حـرق بعضهـا مثـل مركـز محمـد عمـر بشـير بجامعـة أم درمـان الأهليـة، ومكتبـة الـدار السـودانية للكتـب، وقصـف بعضهـا مثـل معهـد الدراسـات الإفريقيـة والآسـيوية، ومكتبـة الهيئـة العامـة للإذاعـة والتلفزيـون ودار الوثائـق القوميـة.

الإجراءات والتدابير الواجب اتباعها للمحافظة على التراث في ظل الحرب الدائرة:

1. عقد ورشة لحصر الأضرار التي لحقت بالتراث الثقافي، ووضع التدابير الواجب اتباعها لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.
2. عقد ورشة تدريبية لتأهيل وبناء قدرات الكوادر العاملة في مجال إدارة التراث، بمشاركة الجهات ذات الصلة لإدارة التراث في أماكن النزاعات.
3. تنفيذ مشروعات لحصر مواد التراث في متاحف الولايات وأرشفتها إلكترونياً، وحفظها في أماكن متفرقة.
4. تأهيل متاحف ومراكز التراث بالولايات لحفظ مواد التراث.
5. جمع وتوثيق وحصر التراث بمشاركة المجتمعات المحلية في ولايات السودان المختلفة.
6. تنفيذ مشروعات تساعد على الترويج للتراث الثقافي غير المادي الذي يسهم في تحقيق التنمية المستدامة وبناء السلام.
7. دعم إعداد ملفات عناصر التراث المشتركة بين الدول العربية والإفريقية التي تشرف عليها منظمتا الألكسو والآيسيسكو.
8. إكمال قائمة حصر التراث الثقافي غير المادي الوطنية في السودان.
9. دعم الموقع الإلكتروني الخاص بالتراث الثقافي غير المادي السوداني؛ لرفده بكل البيانات الخاصة بالتراث الثقافي.
10. تنفيذ استراتيجية صون وإدارة وتطوير التراث الثقافي غير المادي في السودان للأعوام 2020-2029م.
11. دعم السودان للمشاركة في المؤتمرات الدولية التي تنظمها منظمة اليونسكو.
12. دعم متاحف التراث بالولايات وتأهيلها لحفظ وصون التراث.

آليات التنفيذ:

1. إدارة هذا العمل من ولاية الجزيرة بمدينة ود مدني التي تقع في وسط السودان، والتي تم نقل مباشرة أعمال مهام المجلس القومي للتراث الثقافي وترقية اللغات إليها، واللجنة الوطنية لليونسكو، كما نزح إليها عدد من الكوادر العاملة في إدارة التراث والمختصين والمهتمين. كما بها متحف للتراث والثقافة يتبع لوزارة الثقافة والإعلام، خصصت به وحدة لإدارة التراث لتنسيق عمل مجلس التراث، وتعتبر ملتقى طرق يسهل الوصول إليها من ولايات السودان الأخرى، مثل الولايات الشرقية؛ كسلا والقضارف وبورتسودان وولايات سنار والنيل الأبيض والنيل الأزرق وكردفان؛ ما يساعد على عقد الورش التدريبية بمشاركة كل الكوادر من هذه الولايات؛ للتنسيق لحصر وتوثيق التراث وحفظه.
2. التنسيق مع اللجنة الوطنية السودانية لليونسكو.
3. عقد الورش التدريبية بمشاركة خبراء التراث من خارج السودان ببرامج الزوم.
4. الإفادة من متحف التراث والثقافة للتطبيق لحفظ مواد التراث وأرشفتها إلكترونياً حتى لا نقع في الأخطاء السابقة.

الأفراد والمجموعات والجماعات
ودورها في صون التراث

فهد علي المعمري
باحث - الإمارات

«من ليس له ماضٍ، ليس له حاضر»، بهذه النظرة الثاقبة والواضحة والشاملة للمغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيّب الله ثراه، تتلاقى الأزمنة والحقب والأجيال في وقتٍ واحد، وكأنهم روح في جسدٍ واحد، تتعاقب الأزمنة لتنسج وحدة زمنيّة من دون انقطاع، أو فجوات خالية ربمّا تؤدي إلى خلل في التواصل. ومن هذا الفكر النيّر استضاء فكر المجتمع الإماراتي بكل عناصره وأطيافه وفئاته العمرية في معرفة الأهمية التي تقود الأفراد والمجموعات والجماعات إلى معرفة أدوارها في صون التراث.

ويبقى التراث هو العنصر الأكبر في تحديد هوية الإنسان الماضي والمعاصر والمستقبل، ولا تكتمل هذه الركائز الثلاث إلا بتراثه، سواء كان تراثاً مادياً أو معنوياً؛ فهو ضرورة إنسانية؛ لذا فالتراث بشقيه المادي وغير المادي يكتسب يوماً بعد آخر أهميته من كونه إرث الأجداد وحضارتهم، وبالتالي يُعد الحفاظ على التراث والعمل على صونه وتنميته خياراً لابدّ منه، وبشكل خاص بعدما أدرك الجميع أفراداً وقياداتٍ وحكومات بأهمية التراث ومكانته الراسخة في نفوس الشعوب، وأن الأمس ليس إلا حلقة مكمّلة لليوم، واليوم سوف يكمل رحلته إلى الغد، ليبقى دائم الوجود، وقد أصبح الحفاظ على التراث عالميّاً، وشكّل نواة المفهوم الجديد للتراث العالمي الذي تضمنته اتفاقية التراث العالمي الثقافي والطبيعي لعام 1972، التي وضعت بنودها منظمة اليونسكو.

من هنا تبدأ الرحلة، رحلة الأفراد والمجموعات والجماعات ودورها في صون التراث، فلكلّ واحد من هذه الفئة دور مهم في مسألة صون وحفظ التراث، وربمّا يتساءل البعض، ما الأدوار المنوطة لكل واحد من الذين ذكرناهم سلفاً ليصل بجهده ومجهوده إلى نتيجة يرضاها ويترضّاها؟ وهي صون وحفظ التراث، كيف؟ ومتى؟ ومن؟ وإذا ما أدركنا أن النواة الأولى هي الفرد، أدركنا صعوبة المسألة؛ لأن الفرد يبدو من أول وهلة هو الحلقة الأضعف والأقل شأناً في قائمة الفئات الثلاث التي ذكرناها قبل قليل، وإذا أمعنّا قليلاً، وتروّينا بعض الوقت، ووضعنا الأمور في نصابها وفي مكانها الصحيح، أدركنا أنّ الفرد، هو الأساس المتين، والقاعدة العريضة، التي يُبنَى عليها بناء التراث، تراث ذلك الشعب الذي صنع بيديه ذلك التراث، وبنى بيديه ذلك التراث، وقال بملء فمه ذلك التراث، وخطّ بيديه ذلك التراث، ومشى بقدمية على ذلك التراث، وعاش ردحاً من الزمن على ذلك التراث.

وإذا ما تجاوزنا الأفراد نصل بطريقنا المتسلسل إلى المجموعات والجماعات، لنصل في نهاية هذا الطريق إلى دور الحكومات التي تنصهر من خلالها جميع الأدوار لتتشكّل المنظومة المحكمة في حفظ وصون التراث، وبالتالي نستطيع عندئذٍ تحقيق ما نصبو إليه ونصون تراثنا التليد، ونبقيه خالداً تتسلمها الأجيال جيلاً بعد جيل.

ونعود إلى الفرد والأفراد الذين دأبوا على حفظ وصون التراث بكل ما يستطيعون فعله وعمله، فكانوا مشاعل مضيئة أضاءت لنا طريق الحفظ والصيانة لهذا التراث، فكان منهم الراوي، ومنهم القاص، ومنهم المعلّم، ومنهم صاحب المتحف، ومنهم المبادر إلى تنفيذ الأنشطة والورش التدريبية في مختلف فئات التراث

غير المادي، ومن هنا برزت الميادين المتنوعة التي أسهمت في حفظ وصون التراث من خلال المتاحف المنزلية، والمقتنيات القديمة التي تحمل في ثناياها روح التراث، إضافة إلى تعليم النشء الحرف والصناعات الشعبيّة التقليديّة، واتّجه بعض الأفراد إلى بناء القرى التراثية؛ ليُحيي في داخلها نمط الحياة التراثية بمبانيها وأسواقها ومنتجاتها، وهذه الأدوار انعكست إيجاباً على نقل التراث إلى الجميع.

وإذا ما أدَرْنا دفّة الحديث إلى المجموعات والجماعات نرى أن هذه الفئة أسهمت بشكل كبير في حفظ التراث وصونه، من خلال منظومة شاملة ومتكاملة من خلال شبكات القنوات المتنوعة التي تمثّلت في الجهات الاتحاديّة والمحليّة، مثل:

1. وزارة الثقافة والشباب.
2. دائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي.
3. نادي تراث الإمارات - أبوظبي.
4. هيئة الثقافة والفنون - دبي.
5. مركز حمدان بن محمد لإحياء التراث الشعبي - دبي.
6. معهد الشارقة للتراث - الشارقة.
7. دائرة الثقافة - الشارقة.
8. دائرة الثقافة والإعلام - عجمان.
9. دائرة السياحة والآثار - أم القيوين.
10. دائرة الآثار والمتاحف - رأس الخيمة.
11. هيئة الفجيرة للثقافة والإعلام - الفجيرة.

إضافة إلى الجمعيات التي تُعنى بالتراث، ومن هذه الجمعيات:

12. جمعيّة إحياء التراث الشعبي.
13. جمعية الشحوح للفن الشعبي - أبوظبي.
14. جمعية دبي للفنون الشعبية - دبي.
15. جمعية حتا للثقافة والفنون والتراث - دبي.
16. جمعية التراث العمراني - دبي.
17. جمعية التراث الشعبي - أم القيوين.

ونأخذ إمارة رأس الخيمة نموذجاً للجمعيات ذات النفع العام المتخصصة في التراث.

18. جمعية رأس الخيمة للفنون الشعبيّة.
19. جمعية الرمس للفنون الشعبيّة والتجديف.
20. جمعية ابن ماجد للفنون الشعبيّة والتجديف.
21. جمعية الجزيرة الحمراء للفنون الشعبيّة.
22. جمعية النخيل للفن والتراث الشعبي.
23. جمعية شمل للفنون والتراث الشعبي والمسرح.
24. جمعية الحبوس للفنون والتراث الشعبيّة.
25. جمعية الشحوح للثقافة والتراث.
26. جمعية المطاف للتراث والفنون البحرية.

والقاسم المشترك في هذه الجماعات والمجموعات تنظيم الفعاليات الثقافيّة والتراثيّة والمهرجانات التي تهتم بقطاع التراث في عموم دولة الإمارات، لأهداف وغايات ورؤى واحدة، وهي حفظ وصون التراث الشعبي من جهة، ومن جهة أخرى التعريف بهذا التراث من خلال الممارسات الدائمة لهذا التراث، وبهذا تستمر رحلة العطاء في عوالم التراث، والكثير من هذه الأنشطة والفعاليات والملتقيات والأيام والمهرجانات أصبح اليوم محطة مهمة، ووجهة يقصدها الكثير ممّن يريد الاطلاع والمعرفة بكل ما يختص بالتراث الشعبي، مثل: نادي تراث الإمارات الذي يُعنى بتنظيم سباقات القوارب الشراعية، وسباقات التجديف في المراكب الطويلة، وسباقات الهجن، وكلها تعبر عن الاهتمام بالتراث الإماراتي وثقافته التي توارثتها الأجيال.

كما تعمل المهرجانات، مثل مهرجان قصر الحصن في أبوظبي، والمهرجان الوطني للحرف والصناعات التقليدية في العين، ومهرجان ليوا للرُطَب، ومعرض أبوظبي الدولي للصيد والفروسية على صون الثقافة التقليدية؛ للاعتزاز بالحياة التي عاشها الأجداد والآباء في الماضي وصولاً إلى الحياة المتطورة.

أما معهد الشارقة للتراث، فإنه يتصدر المشهد التراثي

عبر أيام الشارقة التراثيّة، وملتقى الراوي، ذلك المشهد الذي أصبح حدثاً مرتقباً في كل سنة، وأصبح عالميّاً لاحتوائه على تراث الشعوب والعالم أجمع.

كذلك نرى القرى التراثية التي أخذت مساحة ليس بالصغيرة في خريطة التراث الشعبي، وأخذت تنمو بشكل كبير في الفترة الأخيرة؛ لتنضم إلى المشهد التراثي بحزمة من الأنشطة والفعاليات التراثيّة، واستعراض الحياة التقليدية في دولة الإمارات بصورة نابضة، والتعريف بالعادات والتقاليد، والمهن والحرف المحلية، وأنماط الحياة، ونأخذ منها مثالاً لا حصراً:

- قرية التراث في أبوظبي.
- قرية التراث الثقافية في العين.
- القرية التراثية في الفجيرة.

كل هذه المجموعات والجماعات أسهمت في نضج الثمر والقيام، وفق عملٍ منهجيٍّ نوعيٍّ يقوم على ركائز علمية، وتقوده المؤسسات المتخصصة في صون المواقع الأثرية وعناصر التراث وتعزيز المكانة الثقافية للدولة، وعلى رأسها وزارة الثقافة والشباب والهيئات الثقافية في إمارات الدولة، ولم نكن لنصل إلى هذه النتائج الممزوجة بالجهد مع العمل المؤسسي الاتحادي الثري، لولا الركن الأهم في هذه الأدوار، ركن الرؤية الثاقبة والبصيرة المتيقظة، دور القيادة العليا لدولة الإمارات؛ لأن التراث وكل ما سبق لم يكن ليأتي ثماره لولا الدعم الكبير والا محدود من لدن أعضاء المجلس الأعلى حكّام الإمارات، الذين جعلوا التراث نصب أعينهم، مكمّلين بتلك الرؤي والعزيمة التي غرسها فيهم المؤسس المغفور له، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان.

لتصل دولة الإمارات بفضل هذه القيادة الحكيمة إلى أبعد الحدود؛ لتصل وتحقّق مجموعة كبيرة من المواقع الإماراتية في قائمة «اليونسكو» لمواقع التراث العالمي.

كما أثمرت تلك الجهود، إدراج مجموعة عناصر في القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي للبشرية، لتغدو عناصر تراث الدولة بهذا النجاح المحقق، بجانب معالمها التاريخية، شواهد حيويّة عريقة، تُعَرِّف جميع دول العالم بالأهميّة الحقيقيّة والمثبتة لهذه الدولة التي غدت في ظل الاتحاد ومساراته وركائزه وخيراته، بين الدول الرائدة في قطاع التراث.

ونجحت دولة الإمارات، بفضل مؤسساتها ومبادراتها الاتحادية الثريّة، في تسجيل مجموعة كبيرة من العناصر التراثيّة والمواقع التاريخيّة، التي تعتبر من ركائز التراث الوطني الإماراتي، في هاتين القائمتين، ففي التراث المادي تبرز مدينة العين التي تحتضن بعض المواقع المهمة المدرجة على قوائم اليونسكو لمواقع التراث العالمي، بما في ذلك واحاتها الستة والمواقع الأثريّة في هيلي وجبل حفيت وبدع بنت سعود.

ومن مفردات التراث غير المادي تبرز الصقارة والسدو والتغرودة والعيّالة والعازي والرزفة والقهوة العربية ومجلس الضيافة والنخلة والأفلاج وسباق الهجن.

أبوظبي: تواصل دورها الريادي في حماية التراث الثقافي

قلعة الجاهلي والمربعة أنموذجاً حيّاً على صون زايد للتراث

فاطمة سلطان المزروعي
رئيس قسم الأرشيف الوطني

التراث من الموضوعات المهمة التي تناولتها الدراسات والبحوث والكتب، التراث قيمنا وعاداتنا وجزء لا يتجزأ من تاريخ أمتنا أن موضوع التراث لقي المزيد من الاهتمام لدى كثير من الأمم والشعوب، خاصة مع التقدم التقني وثورة الاتصالات المستمرة التي جعلت المعلومات سريعة التنقل وتداخلت كثير من المفاهيم والقيم، وتنوعت والثقافات، وكأن الحواجز الجغرافية واللغوية ونحوها قد أزيلت تماماً، وكأنه يقوم بعملية حماية للثقافات والهوية.

لقد لقي التراث الاهتمام الكبير من الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه -، الذي تطابقت أفعاله مع أقواله، لقد قال سموه: «لقد ترك لنا الأسلاف من أجدادنا الكثير من التراث الشعبي الذي حق لنا أن نفتخر به، ونحافظ عليه ونطوره، ليبقى رمزاً لهذا الوطن والأجيال المقبلة، وأن تراثنا الشعبي، إن دلّ على شيء فإنما يدل على القيم الأصيلة والنبيلة التي يتصف بها شعبنا منذ القدم، ومن هنا تجيء أهمية هذا التراث العظيم، إن سموه يؤكد أهمية التراث، وما تركه الأجداد والآباء من تراث، إن حديث الشيخ زايد – رحمه الله – فيه إعلاء من قيمة التراث وقدره، وهو ما أتاح لكثير من المؤسسات الثقافية والعملية والعديد من المنظمات العربية والدولية، مثل منظمة اليونسكو، القيام به، فالشيخ زايد آمن بالتراث، وبما يجزيه من قيم أصيلة ونبيلة، ويسعى ليبقى هذا التراث رمزاً لهذا الوطن والأجيال المقبلة، بما يتوافق مع المستقبل، وامتداداً لجهود سمو الشيخ زايد – رحمه الله – السابقة أصدر الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان – رحمه الله - قانون التراث الثقافي لإمارة أبوظبي في عام 2016، للنهوض بالتراث الثقافي لإمارة أبوظبي، فهو يكفل المحافظة على هوية المكان وإدارته والترويج له بما ينسجم مع العصر، وتعزيز الوعي الثقافي وتنمية الحس الوطني وترسيخ الهوية الوطنية والثقافية، وفق سياسات محكمة، وأطر منظمة، وبالحافظة على العادات والتقاليد التي يتميز بها المجتمع الإماراتي، إضافة إلى اتخاذ كل التدابير اللازمة لصون التراث وحمايته، ومنح تراخيص لإنشاء المتاحف والرقابة عليها، وفرض عقوبة على كل من يتجرأ على العبث بالتراث، أو تسول نفسه حيازة جزء منه بطرق غير شرعية، تصل لمدة لا تقل عن سنتين، والغرامة لا تقل عن خمسمئة ألف درهم، ولا تزيد على عشرة ملايين درهم، إن هذا القانون يعتبر بادرة تعكس مستوى الوعي الثقافي لنقل التراث للأجيال الصاعدة، بطرق صحيحة، بما يسهم في حفظ التراث، فدولة الإمارات تسعى دائماً للحفاظ على التراث والقيم الأصيلة والنبيلة، ومحاولة حمايته أثر عمليات التطور والتقدم الحضاري، بل هو ذا مهمة

أوســع وأكبر من المحافظــة على التراث الإنســاني بصفة عامة – مــع أهميتها - حيــث يتجاوز هذا الــدور إلى أدوار أخــرى متعــددة، وتعتبر قلعــة الجاهــلي والمربعة في مدينــة العين أحــد أهم الشــواهد التاريخية عــلى الإبداع المعماري الذي شــهدته الدولة منذ قرون، وســوف يتم اســتعراض هذه النــماذج، كونها أخذت حيــزاً من الاهتمام في البنــاء والعــمارة والترميــم، فقلعــة الجاهلي هي من أكــبر القلاع التقليديــة المبنية من الطــوب في مدينة العين، وأحد أقــدم المعالم التاريخيــة في دولة الإمارات العربيــة المتحدة، حيــث تحظى بمكانة مهمــة في تاريخ وحضارة مدينة العين، وأصبحت رمزاً للاســتقرار الســياسي الذي رســخه الشــيخ زايد بــن خليفــة (زايــد الأول) خلال فــترة حكمــه (1855-1909)، وفي مطلــع عــام 1955 حتى عــام 1971، اســتخدمت القلعة كمقــر للقوات المســلحة في المراحــل الأولى من تأسيســها التــي اضطلعت في تعزيز الأمن والاســتقرار في المنطقــة الشرقية في إمارة أبوظبــي والدفاع عن الحــدود الشرقية للبــلاد، وفي عام 1975 بــدأت دائــرة الآثــار والســياحة في العــين، التابعة لهيئــة أبوظبــي للســياحة والثقافة في عمليــة ترميم القلعــة للمحافظــة عليهــا، وتأهيلهــا ثقافياً وســياحياً، لتكــون قادرة عــلى القيام بهــذا الــدور التنموي، وفي فــترة الثمانينيــات، أصبحــت ســاحة القلعة الكبــيرة مكاناً لتنظيــم مختلــف الفعاليات الثقافيــة والتراثية.

منــذ عــام 2007، أصبحت قلعــة الجاهلي تمثــل مشروعاً حضاريــاً وتاريخيــاً وثقافيــاً لــه أهميته وواجهة رئيســة للزوّار والســياح.

كما أصبحت مقــراً لتنظيم الفعاليــات التراثية والمجتمعية المختلفة، مثــل مهرجان العــين الســينمائي، إضافة إلى وجود محــل تجاري ومقهى ومســاحات واســعة للعرض وممارســة النشــاطات الثقافية والتراثية المختلفة.

وتحتضــن القلعــة معرضــاً دائمــاً لــويلفريد ثيســيجر، المستكشــف والرحالة الإنجليــزي، ويضم المعــرض صوراً بالأبيــض والأســود التقطها خــلال رحلاتــه موثقــاً زيارته لإمارة أبوظبي التــي تعد صورة نافذة عــلى ماضٍ عريق، وحصــدت القلعــة في عــام 2016 جائــزة «تــيرا» عن فئة أفضل عــمارة طينية في العالم، كما شــهدت القلعة في أواخــر عــام 2016، حفل إطلاق عــام الثقافــة الإماراتية – البريطانية 2017، الذي حضره صاحب الســمو الشــيخ محمد بن زايــد آل نهيان، والأمير تشــارلز ولي عهــد بريطانيا .

وتعتــبر قلعــة المربعــة أنموذجــاً حيــاً وشــاهداً عــلى حــرص زايد – رحمــه اللــه – إذ أسســها في منطقة العين بالمنطقــة الشرقيــة من إمــارة أبوظبــي، وبناهــا لغرض حماية النــاس وتوفــير الأمن لهم، وقد أنشــأ فيهــا برجاً للمراقبــة ومقراً للحــرس، وقد بناها في عــام 1948، وكان الناس يجلــؤون إليها وقت الخطــر أو تعرضهم لأي هجوم مــن قبل الآخريــن، وهي مزودة بمســاحة فســيحة لإيواء المحتمين بهــا، وبحجرات كثــيرة لتخزين الغــلال والطعام، ومــزودة بالمــاء، كما أن قوة من ســاحل الإمــارات بقيادة ماكدونالــد عملــت فيها في عــام 1953، كما اســتخدمت كســكن خــاص لكبار الضيــوف في العيــم ومقــراً للإقامة

قائد قوة الساحل الرائد هاريسون طبيب قوة الساحل، وفي عام 1959، استحدثت شرطة أبوظبي مركز شرطة قلعة المربعة بالعين، وكان مختصاً بمتابعة الأمور الأمنية، وضم عرشين فرداً يتبعون دائرة الشرطة في إمارة أبوظبي، وكانت القلعة مقراً لشرطة العين، واستمرت الحراسة فيها حتى حضور فرقة قوة الإمارات المتصالحة بقيادة الميجر ماكدونالد، وفي عام 1957 اتخذت الفرقة من قلعة المربعة مقراً لها أثناء عملهم، وبنهاية 1959 قامت شرطة أبوظبي باستحداث مركز شرطة في منطقة المربعة في العين، وفي عام 1960 بلغت قوة شرطة أبوظبي المتمركزة في العين نحو 28 رجلاً، منهم 12 رجلاً من حراس الشيخ زايد، وبقيت قلعة المربعة حتى عام 1985، مبنى لإدارة شرطة العين، وافتتحه في 25 مارس 1989 الشيخ سعيد بن طحنون آل نهيان، عضو المجلس التنفيذي وكيل دائرتي البلدية وتخطيط المدن بالعين، ونظراً لأهمية القلعة التاريخية، فقد أمر المغفور له، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، في الثالث من مايو 1994، بتحويل المبنى القديم لإدارة شرطة العين قلعة المربعة لمتحف دائم، كما تعتبر قلعة المربعة اليوم واحدة من مواقع العين الثقافية المدرجة على قائمة التراث العالمي لليونسكو منذ عام 2011، وهي لاتزال تشهد مهرجانات تراثية وثقافية منذ عام 2016، وهي الآن من أهم المتاحف الشرطية التي تضم تاريخ ومسيرة الشرطة والأمن، ويشرف عليها الموروث الشرطي بالقيادة العامة لشرطة أبوظبي.

خلاصة القول إن هذا الاهتمام من شيوخنا بالمحافظة على التراث، يتسق مع التوجهات العالمية الحريصة على صون التراث الثقافي، وينتظم مع السياسات الحكيمة والرؤية الثاقبة لحكامنا في المحافظة على التراث الثقافي والهوية الوطنية والمكتسبات الثقافية، وتعزيز الوعي بأهمية التراث، بما ينسجم مع روح العصر ويتواصل مع الماضي، فما نعيشه اليوم، وما نقدمه من مبتكرات وإبداعات، ستكون في الغد تراثاً تتم دراسته من الأجيال القادمة، يستفيدوا من الدروس، وما تحتويه من قيم ومبادئ وعلوم، وهذا واحد من الأطر الطبيعية لفهم آلية التراث وعمله ومهمته، ومن هنا التراث ليس عالقاً في فترة تاريخية، بل هو نبض البشرية، وهوية الشعوب والأمم، وعلم متواصل ومستمر مع الإنسان، يستحق أن يحافظ عليه.

جهود الإمارات في:
حفظ المواقع الأثرية

مريم سلطان المزروعي
كاتبة - الإمارات

كثير من الحضارات سادت فترة من الزمن، ثم بادت أو اضمحلت، وظل تاريخها دليلاً عليها بكل ما تحتويه من عادات وتقاليد وقصص وأساطير تتناقلها الأجيال تباعاً، بما يكتشف من آثار تتمثل بالنقوش والكتابات والمعادن والمستحاثات؛ لتكون أدلة أوثق وأدق مما تتناقله شفاه الناس جيلاً بعد جيل.

هذا ما كشفت عنه التقنيات الحديثة، بأن دولة الإمارات العربية المتحدة لها فضل في البحث عن حضارتها المدفونة في تربتها منذ عقود طويلة، وهذا إنما يدل على أن أرض الإمارات كان لها دور في الاتصال مع العالم الخارجي، وبأنها قامت بدور في عملية التفاعل الحضاري والتبادل التجاري، قبل زمن من حضارات وادي الرافدين ووادي السند. حقبة زمنية واحدة فقط من الحقب التي والت على دولة الإمارات العربية المتحدة، ألا وهي حضارة أم النار.

«لسنا أمةً طارئةً على التاريخ»، مقولة صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، تستند إلى تاريخ طويل يقف شامخاً أمام العالم، بعد أن أكدت الأبحاث والدراسات أن تاريخ الحياة البشرية في الإمارات يمتد إلى ما يقرب من 7000 سنة، بحسب ما أكدت التنقيبات الأثرية، ففي عام 1957، وخلال عمليات استكشاف النفط، تم اكتشاف مستوطنة تعود إلى النصف الثاني

مـن الألفيـة الثالثـة قبـل الميـلاد في أم النـار (سـاس النخيـل)، وتُعـد هـذه المسـتوطنة أول الاكتشـافات الأثريـة في إمـارة أبوظبـي في أواخـر خمسـينيات القـرن الماضي. ومـن عـام 1991 حتى عام 2006 أدت الدراسـة الأثرية، ضمن برنامـج المسـح الأثـري لجزيـرة أبوظبـي إلى استكشـافات وأبحـاث في تاريـخ الإمـارة القديـم، وحفظـه ونـشره، تحـت رعايـة شركات النفـط الرائـدة، وشركات متعـددة الجنسـيات، وقبـل نشـوء حضـارة أم النـار ومنـذ آلاف عـدة مـن السـنين، كانـت تجـوب أرض الإمـارات أقـوام اعتمـدت عـلى حجـر الصـوان المتوافـر بكـثرة في أماكـن مختلفـة مـن الدولـة، وصنعـت منـه الآلات، وأدوات لا تقـل جـودة وصناعـة عـن تلـك الأدوات والآلات التـي صنعهـا إنسـان العـصر الحجـري الحديـث في أوروبـا وآسـيا وإفريقيـا. وهـذه الاكتشـافات لم تكـن مقتصرة عـلى مدينـة أبوظبـي فحسـب، بـل هنـاك مناطـق أخـرى كالمنطقـة الوسـطى في مليحـة والمـدام ودبي وعجـمان ورأس الخيمـة وأم القيويـن، والمناطـق الشرقيـة مـن مدينـة أبوظبـي؛ أي مدينـة العـين، إلى جانـب اكتشـاف أكـبر مقـبرة مـن مقابـر عصـور مـا قبـل التاريـخ، وفي أماكـن أخـرى مـن خـور المناهيـل بالقـرب مـن أم الزمـول التـي تتميـز اليـوم ببيئتهـا الصحراويـة، التـي لم تكـن كذلـك قبـل سـبعة آلاف عـام، فقـد كانـت مجتمعـات تلـك المناطـق تعتمـد عـلى صيـد الحيوانـات،

وعـلى الرعـي في آن واحـد، وربمـا تكـون قـد مارسـت الزراعـة بشـكل محـدد. مسـتوطنة أم النـار أُقيمـت عـلى الحافـة الصخريـة المحاذيـة للخـور الـذي يحيـط بالجزيـرة قبـل أعـمال الدفـن الحديثـة مـن جهتيهـا الشرقيـة والجنوبيـة الغربيـة، ولطبيعـة الأرض التـي أنشـئت عليهـا المسـتوطنة، فقـد بـدا الموقـع كأنـه يتكـون مـن ثـلاث مناطـق منفصلـة، وكذلـك أطـلال مسـتوطنة أم النـار تـم اكتشـاف عـدد مـن البيـوت المشـيدة فيهـا بأحجـار كلسـية وأدوات متنوعـة، كانـت تسـتخدم لصيـد السـمك مصنوعـة مـن النحـاس. وتعتـبر المنطقـة الشرقيـة مـن إمـارة أبوظبـي مـن أغنـى المناطـق التـي شـهدت آثـار حضـارة أم النـار، ففـي منطقـة الهيـلي في الطـرف الشـمالي مـن مدينـة العـين نشـأت أقـدم المسـتوطنات البشريـة في تاريـخ دولـة الإمـارات العربيـة المتحـدة، كـما أقيمـت فيهـا المدافـن الجماعيـة التـي تشـبه مدافـن جزيـرة أم النـار، وتـم اكتشـاف مدافـن أخـرى وبعـض المواقـع السـكنية، وقـد سـميت تلـك المدافـن بمدافـن هيـلي؛ لوقوعهـا في قريـة هيـلي التـي اتسـعت اليـوم وأصبحـت جـزءاً مـن مدينـة العـين، وهـذه المواقـع لهـا أهميـة لمـا تعكسـه مـن عقائـد وطقـوس جنائزيـة مـن جهـة أخـرى، ومـن فـن

رفيـع وهندسـة متقنـة في نظامهـا المعـماري مـن جهـة أخـرى، ومـن المواقـع الأخـرى التـي تضـم مبـاني مشـابهة، وتعتـبر مـن المسـتوطنات البشريـة الضخمـة المحصنـة، موقـع تـل أبـرك عـلى مفـترق الطريـق إلى مدينـة أم القيويـن، وموقـع مويلـح في مدينـة الشـارقة.
إن المواقـع الأثريـة إلى اليـوم لم يتـم اكتشـافها جميعهـا، إلا أنهـا بـين مراحـل وفـترات تطورهـا وبمختلـف أنماطهـا وأغراضهـا، فهـي المرآة التـي تعكـس فلسـفات الشـعوب، وهـي محصلـة التفاعـل الديناميـكي بـين الحضـارات الإنسانية، وحاجـات المجتمـع، وقيمـه الإنسـانية، والاجتماعيـة والاقتصاديـة.
لقـد اسـتطاعت دولـة الإمـارات ممثلـة في جهاتهـا، المحافظـة عـلى العديـد مـن المواقـع الأثريـة لأهميتهـا التاريخيـة والمعماريـة، والسـعي إلى ترميمهـا بـكل مـا تحتويـه هـذه المواقـع مـن حصـون وقـلاع، فقـد تبنـت اسـتراتيجية شـاملة متكاملـة، ووضعـت الـتراث نصـب عينيهـا، ونـشرت الوعـي المجتمعـي، واسـتخدمت تقنيـات حديثـة في عمليـة التوثيـق والبحـث عـن المصـادر والمواقـع التراثيـة جديـدة، كموقـع ساروق الحديـد الذي يقـع في قلـب إمـارة دبي، الـذي يـروي حكايـة واحـدة مـن أهـم المواقـع الأثريـة المكتشـفة، والأكـثر غموضـاً، وفتحـت لهـا المتاحـف كمتحـف ساروق الحديـد الـذي يعـدّ إضافـة مميـزة إلى تاريـخ دبي؛ حيـث تكشـف المشـغولات اليدويـة التـي تـم التنقيـب عنهـا في موقـع الحفـر عـلى امتـداد أطـراف صحـراء الربـع الخـالي، ومتحـف اللوفـر الـذي يعـدّ أول متحـف عالمـي في العـالم العـربي، يترجـم ويعـزز روح الانفتـاح بـين الثقافـات باعتبارهـا واحدة مـن المؤسسـات الثقافيـة الرائـدة في قلـب منطقـة

السـعديات الثقافيـة في جزيـرة السـعديات بمدينـة أبوظبـي، يحتـوي عـلى القطـع الفنيـة؛ حيـث يعـد المبنـى نفسـه تحفـة معماريـة صممهـا المهنـدس المعـماري جـان نوفيـل، مسـتوحاة مـن التقاليـد المعماريـة الغنيـة والموقـع الفريـد.
و«اتفاقيـة حمايـة الـتراث العالمـي الثقـافي والطبيعـي» التـي اعتمدتهـا منظمـة اليونسـكو في عـام 1972، والتـي صـدرت بموافقـة 193 دولـة مـن بـين 195 مـن الـدول الأعضـاء في المنظمـة، وإذا رصدنـا الاتفاقيـات العالميـة المتعلقـة بالبيئـة فسـنلاحظ أن هنـاك 74 اتفاقيـة، وأخـيراً، اليـوم يمثـل الحفـاظ عـلى الـتراث الإمـاراتي الأصيـل ركيـزة أساسـية للدولـة، وملمحـاً مـن ملامحهـا المتميـزة، فهـي تشـكل الهويـة الوطنيـة، وعنـصراً أساسـياً؛ لذلـك تحظـى دولـة الإمـارات بمكانـة مميـزة في منظمـة اليونسـكو، وهـو مـا يعـزز الطموحـات الراميـة إلى المـضي قدمـاً في تسـجيل مقومـات الـتراث الإمـاراتي الأصيـل.

الكارثة الطبيعية وعصور ما قبل التاريخ

رؤية وتطلعات للمستقبل

لولوة المنصوري*
كاتبة - الإمارات

مازلنا نرزح تحت ذاكرة الطوفان القديم، يذكرنا اللاوعي بذلك كلما اندلعت كارثة هنا أو هناك، فنحن أبناء الطوفان وسلالته، ورثنا المخاوف من الغرق في الصدوع والأخاديد العظيمة، ورثنا جينات التمزق في الأودية والكهوف والفجوات الأرضية الكبرى، طوفان حدث ذات حقبة منسية من ذاكرة مملوءة بالثقوب والروايات والخرافات والأقوال، توارثنا الخوف من الفقد والموت والبدايات الجديدة، رغم أن النبي نوح قد بحث في الألواح وجمع الشتات، وصنع فكرة النجاة والخلاص من الأزمات، فكانت حكايته بمثابة توريث لسبل التدارك السريع للأزمة والتعامل مع الكوارث بحكمة وبصيرة وتوكل، والإيمان بقدرة الإنسان الهائلة على إنتاج مصدر النجاة، وخلق بدايات جديدة، وإن كانت في نظر الآخرين شيئاً مستحيلاً أو خارقاً.

لقد فقد الإنسان في عصور الطوفان الكثير من كنوزه وحضارته وذاكرته، في المقابل بقي جزء عظيم محفوظ في ذاكرة الأرض، وليس مهماً أين حدث الطوفان القديم فعلياً، ومتى تحديداً، بل الأهم من ذلك هو اللقى والمعثورات وبقايا الصهاريج والسدود والنواظم الصناعية المائية التي ابتكرها إنسان تلك العصور السحقية، وتركها وراءه دليلاً واسترشاداً على أن البشرية كانت تنعم بالوفرة والبركة والتطور، لكن ذلك لم يدم طويلاً، فالكوارث الطبيعية غيرت من طبيعة الأرض، وخلقت تغيرات مناخية فجائية، فانقرضت كثير من الثروات الحيوانية والزراعية، مقابل بروز فصائل جديدة قادرة على التكيف والتفاعل مع البيئة الجديدة. وإزاء كل تلك التحولات عبر السنين، لم تقف البشرية مكتوفة اليد أمام المناخ المتقلب والأزمات الفجائية، بل ابتكرت وشيدت ما يساعدها على التأقلم والتكيف والحماية والرعاية والتطور.

وقد ورد في الكتب الإغريقية حال الجزيرة العربية في حقبة زمنية كانت تنعم فيها بالرغد والغنى والوفرة الزراعية الأشبه بالجنان، مثل كتابات المؤرخ الإغريقي (أغاثارشيدس) في القرن الثاني قبل الميلاد. الحديث عن «أرض العرب السعيدة التي تضم كل ما هو نفيس، والتي تعيش فيها قطعان الحيوانات من كل نوع، وبأعداد وفيرة، وتنمو على سواحلها نباتات البلسم والقرفة، وتوجد بها غابات من أشجار اللبان والرح والنباتات العطرية». تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، القاهرة، المجمع الثقافي العلمي العراقي، 1953، ج1/6-8

والمعثورات الملموسة كثيرة في شبه الجزيرة العربية، والمؤكدة على إنجازات الإنسان الأول في ابتكار ما يؤلف بينه وبين الطبيعة، ويحقق التعايش والحياة الآمنة، أبرزها السدود والصهاريج المتصلة بأنفاق عميقة والنواظم الاصطناعية للمياه المنتشرة في هضبة نجد، إضافة إلى الآبار العميقة جداً في شبه الجزيرة العربية التي مازالت بارزة للعيان، منها القرية السعودية (لينة التاريخية) التي تقع على درب تاريخي (درب زبيدة)، وعلى مفترق طرق رئيسة تربطها بالرياض والقصيم وحائل، وطريق تجاري قديم يربط نجد والعراق.

حضارة ليموريا وأطلنتس المفقودتين

تحكي الروايات أنه في زمن بعيد جداً، حيث عصور ما قبل التاريخ، عاشت على الأرض حضارات كبرى، منها حضارة ليموريا وأطلنتس، ثمة كارثة عظمى غامضة حدثت في ذلك الزمن، أدت إلى تمزيق الأرض، وتباعد القارات، ودخول نسبة كبيرة من المياه التي غمرت معالم تلك الحضارتين، فصارت رمزاً أسطورياً عظيماً، وعلامة غامضة مضافة للحضارات المفقودة تحت المحيطات الكبرى.

لقد عاش البشر في حقبة أطلنتس وليموريا في مراحل متقدمة من العلم والتطور والاكتشاف والإبداع والتنبؤ، لكن المخاوف من المجهول لم تبرح أرواحهم، رغم ما وصلوا إليه من تقدّم فكري وعلمي وثقافي، لقد ولّد الخوف من الكوارث الطبيعية إنساناً متأرجحاً في وعيه، فاختلق فكرة الآلهة المتعددة الحارسة والحامية للطبيعة ودعائم الأرض، فثمة إله للبحار وإله للمطر وإله للرمال وإله للخصب وإله للرياح... وهكذا تعددت الآلهة، وفقاً لتعدد أنماط الكوارث التي تندلع من عناصر مختلفة في الطبيعة من فيضان وطوفان وجفاف وزلازل وزحف للرمال وغيرها من الكوارث اللامتناهية والمفاجئة الطبيعية منها، والمختلقة كالأوبئة والحروب. وبقيت تلك العصور ولادة للخرافات وسلطة الكهنوت في ظل انتشار الأوبئة والمصائب والحروب.

لقد كانت الأوبئة في تلك الحقبة تُبرر بالمعصية، فيندفع الناس إلى التكدّس في المعابد طلباً للغفران، وهو ما كان يُسهم في تفشّي الأوبئة. تحت ذريعة الهيمنة على «الأرواح الآثمة» والتصدي لها بالتوبة والإحساس بالخطيئة، وذلك ما راكم عبر العصور مشاعر الذنب والعار في النفس البشرية التي استوحشت الحياة على الأرض، وتعاملت مع الكوارث بوعي بدائي، فبقيت واجمة في صدمة وذهول عند وقوع الكوارث، دونما إنجاز حقيقي يعيد للإنسان اعتباره، وللعقل البشري اختلافه وتميزه في الوجود.

الوعي بالكوارث

حظي الإنسان الأول على حواس دقيقة التنبؤ للكوارث على غرار الحيوانات والطيور، إنها هبة أصيلة في الكائنات، غير أن الحياة المعاصرة المادية المملوءة بالزحام والأبنية والجدران والحدود والحياة الرقمية الإلكترونية، أفقدت الإنسان تدريجياً حاسة التنبؤ الأصيلة ولتدابيره الروحية للأزمات، ذلك التبصّر الذي كان أسلافنا يتمتعون به في منتهى الفطرة والبداهة، دونما افتعال أو ركون للبرمجيات والأخبار الإعلامية الزائفة والمضللة، كما يحدث في عصرنا هذا.

لقد عانت الأرض طويلاً الانصياع التام لفجائية الكوارث، وكأن قدر الطبيعة محكوم بالزلازل والصدوع والانهيارات والبراكين، ومن نظرة شمولية، فهي بمثابة تطهير لفوضى الأرض، وتراكماتها المبطنة عبر آلاف السنين، وقد تفاقمت الفوضى والحروب منذ قدوم الإنسان على وجه البسيطة، فالمعادلة بدت واضحة جداً، كلما تكتل جنون الجشع والقتال والصراعات عبرّت الأرضُ عن رفضها بكارثة عظيمة.

ولكن في الحين نفسه، ولّدت الكوارث في الإنسان الأول وعياً جديداً، وعياً ينمو تدريجياً ما بعد وقوع الكارثة والمرور بمراحل استيعاب المرء للحدث وتحليله من جوانبه العميقة، وعياً يتواشج مع روح الأرض والطبيعة الحُرّة، فقد تنتج الزلازل كنتيجة حتمية لتحقيق التوازن وتخليص الأعماق من تراكمات الجثث والطاقات السلبية والذبذبات الثقيلة، إن الأرض أشبه بإنسان محتم عليه أن يصاب بالمرض بين فترة وأخرى، وهي تسعى للاستشفاء بالظواهر الطبيعية التي نطلق عليها (الكوارث). قد

تبدو الفكرة رومانسية وحالمة في ظل التأزم والألم والشتات والأمراض والفواجع التي يعيشها الإنسان من مخلفات الكوارث، لكنه منطق الكون وحقيقته الرحيمة، وليست الأرض وحدها من تسعى للتشافي.

على مرّ الزمان عانى الإنسان الغضب الفجائي للطبيعة، ولم يتعرف حتى الآن إلى طريقة مثلى في توجيه الكارثة أو درئها، لقد أعجزت الكوارث العقل البشري وأشعرته بالضعف والهوان والحيرة. وبقيت الوسائل المخترعة والتوصيفات التبصيرية بسيطة جداً، لا تكاد تقهر إلا حيزاً متواضعاً من الكوارث.

أما على مستوى الوعي الفردي علينا أن ندرك تماماً فور وقوع أي كارثة أو صدمة، فإن أكثر الحلول المقدمة للضحايا هي الاحتواء والعاطفة والمساندة، بما ينقل المتضررين إلى واقع أفضل، أما النقد والبحث عن مبررات فهي من شأنها أن تفاقم من حجم الصدمة.

يقول سعيد ناشيد في إحدى مقالاته: «عندما تقع الكارثة، أو تقع أنت في الكارثة، ينبغي لك أن تتجه فوراً إلى ما بعدها، لأجل الحدّ من آثارها السلبية. أمّا أن تتسمَّر على عتبة الصدمة، وتفتش بكلّ أسىً وتذمُّر عمّا يُبرّر وقوعَ الكارثة أو وقوعك فيها، فهذا مجرّد نكوص إلى اللاوعي البدائي، عندما كان الإنسان يعتقد أنّ الطبيعة تُعاقبه على تصرفاته. غير أنّ خطاب التبرير يزيد من حجم الخسائر، وذلك بصرف النظر عن النيات والخلفيات». العقل والكارثة، مقال، سعيد ناشيد، العربي الجديد، 15، سبتمبر، 2023.

الموسيقا في زمن الكوارث
الحرب نموذجاً

علي العَبْـدان
مدير إدارة التراث الفني
معهد الشارقة للتراث

تـؤدّي الكـوارثُ، سـواءٌ كانـت طبيعيـةً كالـزلازل والفيضانـات؛ أم مُصطَنعـةً كالحـروب؛ إلى دمـار الكثـير مـن مصـادر الـتراث الثقـافيّ، ليـس المـاديَّ منـه فحسـب، ولكـنْ غـير المـاديّ كذلـك، كالحِـرَف، والكنـوز البشريـة أو الـرواة، وكذلـك الموسـيقا الشـعبية، وغيرهـا مـن عنـاصر الـتراث الثقـافيّ غـير المـاديّ، وسـيكون موضـوع هـذه المقالـة حول الموسـيقا في زمـن الكـوارث؛ الحـربَ خاصّـةً، إلا أن حديثـي لـن يقتصرَ عـلى ذِكـرِ أثـرِ الكارثـة في الموسـيقا، بـل عـن أثـرِ الموسـيقا في الكارثـةِ أيضـاً، فمنـذ القديـم، كانـت الطبـولُ تُقـرَعُ للحـرب

أدركَ البَـشَرُ منـذ قديـم الزمـان أهميـة الصـوتِ عامّـةً، والموسـيقا خاصـةً؛ في الحـربِ والقتـال، ولم يقتـصر الأمـرُ عـلى صَيْحـاتِ الهجـوم، وقـرع طبـولِ الحـرب، ونفـخ الأبـواق للنفـير العـام؛ بـل توصّـلَ إنسـانُ العـصر الحديـث إلى اخـتراع سـلاحٍ صـوتيّ، هـو مدفـعٌ ذو سـبطانة، ومِغـلاق، وآليّـة إطـلاق، مـن عيـار 2.5 سـم، واسـتُعمِلَ نمـوذجٌ كبـيرٌ منـه في الحـرب العالميـة الثانيـة[1]، لكـنّ الجانـبَ الـذي قـد يكـونُ أكـثرَ إثـارةً للدهشـة، هـو القـدرة عـلى اسـتعمال الموسـيقا للتحريـض عـلى الإبـادةِ الجماعيـة، وتقـول كاثريـن بيكـر[2] في أحـدِ مقالاتِهـا إن «الموسـيقا الشـعبية اسـتُعمِلت كسِـلاحِ حـربٍ أثنـاءَ وبعـدَ التفـكك العنيـف الـذي حصـلَ ليوغوسـلافيا»، وأوضحـت أن الموسـيقا «اسـتُعملت خـلال حـروب يوغوسـلافيا كأداةٍ لـلإذلال والعنـف في معسـكرات الاعتقـال، ولإثـارة الخـوف مـن الآخَـر ذي العِـرق المختلِـف».

أمـا تأثـيرُ النزاعـات المُسـلَّحة والحـرب الشـاملة في ضيـاع المـوروث الموسـيقيّ الشـعبيّ فيبـدو جَليّـاً في المثـال الأفغـانيّ، حيـث تلاشَـت ملامـحُ الموسـيقا الشـعبية الأفغانيـة رويـداً بعـدَ عـام 1978، بسـبب «الانقلابـات، وأحـداث الغـزو والاحتـلال، والانتقـالات العنيفـة للسـلطة، واجتثـاث الغالبيـة العظمـى مـن السـكان، ونزوحهـم إلى معسـكراتِ اللاجئـين، وخروجهـم منهـا عـلى مـدار الأعـوام الثلاثـين التاليـة، وأكـثر» كـما يقـول مـارك سـلوبين في كتابـه (الموسـيقا الشـعبية)[3]، وفي السـياقِ

ذاتِهِ يقولُ تيموثي رايس في كتابه (علم الموسيقا العِرقيّ) إن دراساتٍ قليلةً عن الموسيقا قد أُجريَت في البلدان التي دمّرتها الحربُ تماماً، ففي أفغانستان مثلاً، شَكّلَ الاحتلالُ السوفييتي للبلاد عامَ 1978 بدايةَ مرحلةٍ من الصِراع، ما زالت مستمرّةً حتى الوقتِ الراهن، وفي خِضَمّ ذلك قُتِلَ العديدُ من الموسيقيين الأفغان، في حين فَرَّ آخَرون إلى البُلدان المجاورة، مثل باكستان، وإيران، أو إلى أوروبا، والولايات المتحدة الأمريكية، وأستراليا. وفي أفغانستان نفسِها أُصيبَت مدارسُ الموسيقا، والجامعات، ومحطة الإذاعة الوطنية بالضعفِ الشديد. أما أغاني ما قبلَ العام 1978 التي كانت تدورُ في الأساس حولَ أشكالٍ متعدِّدةٍ من الحب العاطفيّ، والصوفيّ، والوطنيّ؛ فقد جَرَى تَسْييسُها مِن قِبَل الشيوعيّين والمُجاهِدين المُعارِضينَ على السواء، حتى جاءت حركةُ طالبان، فحَظَرتها[4]. ولا شكَّ في أن هذه النزاعاتِ المُسلَّحة مُتعدِّدةِ المراحِل قد دمَّرَت جانباً كبيراً من الموروثِ الموسيقيّ في أفغانستان، فاليومَ لا توجد موسيقا شعبية أفغانية صافية، بل هي خليطٌ مستورَدٌ من بعض دول الجِوار مثل باكستان، وقد عانى هُواةُ الموسيقا منذ بدايةِ الألفيّةِ الجديدة في العثور على أساتذةٍ في التراث الموسيقيّ الشعبيّ، إذ إن العديدَ منهم قد هاجروا من أفغانستان كما علِمنا، ويعودُ فضلٌ كبيرٌ في حفظِ وتوثيق جانبٍ من هذا التراث الغنيّ في أفغانستان إلى الإثنوموسيقيّ الأمريكيّ مارك سلوبين، الذي سجّلَ العديدَ من أنواع الغناء والموسيقا الأفغانية في ستينيّاتِ القرن العشرين، أي في مرحلةٍ ما قبلَ الحرب.

وهنا قد يَرِدُ سؤالٌ عن موقف علماء الموسيقا العِرقيّة من هذه المشكلاتِ الثقافية الخطيرة الناجمةِ عن الحروب، وفي الواقع، كان هؤلاء مشغولين لمدةٍ طويلةٍ في اكتشاف أنواع الموسيقا العِرقية، ومحاولات توثيقِها وحفظِها، ثم دراستها، وذلك في الأوضاع المستقرّة للبُلدان والمجتمعات، كما كانوا مشغولين بمحاولات كسب الاعترافِ الأكاديميّ لتخصصهم ذي الاسم الغريب (علم الموسيقا العِرقيّ – Ethnomusicology)، ولهذا تأخرت مشاركتُهم لبقيةِ علماء الإناسة أو الأنثروبولوجيا في التعرّض بشكلٍ إيجابيٍّ لآثار الكوارثِ والحروب في الثقافةِ الإنسانية، ويقول تيموثي رايس في هذا الصدد إنه ليس حتى أواخرِ التسعينيات فقط، حين بدأ علماءُ الموسيقا العِرقية في بحثِ الأسئلة المتعلّقة بأثر الموسيقا في تخفيف تفاقُم الحروب، والعنف، والنزاعات؛ التي تواجه الكثيرَ من سُكّان العالَم اليوم، وكان من بين أوائل هؤلاء العلماء أولئك الذين عملوا في مناطقِ النزاع ذاتِها، حيث مزّقت الحروبُ البلاد، وجَرَت أعمالُ تطهيرٍ عِرقيّ، كما حَدَثَ في يوغوسلافيا، وقد خرجت بعضُ الدراساتُ في هذا المجال باكتشافاتٍ مهمةٍ جداً، من أخطرِها أن المجموعاتِ المتنازعة في الحرب تستعمِلُ الموسيقا في العادةِ لإقصاءِ الآخَرين، أو مُعاداتِهم، أو تعميقِ الاختلافِ معهم، وقد يصِلُ الأمرُ إلى حَدّ إرهابهم وترويعِهم، في حين يعتقِد علماءُ الموسيقا العِرقيّة، ومَن يُحبّون السلامَ عموماً؛ أن الموسيقا شكلٌ تعبيريٌّ مِثاليٌّ لِفَضِّ النزاعات، وتحقيق التفاهم بين مختلِفِ الثقافات، والتخفيف من آلام كارثةِ الحرب[5].

إن العملَ في مناطق الحرب، ومناطق ما بعدَ الحرب، وفي أماكن الصراعات والعنف الأخرى؛ قد دفعَ العديدَ من علماء الموسيقا العِرقية إلى تصميم مشاريعَ لمعالجةِ آثار الحروب، وكوارثِ النزاعات، والدمار، والفقد والفراق، والنزوح، وتحسين العلاقات بين المجتمعات الواقعة في النزاعات والحروب، فعلى سبيل المثال، صمَّمَ الإثنوموسيقيّ الكرواتيّ سفانيبور بيتّان أقراصاً مُدمجةً (compact discs)، وأفلاماً، ومنشوراتٍ أخرى، ليس للجمهور الأكاديميّ، بقدرِ ما هي لتثقيفِ صانعي السياسات، بشأن محنةِ الموسيقيين الغَجَر، الذين نَزَحوا بسبب الحربِ بين الصربِ والألبان في كوسوفو. كما عملَ بيتّان أيضاً في النرويج لإقامةِ جسورٍ موسيقيةٍ بين اللاجئين البوسنيّين والنرويجيّين، من خلال عُروض أداءٍ موسيقيٍّ مشتركٍ من التراث البوسنيّ، وقد أراد بيتّان من هذا المشروع مساعدةَ البوسنيّين في الشعور بالفخر بهُويّتِهم من جهة، ومساعدةَ النرويجيّين كذلك في الحصول على فهمٍ أفضلَ لهذه الأقليةِ من اللاجئين التي تعيش بينهم[6].

1. موسوعة العلوم والتقنية – الصوت، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، 2010، ص 26.
2. كاثرين بيكر أستاذة محاضرة في تاريخ القرن العشرين في جامعة هلّ، وهي مؤلفة كتاب (أصواتُ الحدود – الموسيقا الشعبية، والحرب، والقومية، منذ العام 1991).
3. مارك سلوبين: الموسيقا الشعبية، ت: محمد فتحي خضر، نشر مركز أبوظبي للغة العربية، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2022.
4. Timothy Rice, Ethnomusicology: A Very Short Introduction. Oxford University Press 2014: 109 – 110
5. المرجع السابق، ص 108.
6. السابق نفسه.

المكتبات العامة وحفظ التراث

د. فهد حسين
أكاديمي وناقد - البحرين

لا شك في أن للمكتبات العامة والخاصة عربياً وعالمياً، وعلى مر التاريخ، دوراً كبيراً في حفظ التراث من الضياع أو التلف أو الإهمال، أو من عبث الإنسان نفسه، أو غير ذلك، لهذا لايزال العالم يعمل بكل جهد وصبر على حفظ المخطوطات والكتب النادرة والمصادر التي يحتاجها الباحثون في مجالات متعددة، وهذا ما نجده في عدد من مكتبات العالم العربي والإسلامي، وكذلك بعض المكتبات العالمية ذات المكانة التاريخية، من هنا انبرى بعض المهتمين بالثقافة والتراث، وأعني في عالمنا العربي بجمع المخطوطات النادرة، والعمل على ترميمها وتقديمها للباحثين من أجل خدمة الإنسانية، وعلى سبيل المثال ما يقدمه مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي من دور بارز وفعال في هذا المجال الذي لمع صيته واسمه عالمياً.

وكما عمد المركز في هذا المجال، فقد عمد وعمل عدد من المراكز والمعاهد العربية على حفظ التراث المكتوب من خلال إنشاء المكتبات، أو تأسيس دور نشر لإعادة طباعة الكتب النادرة، أو تشكيل مؤسسات بحثية أو أكاديمية تعنى بالتحقيق في الكتب والمصادر التي باتت مفقودة أو نادرة جداً، وغير ذلك من المؤسسات التي تخدم الثقافة والتراث، وتسهم في حفظه من الضياع، وبخاصة في علم اليوم الذي تميز بحضور عالم مواسع في قرية صغيرة من خلال شبكة عنكبوتية مذهلة، وفي سياقات الذكاءات الاصطناعية التي باتت تعمل بها بعض الجهات، وتهتم بأهميتها في الحفظ والصيانة.

وما نحن فيه اليوم من اهتمام ورعاية واحتضان لتراثنا المدون والمخطوط عبر التاريخ، فهو نتيجة رؤية المسؤولين والمهتمين والمعنيين في الدول التي لها تاريخ حضاري وثقافي وتراثي، وتميزت بوجود الكتب والمكتبات، حيث يؤكد التاريخ أن الكتاب تعرض إلى حرب عشواء، وصلب بطرائق مختلفة، كما لحق بعدد من مكتبات العالم التي كانت مصدر المعرفة والبحث، والزاد الذي يغذي الناس في كل وقت يشعرون بالجوع.

وإذا كان الجاحظ سجل ملاحظاته ورؤيته تجاه محاسن الكتاب، وأهميته، وجعله الصديق الذي لا يفارق صديقه، وهو البستان الذي يتصف بتعدد الزهور والرياحين، وإذا قال عنه المتنبي خير جليس في الزمان كتاب، فإن هذا وذاك يغضب أعداء الثقافة، ويزعج الجاهل بدورها، لهذا لا نستغرب حينما نقرأ التاريخ والوقوف على معاناة الحضارات والثقافات العالمية من جهل الناس والدول حين تقوم بإتلاف الكتب وحرقها، وهدم المكتبات وأمكنة الطباعة أو النسخ، حيث يذكر لنا التاريخ أن مكتبة القسطنطينية أحرقت في عام 473 ميلادية، لتفقد البشرية ما يقرب من 120 ألف مخطوط، وبعد أن أنشأ الإسكندر الأكبر مكتبة الإسكندرية قبل الميلاد، لتضم آلاف الكتب والمخطوطات بأكثر من لغة، أحرقت بتلك النار التي أشعلها يوليوس قيصر في السفن الراسية عند شاطئ الإسكندرية، إذ شملت النيران الكتب، وذلك في عام 48، كما أحرقت المكتبة التي أنشئت في مصر أيام الفاطميين عام 1068.

أما مكتبة بيت الحكمة ببغداد التي بناها هارون الرشيد، واستثمرها وطورها المأمون، فأمرها مختلف، من حيث تكوينها واحتضانها أربع حضارات وثقافات

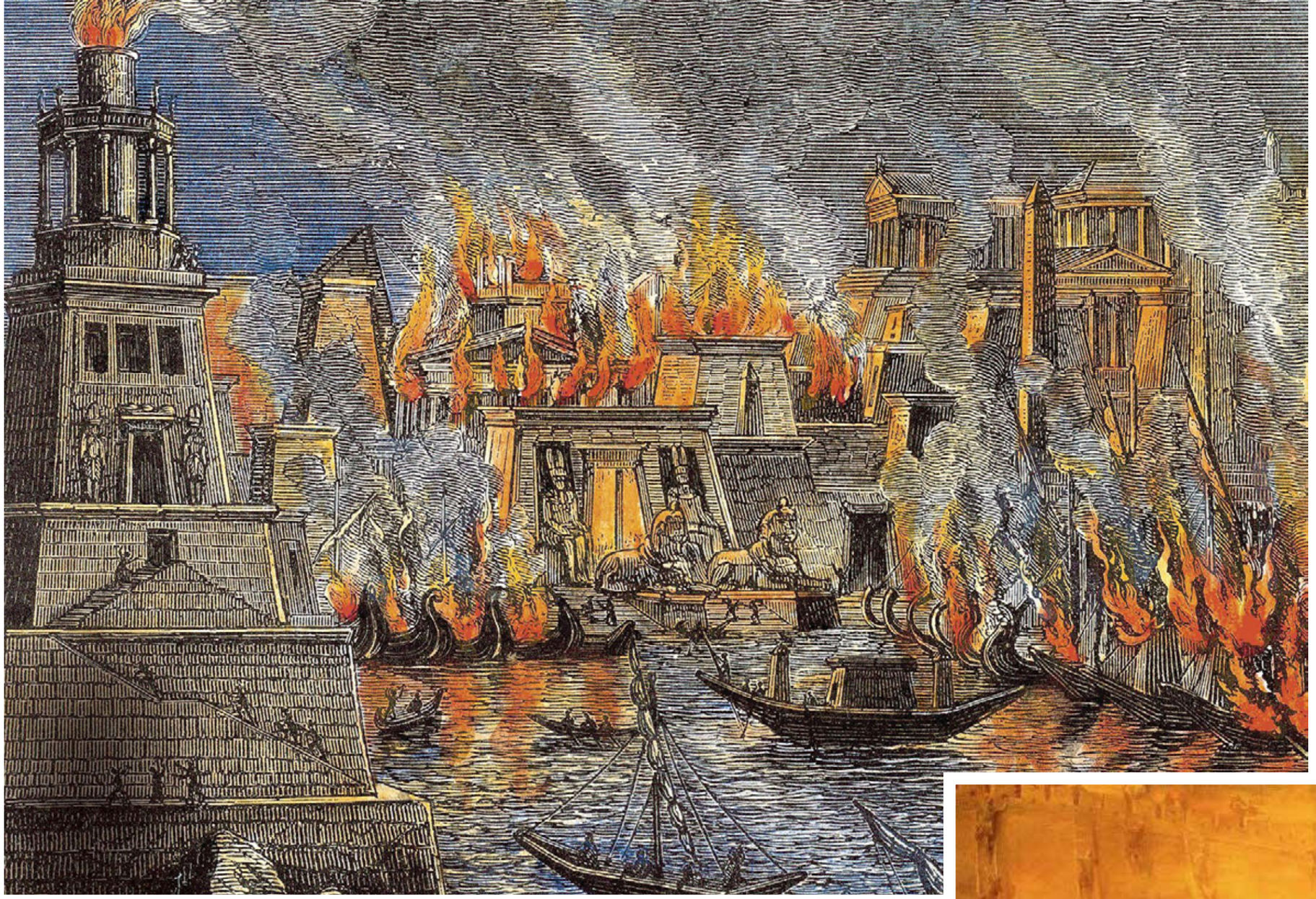

وتـراث، هـي: الهنـد وبـلاد الفـرس، واليونـان والرومـان، فضلاً عـن ذخائـر الكتـب والمخطوطـات التـي تمثـل الحضـارة والثقافـة العربيتين، إذ حكـم عليهـا الزمـن أن تكـون ضمـن سـقوط الدولـة العباسـية بعـد ضعفهـا، وتشـتت أوصالهـا، وظهـور الدويـلات الصغـيرة، وبـروز دولـة المغـول، حيـث يذكـر التاريـخ أن هجـوم المغـول (التتـار) عـلى بغـداد جـرف الجيـش المغـولي في هـذه الحـرب بيـت الحكمـة ودمرهـا عـن بكـرة أبيهـا في عـام 1258، وهـو العـام الذي سـقطت فيـه الدولـة العباسـية، بـل كان يقـال: إن ميـاه نهـر دجلـة تحـول لونهـا إلى الأسـود، بسـبب حـبر الكتـب والمخطوطـات، واللـون الأحمـر بسـبب القتـل، ولأن الدمـار واقـع عـلى العـراق، فإنـه يصيـب حتمـاً مـا يمثـل الثقافـة والمعرفـة، وهـي المكتبـات التـي كانـت تحـرق عـلى مـدى عصـور حتـى في عصرنـا الحـاضر، تلـك خسـائر فادحـة في المكتبـات العامـة والخاصـة، ومكتبـات بعـض الجامعـات والمعاهـد الأكاديميـة والبحثيـة.

ومـع خسـارة الإنسـانية حينـما تصـل النـار إلى المكتبـات العامـة، فهنـاك مـن الكتّـاب والمفكريـن والفلاسـفة الذيـن أسـهموا في إتـلاف كتبهـا أو حرقهـا، أو رميهـا في ميـاه الأنهـار أو البحـار، أو دفنهـا، وليـس تلـك التـي كتبوهـا، بـل الكتـب التـي كانـوا ينسـخونها أو يشـترونها ويقتنونهـا عبر سـنوات عمرهـم، مثـل أبي حيـان التوحيـدي، وقـد يـأتي الحـرق أو الإتـلاف مـن قبـل جماعـة مناهضـة ومعاديـة لفكـر أحـد المفكريـن، أو إطـلاق تهمـة هنـا أو هنـاك تشـكل

دليـلاً لحـرق كتبـه. فضـلاً عـن تلـك الخسـائر التـي تكبدهـا المسـلمون في الأندلـس، حينـما أقـدم الإسـبان عـلى إتـلاف الكتـب في عـام 1499.

وهـذا الحـدث؛ أي حـرق الكتـب والمكتبـات، لم يكـن هـو الوحيـد، بـل تبعتـه أحـداث كثـيرة تجـاه حـرق المكتبـات والكتـب ومقتنياتهـا التـي مـا عـادت منـذ تلـك الأزمـان السـحيقة مجـرد كتـب، سـواء عـلى مسـتوى الـدول أو المؤسسـات أو الأفـراد، علـماً أن المكتبـات عامـة، وفي كل بقـاع الأرض، هـي تـراث يفـوق المـادي وغـير المـادي، هـي تـراث تلـك الثمـرات الإنسـانية، لمـا تحملـه مـن نتـاج علمـي وأدبي وفلسـفي، وفي كل العلـوم منـذ أن عـرف الإنسـان الكتابـة، وأهميـة حفـظ الـتراث حتـى اليـوم، بـل لقيـام السـاعة، وقـد أكـدت الحضـارة الصينيـة في مثلهـا الـذي هـو: (نقطـة حـبر خـير مـن ألـف ذاكـرة)، لهـذا ينبغـي أن تتكاتـف جميعنـا مـن أجـل حمايـة تراثنـا ومكتباتنـا ومدخراتنـا وخزائـن مخطوطاتنـا مـن التلـف والضيـاع، وأن نحسـن كيفيـة المحافظـة عليهـا مـن جهـة، وصونهـا مـن الضيـاع والخسـران مـن جهـة ثانيـة، والعمـل عـلى وجـود آليـات متقدمـة ومتطـورة، تسـهم في هـذا الحفـظ، تسـهم في تحفيـز الدارسـين والباحثـين، وطلبـة العلـم عـلى دراسـة حضارتنـا وتراثنـا وثقافتنـا مـن بطـون هـذه المكتبـات، وأهميـة ارتباطهـا بعـالم اليـوم.

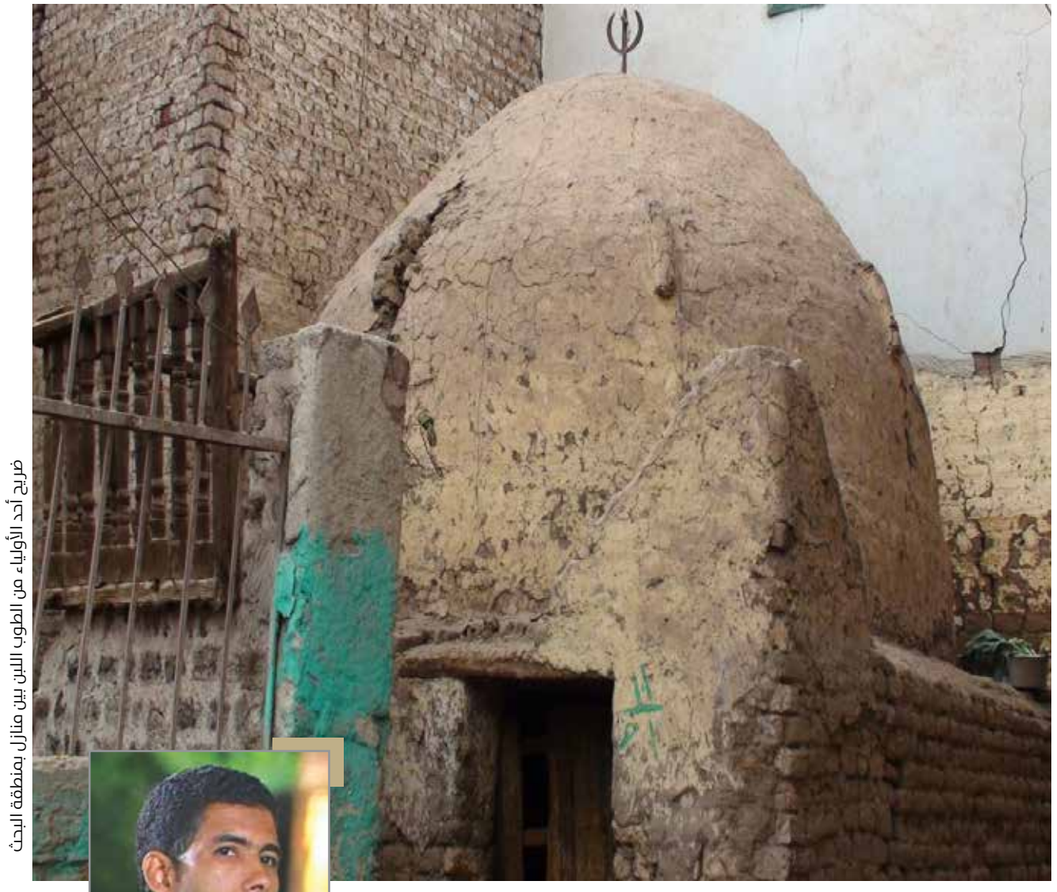

ضريح أحد الأولياء من الطوب اللبن بين منازل بمنطقة البحث

التراث

بين غضب الطبيعة وجرائم البشر

د. محمد شحاتة العمدة
كاتب - مصر

تسعى العديد من الدول للحفاظ على ما تبقى من تراثها الثقافي، الذي يعبر عن ملامحها وهويتها، ويميز كل جماعة شعبية وإقليم عن الآخر، وهذا الأمر يدل على أهمية التراث للشعوب، والذي ترى فيه ماضيها الجميل، وأصولها التي تظهر معالمها في الأشكال التراثية المادية والمعنوية المتنوعة.

غير أن الأمور في كوكبنا لا تسير على وتيرة واحدة، فبين الحين والآخر تصب الطبيعة غضبها على الأرض، فيحدث زلزال هنا أو بركان هناك، وسيول وأعاصير وأوبئة. أو يقترف الإنسان جريمة توازي أحياناً ما يخلفه غضب الطبيعة، مثل الحروب والإبادات الجماعية والصراعات التي لا تتوقف في العالم أجمع، أو قد يتدخل الإنسان بنهب المعالم التراثية أو تخريبها لأسباب كثيرة، منها السياسية أو العقائدية.

وأكثر الأشكال التراثية عرضة للتهديد والاندثار بفعل الطبيعة والإنسان، هي العمارة الشعبية القديمة، التي تمثل الأشكال الأولى لمساكن الشعوب القديمة، والتي أقامتها بمواصفات ملائمة لعادات وتقاليد كل جماعة والمواد الخام المتوافرة لديها، والبيئة التي تعيش فيها، فعمارة الأقاليم الزراعية تختلف عن عمارة الأقاليم الصحراوية والساحلية، وذلك في تصميمها واستخداماتها والمواد الخام التي بنيت منها، وهذا ما يميز العمارة الشعبية ويجبرنا على الحفاظ عليها، فهي عنوان واضح لكل مجتمع يمكنك أن تقرأ من خلاله تاريخ تلك الجماعة وعاداتها ومعتقداتها وطبيعة العمل فيها، دون الحاجة لسؤال إخباري، فالعمارة تتحدث عن نفسها.

وهناك العديد من الدول تتعرض بشكل دوري للكوارث الطبيعية، مثل الزلازل والبراكين والأعاصير وحرائق الغابات، والتي قد تدمر مدناً بأكملها، مثلما حدث في مدينة درنة في ليبيا التي دمّرها إعصار دانيال، وزلزال المغرب الذي دمر العديد من القرى في مراكش

فرن منقوش عليها كفة يد وعروسة

منزل من الطوب اللبن

وأغادير وتارودانت، وهي مدن قديمة مملوءة بالأحياء والمعالم التراثية.

إضافة للكوارث الطبيعة، توجد العديد من الجرائم التي يقوم بها البشر، وتهدد التراث الثقافي المادي والمعنوي، ومنها الحروب التي تخلف دماراً كبيراً؛ لأن تدمير التراث والهوية هو سلاح خطر من أسلحة الحرب، استعمل من قديم الزمن، فلا ننسى ما فعله المغول في بغداد من تدمير للقصور والمساجد وحرقهم المكتبات، فيذكر كتاب «أطلس تاريخ العصر المملوكي»، للدكتور سامي بن عبدالله المغلوث، أن جنود هولاكو أتلفوا عدداً كبيراً من الكتب القيّمة في مكتبات بغداد التي أفرزتها العقول النيرة، حتى إنهم ملؤوا نهر دجلة بالكتب وجعلوها جسوراً لخيولهم، فتحولت مياه النهر الأزرق الصافي إلى اللون الأسود. وفي عصرنا الحالي ما حدث لمدينتي هيروشيما وناغازاكي باليابان في الحرب العالمية الثانية، والحروب والصراعات الحديثة في العراق التي دمرت العديد من مدنها ومعالمها الأثرية والتراثية القديمة، والدمار الذي حدث في سوريا ومعظم الدول العربية منذ عام 2011 حتى الآن، بسبب ثورات الربيع العربي. ومنها حرق المجمع العلمي المصري في ميدان التحرير الذي كان يحتوي على مخطوطات نادرة، وما يحدث الآن ومنذ خمسة

صومعة كبيرة بسلم أعلى المنزل لتخزين الغلال

أشكال الجدران العلوية للفساقي بمنطقة البحث

وسبعين عاماً من الاحتلال الإسرائيلي في فلسطين، والتي تتعمد قواته وآلته الحربية قصف وتدمير كل ما هو عربي في مدن فلسطين من مساجد وكنائس وأحياء قديمة، بهدف القضاء على الهوية العربية لدولة فلسطين. ومن أشكال الجرائم البشرية أيضاً، سرقة ونهب المعالم التراثية المنقولة أو تشويهها بأشكال عدة، الأمر الذي خلف دماراً وأخطاراً شديدة على تلك المعالم التراثية؛ لذلك وجب الحفاظ عليها، ووضع مخططات لمواجهة الكوارث المختلفة.

والمخطط الذي أقترحه للحفاظ على المعالم التراثية المادية والمعنوية يتلخص فيما يلي:

أولاً: حصر العناصر التراثية التي تهددها الكوارث الطبيعية والبشرية:

تهتم المؤسسات الثقافية المعنية بالتراث بالمناطق التراثية الموجودة بالمدن فقط، غير أن هناك الكثير من المعالم التراثية منتشرة في الأقاليم والقرى النائية، والتي لايزال بعضها يحتفظ بطريقة حياته القديمة، سواء في شكل البيوت والمعالم الأخرى المرتبطة بها مثل أفران الخبز التقليدية وصوامع تخزين الحبوب، وأبراج تربية الحمام والحمّامات القديمة والحرف الشعبية وأدوات العمل وغيرها، وكذلك بعض الأضرحة والقبور القديمة في القرى والأماكن النائية، إضافة إلى التراث المعنوي المرتبط بتلك القرى، والمتمثل في عاداتها وتقاليدها ومعتقداتها التي يمكننا قراءتها من تراثها المادي أيضاً، فنجد أن النساء تحفر كفة اليد على الفرن الطينية أو نجد على واجهة المنزل قرون ماعز أو خراف معلقة، أو بعض الأوراق المثبتة بعجين الخبز على حوائط المنزل، مما يدل على أن هذا المجتمع، يعتقد في السحر والحسد بشكل كبير، والعديد من الرموز التي يمكن استخلاصها من تلك المعالم التراثية.

الأمر الذي يستدعي عمل حصر دقيق، ومسح ميداني لتلك الأشكال التراثية المنتشرة في القرى والأقاليم النائية، والتي تعد كنوزاً تراثية يجب الحفاظ عليها

جدران خارجية لمنزل طيني

الجدران الداخلية وغرف المنزل الطيني

وتوثيقها ودراستها دراسة أنثروبولوجية تساعد على فهم طبيعة تلك المجتمعات، كما أن تلك القرى هي جزء من نسيج كل دولة تعبر عن التنوع الثقافي، وخاصة فيما يتعلق بالتراث الشعبي الذي هو محور اهتمامنا. إضافة إلى أنها تتعرض للهدم بشكل كبير مع زيادة عدد السكان والتمدد العمراني والتحضر الذي طال القرى والمناطق التقليدية.

ثانياً: توثيق العناصر التراثية:

وبعد عمل الحصر لتلك العناصر، يتم تصنيفها حسب عناصر الفولكلور المادية والمعنوية لسهولة توثيقها، وبعد ذلك يتم عمل خريطة دقيقة لكل موقع تراثي من الخارج والداخل، وعمل رسم بياني موضح به الأبعاد والأحجام لمكونات العنصر بشكل دقيق، وبيان الخامات التي تم بناء العنصر بها أو صنعه بها، إذا كان نتاج حرفة مثل أدوات العمل والأواني والأزياء وغيرها، وتصوير كل مكونات وتفاصيل العنصر بدقة عالية بالصور الثابتة والفيديو، إضافة لتحديد الطرق المؤدية لتلك العناصر.

ثالثاً: تحديد المخاطر التي يمكن أن تتعرض لها تلك العناصر:

بعد ذلك يتم تحديد نوع المخاطر التي يمكن أن تتعرض لها تلك العناصر، فمثلاً البيوت المبنية من الطين يمكن أن تتأثر بالسيول بشكل كبير، والبيوت المبنية بالقرب من الجبال أو على قمم الجبال، يمكن أن تتأثر بالزلازل والبراكين، وبعض المنتجات الحرفية المصنوعة من جريد النخل أو ليف النخيل أو القماش، يمكن أن تتأثر بشكل كبير بالحرائق، إضافة لتأثر بعض المعالم بملوحة البحر أو الرطوبة.

ويتم تحديد تلك المخاطر من خلال دراسة طبيعة المكان والكثافة السكانية به، ومعرفة مدى وقوعه أو قربه من حزام الزلازل، وهل تلك المخاطر متكررة بشكل موسمي أم أنها تأتي على فترات متباعدة.

رابعاً: وضع مخطط للحد من المخاطر ومواجهتها:

بعد عمل الحصر والتوثيق وتحديد المخاطر، يتم وضع مخطط للحد من تلك المخاطر ومواجهتها للحفاظ على العنصر التراثي، سواء المادي أو المعنوي، ويتم هذا

صومعة صغيرة لتخزين الغلال

مقاعد للجلوس من جريد النخل

الأمر بالتنسيق بين المؤسسة الثقافية المعنية بالتراث وبين المؤسسات الحكومية والأهلية التي يقع تحت سلطتها أو في مجالها هذا العنصر، مثل الدفاع المدني ومجالس القرى والمدن ووزارة السياحة وهيئة الأرصاد الجوية، إضافة إلى مؤسسات عالمية يمكن من خلالها معرفة مواعيد حدوث الزلازل والأعاصير والبراكين في منطقة العنصر الثقافي. وهذا التنسيق يفيد في معرفة المخاطر والتعامل معها بإخلاء العنصر التراثي من العاملين به إذا كان مدرجاً وتديره الدولة، أو إخلاءه من سكانه، إن كان قرية أو شارع، وكذلك سرعة إطفاء الحرائق وإزالة آثار الدمار داخل العنصر أو حوله والناتج عن الزلازل وغيرها، ومعرفة أقرب الطرق للوصول للموقع المهدد فور حدوث كارثة.

خامساً: العمل على إدراج الممتلكات على قائمة التراث العالمي:

إن إدراج العناصر التراثية على قائمة التراث العالمي بمنظمة اليونسكو سيسهم بشكل كبير في الحفاظ عليها، والاستفادة من الخبرات العالمية في مواجهة الأخطار التي تهدد التراث، كما أن وجود منظمة عالمية تهتم بتلك المعالم سيسهم بشكل كبير في الدفاع عنها في حال الحروب والنزاعات، وستسعى تلك المنظمة لتجنيب الممتلكات التراثية أخطار الحروب، وعدم التعدي عليها، كما يمكن الاستفادة من الدعم المادي الذي تقدمه المنظمة في صيانة وترميم تلك الممتلكات.

الطوّاب أثناء صب الطين داخل القالب الخشب- الأرشيف المصري للحياة والمأثورات الشعبية

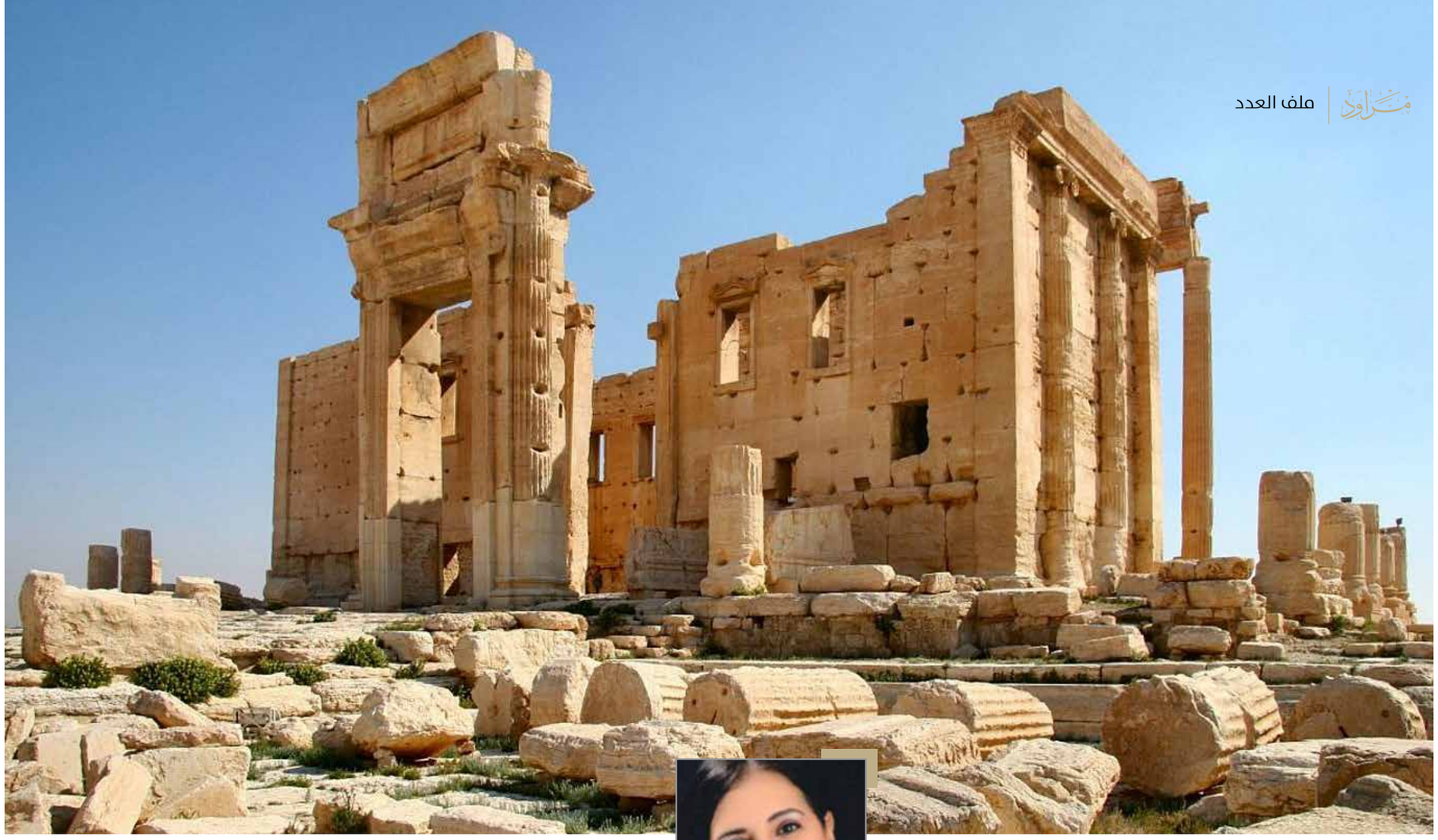

التراث..

في زمن المخاطر والكوارث الطبيعية

صبحة بغورة
باحثة - الجزائر

تنطلق أهمية معرفة قيم الفنون من حقيقة اعتبارها المرآة العاكسة لصور الحياة، ولما بلغته من رقي وحضارة، وفنون الحضارات القديمة هي أدق معيار تقاس به نهضة الأمم، وهي الوسيلة إلى معرفة نفسية الشعوب، والتعرف إلى ما تتطلع إليه، وتمثل في مجموعها تراثاً إنسانياً صاغه المختصون فيما يعرف بتاريخ الفنون

ولعل أهم ما يتميز به التراث الإنساني منذ القدم، هو الفنون التطبيقية والعمارة التي حملت رسائل لا حدود لها، امتدت وتغلغلت في عصور التاريخ منذ أزمنة بعيدة، ولتلك الفنون فروع متنوعة، لها طابعها الإقليمي الذي تتميز فيه بأسلوب صناعي وذوق فني وطابع خاص من الجمال، وكان الإحساس بالجمال قد سبق اليد إلى تناول صناعة الأشياء، ثم سارا جنباً إلى جنب عندما تناول الإنسان الأول المواد الطبيعية؛ ليكسبها مظهراً يحقق الأغراض التي صنعت من أجلها، وهذا المظهر يجمع بين ما يحقق الأغراض النفعية، وحسن التعبير عن جمال «الفورمة» في شكل معين، ويتطور هذا المظهر مع مرور الزمن تبعاً لنمو الإحساس الغريزي بالجمال في معناه ومبناه.

والتراث الإنساني في جملته، لا يخلو من بدائع تدل على أن أصحابها استوعبوا الكثير من أصول العلوم والفنون، وبرعوا فيها براعة تدعو إلى الفخر، تفرض مزيداً من الحرص على دوام صيانتها، وتؤكد ضرورة حمايتها في كل الظروف، إن هذه الدعوة لا تنطلق من فراغ، فكل طراز فني في أي زمن من الأزمنة، وعند أي شعب من الشعوب، إنما يخضع لعاملين جوهريين:

الأول: وهو «الرمزية»؛ أي ما يتبع الميل والاختيار والتفضيل.

والثاني: وهو «العضوية»؛ أي ما تقدمه الأرض من مواد صالحة للتعمير والإنشاء.

ودراسة تاريخ الفن في شتى العصور وسيلة إلى فهم الإنسانية، وتفسير ما في حياتها من غموض، وهذه الدراسة تنحصر في شيئين:

ـ الجوهر، ويشتمل على البيئة، وأثر النظم السياسية والمعتقدات الدينية في تحديد نوع القوى المحركة للحياة.

ـ العناصر، وتشتمل على تطور الأسلوب للفني، عندما يتغير مجرى الوجود، وتنتقل من مصير إلى مصير ظن، وعلى تراجم حياة المبدعين، ونقد أعمالهم.

وتفسير ذلك أن تاريخ الفنون يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ سياسة الدول، على ما اقتضته القواعد التي قررتها الأديان والمذاهب السياسية والنظم الاجتماعية والاقتصادية، كما أن الفنون تستمد قوتها وحيويتها من نهضة الشعب التي تقوم على معتقدات دينية وعقائد سياسية وأسس اجتماعية، وهي كلها روابط طبيعية متينة تسري في عروق الأمة، وتختلف النظم السياسية في حياة الأمم وتتنوع بظهور مبادئ ونظريات تتبع التطور الاقتصادي والاجتماعي والفكري، بما يناسب الزمان والمكان، أي البيئة التي تعيش فيها الأمة.

هناك تيارات مختلفة تهب فجأة فتعصف بالأوضاع الاجتماعية والنظم السياسية، وتحل محلها أوضاع ونظم أخرى، وهذه الرياح تأتي مع تقلب الزمن وتطور العصور، ويبدو أثر هذا التطور والتغير في النشاط السياسي والاجتماعي لتعمير أرض الدولة، وهي مسرح حياة الشعوب بإقامة المنشآت والأبنية وزخرفتها وتجميلها بمختلف أساليب الفن التي تمثل أثر الدين والسياسة في توجيه الأمة، وتكوين نهضتها، بما يوحي إلى الأجيال المتعاقبة حقيقة قيمتها، ومقدار ما بلغته من حضارة ورقي، أو همجية وانحلال، وفنون التراث والعمارة تتبع هذا التطور والتغير، وتتلون وتتبدل بتبدل المدنيات التي تلائم العصر دون الأخرى.

لقد أحدثت همجية طوائف متشددة وجماعات متطرفة

إلى المساس بمناطق أثرية بالغة الأهمية، كانت تمثل تراثاً إنسانياً مهماً، يوثق مادياً أحداثاً تاريخية، ويشهد عليها، فما أحدثته أيادي الإرهاب في منطقة «تدمر» في سوريا من تحطيم كلي للآثار، والاعتداء العنيف على المتاحف والمساجد العراقية، ومحاولة تحطيم متحف الحضارة الفرعونية في قلب العاصمة المصرية القاهرة والاعتداءات المتكررة بالمتفجرات على عشرات الكنائس التي تمثل تراثاً مهماً بالنسبة للأقباط المسيحيين، وغيرها كثير، هو في الحقيقة من قبيل المؤامرة على الحضارة الإنسانية، ومن الآثار السلبية لتقصير الحكومات وعجزها عن احتواء تأثيرات التغير المناخي، وتحجيم نتائجه الضارة على البيئة والإنسان، ومنها وقوع الزلازل المدمرة، وزيادة نشاط البراكين الخامدة، وذوبان الجليد، وهبوب الأعاصير والزوابع الشديدة، واجتياح الفيضانات، وزيادة منسوب البحار، وإصابة كثير من أراضي دول بالتصحر والجفاف، كلها مظاهر لكوارث طبيعية خطرة، قد لا يكون ليد الإنسان أي دخل في كثير منها؛ لأنها وقائع لا يملك الإنسان أي إرادة في منعها، ولكن كان يمكن مواجهتها بالمزيد من الحيطة واليقظة الأمنية من جهة، ومن جهة أخرى مواصلة تكثيف وزيادة حجم تدريس مادة التاريخ في المناهج الدراسية في كل مراحل التعليم في الفروع الأدبية والعلمية، واستخدام شرائط الفيديو في الشرح لجذب المتابعة زيادة المتعة والتشويق، وأيضاً تنظيم رحلات تثقيفية لتلاميذ المدارس وطلبة الثانويات والجامعات للمواقع التاريخية والتراثية، وتكليف مختصين بشرح أسرارها وتفسير معالمها، وتكثيف حضور الرموز التاريخية والتراثية المادية وغير المادية، وكذا المعالم الأثرية في تصوير مشاهد الأفلام السينمائية والمسلسلات التلفزيونية، وتخصيص مساحة واسعة للشرائط الوثائقية التي تتناول الفنون التراثية في مختلف وسائل الإعلام، وكلها من أجل خلق ارتباط وجداني متصل بين النشء وتاريخهم وتراث أجدادهم يبعث في نفوسهم الاعتزاز والفخر، ويتعمق لديهم الفهم الصحيح لمغزى الاهتمام بالآثار بعيداً عن ضلالات الفرق المنحرفة، وتحصينا لهم من محاولات التغرير بهم للنيل من تاريخهم وهويتهم، وحسناً، فعلت كثير من الحكومات العربية بإقامة مهرجانات فنية شبابية واحتفالات وطنية وحفلات استعراضية تخليداً لأحداث تاريخية في المواقع الأثرية ذاتها التي جرت فيها، ومضاعفة جهود التوعية بالحفاظ على سلامة المواقع التراثية، والتزام التعليمات والتشريعات المنظمة لزيارة المناطق التاريخية، والتحلي بالانضباط في التنقل بين المواقع، وعدم المساس أو العبث غير المسؤول بالمواد التراثية.

لقد أحدثت الصراعات السياسية بؤراً للتوتر المسلح في العديد من مناطق العالم، أدت إلى تحطيم كلي ومتعمد لمعالم تاريخية في كثير من الدول، كانت شواهد على حضارات عريقة، وذلك بداية من الحرب العالمية الثانية وصولاً إلى نتائج غزو العراق، إنها مخاطر يتعرض لها التراث الإنسان بفعل الإنسان نفسه ونابعة عن إرادته.

يحدث أن تتعرض بعض المواقع التراثية لخطر الاندثار بفعل عوامل طبيعية، قد تكون مناخية كالعواصف الرملية الهوجاء، خاصة بالمناطق الصحراوية، أو نتيجة تقديرات بيئية خطأ، بعدما أوشكت معابد فيلة الفرعونية خلال إحدى مراحل بناء السد العالي بمدينة أسوان في

مصر على الغرق في مياه النيل. ومن أجل مواجهة هذه المخاطر كان لابد من فرض إرادة المجتمع الدولي لفرض الأمن والسلم في النزاعات الدولية، والتأكيد على الحل السلمي للخلافات بين الدول، وتنسيق الجهود الدولية لتمويل عمليات الصيانة الدورية للمواقع التراثية في العالم، وإعداد ميثاق شرف عالمي يحدد قواعد الاشتباك بعيداً عن المساس بالمناطق التراثية والمحميات الطبيعية المصنفة من منظمة اليونسكو.

تعد عناية المجتمع الدولي بالتراث الإنساني القديم والجديد دلالة قوية على يقظة الرأي العام لصيانة مصادر القوة في ميادين العلوم والفنون المتوارثة، على أن مفاهيم الإنقاذ والصيانة والتحفظ يجب ألا تؤخذ على أنها مناديب أو ساحات للنعي والرثاء والترحم على الماضي، والجدير بالذكر الدور الفعال والكبير الذي تقوم به دولة الإمارات العربية المتحدة، في نشر الثقافة التاريخية والتراثية، والجهود المشكورة في التعريف بالمدن التاريخية والمناطق التراثية ومعالمها في دولة الإمارات العربية المتحدة، وفي الدول العربية والإسلامية التي امتدت إلى بقية دول العالم، على خلفية الحرص على إيضاح القيم الثقافية الكبرى، وقد كان من ذلك إبراز المناطق الأثرية بالإمارات من بين أهمها «مدافن جبل حفيت» في العين، وتعود إلى نحو 5 آلاف عام، وهي قبور جنائزية في شكل قباب، و«حديقة آثار الهيلي»، وهي من آثار البنية التحتية الزراعية الدالة على وجود قرية زراعية منذ العصر البرونزي والحديدي.

إن الإدراك بأهمية التراث لايزال في مسيس الحاجة إلى تقويم وتقنين يجعلنا لا نرتد إلى أداء طقوس اقترنت بعصور غابرة، حتى لا يحملنا هذا التقويم إلى هدم آثار الماضي، والتراث يخص التاريخ البشري عامة؛ لأنه ماضي الإنسانية ومستقبلها، والمشكلة في تقنين هذا التراث على أسس جديدة، أنه قد تختلف طبيعة هذه الأسس كلية عن الأهداف التي أقيمت الآثار من أجلها، وعن الأغراض التي صنعت لها، فأساس التقويم الجديد يجب أن يكون برؤية الماضي بمنظار الحاضر، ووفقاً لحاجات الظروف المعاصرة المعيشة، والبحث في المعالم

القديمة، قد يكشف عن جوانب تخدم الأغراض الاجتماعية الحالية، ويمكن أن يساعد على الوثوب إلى الأمام لمسايرة الزمن الحاضر، والتراث في أبعاده الجديدة، هو جزء لا يتجزأ من هيكل البناء الوطني للأمم، يتطور معه، وتطوره الشعوب معها وتقوّمه وتستند إليه، فالجوامع التراثية في العالم الإسلامي كانت ولاتزال لها دور كبير في تثبيت العقيدة وتوحيد المسلمين، مثل المسجد الحرام في مكة المكرمة والمسجد النبوي بالمدينة ومسجد الكوفة في العراق والجامع الأموي في دمشق، ومسجد كيتشاوة في الجزائر، الذي يقع على مشارف حي «القصبة» الزاخر بالقيم التراثية، ومنذ تأسيس مساجد عريقة أخرى جمعت بين الجامع والجامعة، مثل جامع الأزهر في القاهرة والقرويين في فاس المغربية والزيتونة في تونس وغيرها كثير تعدى دورها إلى القيام بدور علمي وفكري وثقافي، تميزت به الحضارة الإسلامية على امتداد العصور، والمتأمل لدور الجوامع يشعر بأن الأمة الإسلامية قامت على أسس العلم ودعائم المعرفة، وتصديقاً لما قاله العلامة الأزهري والأديب الكبير أحمد حسن الزيات (1886–1968) «إن المتأمل الواعي أمامها يكون مهيّأ بطبعه للاتصال الروحي بماضيه المشرق وتاريخه الحافل، وتنسال على خاطره دلالات وذكريات وطيوف تملأ النفس خشوعاً وجلالاً وروعة»، ولعل هذه الاعتبارات في حد ذاتها تمثل التحديات التي كانت وراء الهجمة التي استهدفت تشويه هذه الجوامع وتحطيمها، لذا كان من الضروري مضاعفة الجهود لتنوير النشء بمدلول التراث وأهميته، الذي يعني الحديث عنه الحديث عن صلة الحاضر بالماضي، وعن الرباط القائم بينهما الذي يربط مستجدات الزمن بالثابت المنصرم في فضاء هذا الماضي، وأن مدلول هذه الكلمة تحيل إلى ما هو ثقافي وحضاري، يمثل منجزاً فعلياً أفرزته رؤية وطنية لنفسها في إطار علاقة تفاعلية قوامها قوة التأثير وقوة التأثر، فاستقرت بصفة الحضور المتواصل عبر الزمن، وأن التراث يمثل مرتكزاً من مرتكزات ثلاثة، تتشكل عليها هوية الشخصية الوطنية اللغة، الدين، والتراث التي تكتسب منها الأمة خصوصيتها بين غيرها من الأمم؛ لذا فمن أشد المخاطر أن يجري المساس بالتراث، بزعم الحديث المنطوي على براءة مصطنعة حول جدلية العلاقة بين الأصالة والمعاصرة، المحافظة والتجديد، أو التقليد والابتكار؛ لأنها تبقى ذات خطر بالنسبة إلى الوعي الفردي والجمعي؛ لأنها تثبّت فرضية أن شرط بقاء أحدها هو مقابل زوال الآخر.

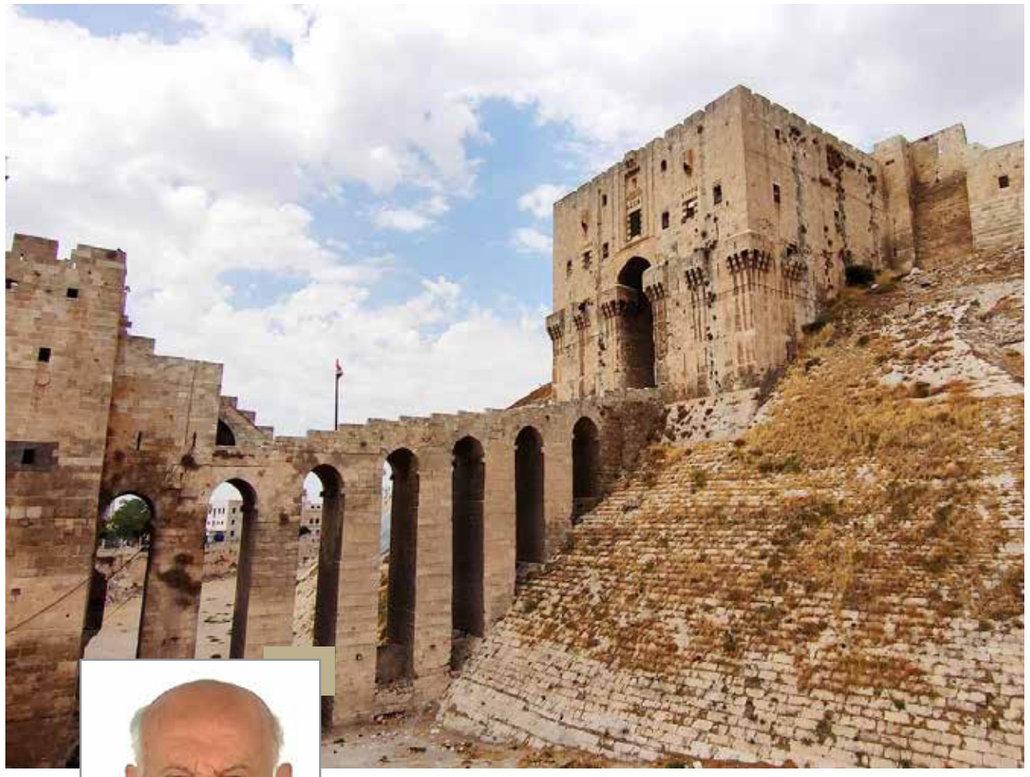

الكوارث الطبيعية

في ذاكرة لا تنسى

محمد نجيب قدّورة
كاتب وباحث - فلسطين

الضرر من مستصغر الشرر

التوازن البيئي مطلب إنساني لكل من أراد الاستقرار والأمان، ولعلني أجد في نفسي ما يثير الشجون عند الخوض في هذا المجال، فلا أنسى أنّ الله خلق الأرض والسماوات والمخلوقات في أحسن تقويم، إلا أن يصاب بما يجعله في أسفل سافلين، وهو يخالف نواميس الكون.

وقد رأيت في مشاهد لا تمحى من ذاكرتي صورة المرحوم الشيخ زايد، وهو يدعو للصيد بالصقور؛ حتى لا يحدث الخلل البيئي.. بل مثل هذا ما أكبرته في أن أحد العلماء الإسبان اكتشف أسباب ذبول النباتات في المزارع بأن فقدان الثعالب من الأراضي المحيطة ترك الديدان تعبث وتلتهم جذور النباتات، فقام بتجربة لإعادة الثعالب إلى المنطقة؛ ليجد أن الثعالب والهداهد لها الفضل في تخليص التربة مما يعيق نمو النباتات.. وهذا لا يختلف عن حالات التصحر التي تحدث بسبب قطع الأشجار بنهم دون حساب أن الأشجار مصدر من مصادر تثبيت التربة وتلطيف الجو وتأمين أعشاش الطيور وبيوت النحل وقرى النمل، وما يتبع من أضرار لم تكن في الحسبان. قد لا يأبه أحد لما ذكرت، أما علماء النبات والحيوان فهم أدرى بشعاب الأرض، بينما بعض الناس لا يعتبرون الخلل في دورة الحياة والنبات كارثة تفسد عليهم حياتهم، وتفقدهم أهم عناصر الحياة من الماء والهواء والكلأ، مع أن الأمر في حدّ ذاته كارثة طبيعية لا تختلف عن كبريات الكوارث، فمعظم النار من مستصغر الشرر.

الكوارث الطبيعية الكبرى:

قالت نفسي: كلامك من نافلة القول، فنحن نتحدث عن الكوارث الطبيعية الكبرى، كالأعاصير التي لا تبقي ولا تذر، فتدمر البيئة في انخفاض خصوبة الأرض بما تحمله من هشيم، فيحل الجفاف، ما يؤدي إلى ما يسمى السلوك العشوائي غير المدروس في محاولة تكيف البشر والكائنات، مما يؤدي إلى خسائر اقتصادية لا يمكن تلافيها، إلا بعد جهد جهيد من محاولة الإعمار والإنعاش، قلت يا نفسي: لكن تشكل الأعاصير له أسبابه العلمية وهذا لا يتعارض مع مفاهيمنا الدينية التي تقول «بما كسبت أيدي الناس»، قالت نفسي: وما قولك بالزلازل والبراكين.. قلت: ذلك ليس من شأنك، إلا أن تفهمي أن الكوارث الطبيعية أكبر خطر يهدد الطبيعة وحياة البشر... كان علينا ألا نسكن في أماكن تأبى الحيوانات سكناها، ولا الطيور تتخذ فيها مأواها.. لنترك الأمور تأخذ مجراها، حاولت نفسي مجاراتي، لكنها قالت: أنا لا أتحدث عن الكوارث الحربية، أنا أتحدث عن زلازل وبراكين. قلت: أعرف أن الزلازل والبراكين قد تغير وجه الأرض والبحر.. انكسارات وصهارات وأدخنة، وربما انجراف سدود وانهيار جبال.. خذيني على قد عقلي، هل تعتقدين أن تسونامي عام 2004، ووفاة 230 ألفاً في (14) دولة، كان يحدث لولا أن العبث في أعماق البحر حصل بتفجير نووي؟ قالت نفسي: ربما خسائر الدول بالتريليونات ينبهها إلى ضرورة أخذ الحيطة والحذر، وأن الشرّ هو من إفسادها، قلت: أجل، البحر يغضب من الذين يهينون كرامته، ويعتدون

على كائناته. قالت نفسي: أنت تحشر الإنسان في كل مفسدة للطبيعة! قلت: تعرفين أن الصواعق تحرق الأشجار في الغابات، لكن يد الإنسان تتسبب في حرائق أكبر، ثم نسميها اسماً آخر، مع أنها عدوان على الطبيعة، قالت نفسي: الآن اعترفت بأن العقوبة في المخالفة لنواميس الطبيعة، قلت: نحن عرفنا طوفان نوح، لكن نسينا أن نوح كان يصنع سفينة قبل حدوث الطوفان؛ أي أنه علمنا أن نتخذ خطوات قبل حدوث الكوارث.. علمنا بعد النظر، وضرورة التضامن قبل أن يحدث اختلال المنظومة البيئية، قالت نفسي: لك ما أردت حتى نتلافى انهيار القلاع والحصون والسدود، وانجراف التربة، وتفشي الأمراض السارية... قلت: لك ما أردت، لكن بعد أن تتخيلي آثار الكوارث على الجفاف والتصحر، هل لاحظت مدناً مبنية في مجاري الوديان، ومثلها قرى حول أنهار أو شطآن بحار.. علينا أن نختار أماكن المساكن فلا تكون في أرض زراعية، وعلينا أن نبني السدود بناء هندسياً مدروساً، خذي مثلاً في الإمارات الوعي في إقامة كواسر الأمواج، وتشييد السدود، وإعادة التشجير، هذه نظرة استباقية، حتى في بناء الناطحات كل شيء مدروس محسوب بدقة متناهية، قالت نفسي: ألم يكن ذلك في القديم؟

مأساة المعيريض

قلت حصلت مأساة المعيريض، عندما تعرضت رأس الخيمة منذ قرنين إلى سيول وأمطار وانهيارات.. ذكر ذلك شاعرنا الحكيم الماجدي بن ظاهر، كمن يشير إلى زوال معطيات تاريخية وتراثية، وربما فقدان وثائق وملفات وآثار، يقول ابن ظاهر في إحدى قصائده المطرية:

تسعين ألف في المعيريض برهدوا مشروكة ما بين مسلمها وقورها

تذكرين القصيدة التي تحدث فيها عن غمر الأرض

بطوفان وصل إلى ارتفاع النخل في منطقه (الحيل)... هل تعرفين الآن أين معالم مدينة جلفار القديمة، وأين منطقة نخيل بوعوانة، لن أطيل عليك.. يكفينا قلقاً بعد أن تجاوزنا تلك الكارثة الطبيعية وأمثالها.. ما رأيك في أن نختم بما ينفع الناس بعد أن تحدثت عن المخاطر بعد الكوارث.

أساليب الحماية والوقاية

قالت نفسي: حسبتك ستتحدث عن أنواع الزلازل والبراكين، قلت: لا، بل سأتحدث عن أساليب الحماية والوقاية في وقفات مضيئة من الأعمال الإنسانية التي عنوانها التعاضد العالمي، مع أماكن حدوث الكوارث والنجدات والإغاثات... قلت: هذا بعد حدوث الكوارث، أنا أريد الوقاية والحماية حتى لا نلوم أنفسنا، ونعتبر الأمر عقوبة ربّانية، مع أنها جائزة أن تكون ربانية بما أفسد الناس، ووصل بهم الأمر إلى إحداث الكوارث الصناعية، كتفجير في براكين خامدة، أو إحداث بقع زيتية في البحار.. ذلك ليس ذنب البركان الذي أيقظه الجشع، ولا ذنب البحر الذي وقع عليه ما وقع.. أجل نحن نقوم أحياناً بإجراءات لم تكن في الحسبان، فيختل ميزان النواميس، ويبدأ الخيال المتوهم يشكل حلم الإنسان في كوابيس، أولها الأمطار الحمضية، وثانيها إبادة الكائنات والنباتات، وثالثها ذوبان الجبال الجليدية، ولا حدود للأضرار الحقيقية.

لذا، فإن حماية الأرواح والممتلكات ومعالم التراث تجعل خسائرنا أقل في المتوقع، وأدق في الحسابات كإسعاف المتضررين، وإنقاذ الضحايا.

لابدّ من إدارة كوارث

وهنا تبرز عبارة إدارة الكوارث البيئية والطبيعية، وحتى الناتج عن الحروب في مناطق حساسة، يكون فيها الضرر هائلاً، ولا يعني هذا غض الطرف عن زلزال تركيا أو المغرب أو إعصار درنة، فوضع استراتيجيات وطنية للحد من مخاطر الكوارث، كل ذلك كفيل بمواجهة الآثار المدمرة كإدارة طوارئ قبل الحدث وبعده، ولهذا كان اعتبار يوم 18 أكتوبر يوماً عالمياً للحدّ من المخاطر والخسائر، فالمأساة كبرى تحتاج إلى تثقيف وتوعية وإجراءات في التخطيط العمراني والتأهب المجتمعي.. فالصمود من أجل الحياة شعار يستحق التقدير في سبيل الأمن والسلامة للجميع على المستوى العالمي قدر الإمكان. هذا، وقد غدا عرفاً إنسانياً في دولة الإمارات الهبوب السريع لنجدة المصابين والمتضررين، بل إن هذا السلوك الوطني تعبير عن الوعي والقدرة على التواصل الحضاري، وكل ما يجري في العالم مترابط في التأثير والتأثر والاستجابة الطبية والبيئية والثقافية.

«الحدوتة» و«الحكاية الشعبية»
في مقاومة الفناء!

إيهاب الملاح
مدير تحرير سلسلة «عالم التراث»
الصادرة عن معهد الشارقة للتراث

- 1 -

جزء أصيل من مهام السلاسل الدورية المعنية بإعادة نشر ذخائر الدراسات والبحوث في مجال أو حقل معين من مجالات المعرفة الإنسانية، جمعُ شتات وتنظيم الدراسات التي تناولت موضوعاً معيناً بالدراسة والبحث وطرح وجهات نظر متباينة ومختلفة في مقاربة جوانبه كافة. هذا التقليد تقليد علمي ومنهجي أصيل، ويلقى من العناية والإكبار والاهتمام الكثير جداً في جامعات العالم المختلفة، ومراكزه البحثية والعلمية على اختلاف التخصصات ومناهج الدراسة وطرق المعالجة.

وفي الآونة الأخيرة، ومع تصاعد نزعة عبور التخصصات والاتجاه إلى «البينية»، وإقامة الجسور والمعابر بين جميع تخصصات المعرفة، وتبادل المنهجيات والرؤى في درس الظواهر الإنسانية، تأكدت الحاجة الملحة لضرورة إعادة النظر وبعث الدراسات الرائدة في مجالها التي كان يُنظر إليها على أنها كلاسيكية في حين - وفي ظل النظرة الجديدة للدراسات البينية، وفي ظل الربط القائم بين العلوم والمنهجيات المختلفة بالمستقبل ومواجهة الكوارث - تمثل مدخلاً رصيناً وممتازاً لدراسة الظاهرة أو الموضوع المدروس في إطار العلوم الإنسانية.

في ثقافتنا العربية الحديثة والمعاصرة؛ ظهرت الدراسات الأكاديمية المتصلة بالأدب الشعبي، والتراث الشعبي عموماً، في النصف الأول من القرن العشرين، وإن كان الاهتمام بالتراث في مجمله، وبعث نصوص الأدب الشعبي القديم كانت أقدم من هذا التاريخ بنحو ثلاثة أرباع القرن، إذ بدأ الاهتمام بإعادة النظر في تراثنا الأدبي كله (خاصة الرسمي منه والمدون) في الربع الأخير من القرن التاسع عشر مع حركة الإحياء والإصلاح التي قادها الأستاذ الإمام محمد عبده (1849-1905).

- 2 -

ولعلنا في مجال التراث عموماً، ومجال التراث الشعبي والمأثورات الشعبية وعلم الفولكلور، أحوج ما نكون إلى إحياء هذا التقليد وبعثه وتنشيطه وممارسته؛ خصوصاً إذا نظرنا إلى ما تراكم من دراسات وبحوث في هذا المجال في القرن العشرين، باللغة العربية، وهو كثير، ومنه كنوز ودرر تستحق أن يعاد بعثها ونشرها ووضعها بين أيدي الباحثين والدارسين مجدداً لتعمّ الفائدة منها من ناحية، وتصبح كذلك لبنة في كتابة تاريخ وافٍ ودقيق لدراسات تاريخ الفولكلور والمأثورات الشعبية من ناحية أخرى.

ولاهتمامي الكبير بهذه المنطقة الخصبة من تراثنا الثقافي القريب، أعاود بانتظام البحث والتنقيب في إنتاج الفترة (1870-1952) التي ما زلت على قناعتي بأنها شهدت حركة تأليفية ونهضة ثقافية واسعة النطاق، وأن ما تم إنتاجه خلال تلك الفترة لم يحصر بكامله أولاً، ولم يقرأ ويدرس على الوجه الأمثل ثانياً، ولم يشكل قوة دافعة وضرورية لحركة العلم وتطور البحث ومراكمة المعرفة في هذا الحقل أو ذاك (باستثناءات تؤكد الفرضية ولا تنفيها).

في حقل الأدب الشعبي، وبخاصة موضوع «القصص الشعبي» أو «القصة الشعبية» وقبل الاهتمام الكبير الذي سيناله هذا الموضوع في النصف الثاني من القرن العشرين، مع ترجمة إنجازات الشكليين الروس، وبخاصة فلاديمير بروب في تحليل الحكاية الخرافية، ثمة ثلاث دراسات مهمة وقيمة ارتأيت ضرورة أن تجمع معاً بين دفتي كتاب واحد، لتقدم واحداً من أهم المداخل العلمية اللازمة للتعرف إلى «القصص الشعبي» عامة، وفحصه ودرسه ثانياً، متخذاً من ميداني إنتاجه الغربي والعربي معاً مجالاً للدراسة والقراءة.

وهذه الدراسات على الترتيب بحسب أسبقية النشر؛ هي: القصص الشعبي للدكتورة سهير القلماوي، والدراسة الثانية عن الحكاية الشعبية لرائد الفولكلور الراحل الدكتور عبدالحميد يونس، بعنوان «الحكاية الشعبية»، أما الدراسة الثالثة فبعنوان «الحدوتة والحكاية الشعبية»، للباحث الفولكلوري القدير محمد فهمي عبداللطيف.

- 3 -

الدراسة الأولى دراسة نادرة، لم تنشر من قبل بين دفتي كتاب، للرائدة الفولكلورية الجليلة الدكتورة سهير القلماوي، رائدة دراسات «ألف ليلة وليلة»، وأول من خاض غمار درس الأدب الشعبي في الجامعة المصرية عام 1943، ففي بحثها الريادي هذا، وهي تحاول تأطير حكايات الليالي، تاريخياً واجتماعياً وترجمياً، وتتتبع أصولها وروافدها البعيدة، وترسم ما يشبه

الخريطة المعرفية والبحثية لتكوناتها ونماء حكاياتها، حتى وصلت إلى المجموعات شبه الكاملة التي وصلتنا. وقد أكدت الدكتورة القلماوي أن «ألف ليلة وليلة» من أهم أعمال الأدب الشعبي العربي، على الرغم من نواة أصلها الهندي، وترجمتها الفارسية بعد ذلك، إلا أنها بصياغتها العربية وإضافاتها العربية الكثيرة، وأسمائها العربية للمدن والملوك ووقائعها العربية، وروحها العربية، تعد عملاً من أعمال العبقرية العربية في الأدب الشعبي. وقد نقل العرب قصص (ألف ليلة وليلة) مرة عن كتب الفرس التي ترجم إليها الأصل الهندي الأول، ثم تعددت الصياغات والإضافات العربية مع تداول القصص التي صارت إلى صورتها المعروفة لدينا.

ومن هنا، اجتمع لـ«ألف ليلة وليلة» ثلاثة مصادر رئيسة، تشكل أسلافها البعيدة: الأصل الهندي، والترجمة الفارسية، والإضافات العربية التي تشكل حجماً كبيراً؛ لأن معظمها نقل نقلاً من كتب الأدب العربي، وأخبار الرحالة والتجار العرب. وإلى هذه المصادر العربية ترجع قصص ألف ليلة وليلة البحرية، ومن ضمنها قصة السندباد البحري وأسفاره السبع.

تقول الدكتورة سهير القلماوي عن قصص «ألف ليلة وليلة» إنها «مجموعة من القصص المتفرقة، كان القصد من كتابتها تسلية العامة شفاها، وتسميعها، وأنها عاشت قروناً متتالية يتحكم فيها ذوق السامعين، فلا يجد هذا التحكم من القاص أقل تحرج من التلاعب بالأصل بأقصى ما يمكن أن يكون التلاعب».

- 4 -

وبعد سنوات من الاستغراق في بحث ودرس القصص الشعبي، كما حوته «ألف ليلة وليلة» بحشدها الهائل من الحكايات، فإن الرائدة الكبيرة لم تكفّ عن البحث في موضوعها الأثير، وظلت ترتاد ميدانه وتعاوده من آن لآخر لتستكمل جانباً من الجوانب أو تعرض لفكرة تختبرها في درس الموضوع في ضوء أحدث ما توصلت إليه الدراسات المنهجية في العالم -حتى وقتها - الذي أنجزت فيه هذه الدراسة المهمة.

الدراسة بعنوان «القصص الشعبي»، وهي من وجهة نظري من أرفع الدراسات وأذكاها التي تتعرض لبحث مفهوم القصة الشعبية في ميدان الأدب الشعبي، والدرس الفولكلوري المقارن، ولعلها في هذا البحث أيضاً تثبت ريادتها الكبيرة في إشاراتها الذكية والمهمة والعميقة للخصائص التي تميز الأدب الشعبي عموماً من الأدب الرسمي، وتقف عند مفهوم الراوي/ القاص/ الفرد الشعبي الذي يبدع نصه شفاها، ويؤديه شفاها، ويتداول شفاهاً، ليتمايز برونقه وحضوره وتجدده، وتمُايز أيضاً بين هذا الراوي الفرد القاص الشعبي والرحلة التي يستغرقها نصه الشفاهي، كي يتحول إلى نص مدون أو مكتوب، يصبح بدوره مصدراً ملهماً لأديب مبدع يستلهم هذا النص (القصة/ الحكاية) ليعيد صياغتها بصياغة تحمل اسمه، أو يستلهمها في إنشاء عمل مبدع جديد يحمل روح القصة الأصل لكنها ممزوجة بتشكيل مبدع مميز يحمل توقيع هذا الكاتب أو الأديب أو ذاك.

- 5 -

وتؤكد الدكتورة سهير القلماوي أن «القصص الشعبي» قد خضع لأنواعٍ كثيرة من الدراسات؛ دراسات تاريخية، وفلسفية، وجغرافية، ونفسية وأنثروبولوجية، وأخيراً، كما تقول (في سبعينيات القرن الماضي) نراه يخضع للدراسة الأدبية التي هي في الواقع أولى الدراسات به.

وهي ترى القصص الشعبي أولاً وقبل كل شيء «فن أدبي»، وإن كان لأسبابٍ كثيرة يصلح مادة لكل هذه الدراسات والأبحاث. وإذا كان «القصص الشعبي» يعيش فترة على ألسنة الرواة، فإن مآله إلى أن يكتب (أو يدون)، وأن يعيش حياته متجددة، حسب أطوار كتابته ونوعها، فقد يعيش كتاباً متقناً مصححاً في جيب الراوي، يعدل فيه، ويبدل ويضيف، ويحذف كيف يشاء. وقد يعيش كتاباً علمياً منقولاً بأمانة التسجيل للواقع في معامل البحث العلمي، وقد يعيش كتاباً خضع إلى الاختيار في جمعه بهدف المتعة والتسلية، وقد يعيش - آخر الأمر - كتاباً من الأدب الرفيع مستوحى من «القصص الشعبي»، وهو في كل صور كتابته يختلف حسب أطوار حياته، ويعكس لا اختلافاً في الشكل فحسب، وإنما كاختلاف في مرحلة التطور وفي سلم الحضارة... (وللحديث بقية).

عقرقوف

التراث الثقافي في العراق..
إرث حضاري في مهب الريح

سارة إبراهيم
كاتبة - مراود

شهد العراق جرّاء الأحداث السياسية المتلاحقة والزيادة السكانية والعمران الحضري، تهديداً وخراباً واضحاً في التراث المادي الذي يشهد على حضارات وثقافات متعاقبة في أنحائه، بعضه راح نتيجة القصف والاجتياح الأمريكي في عام 2003م، وعمليات النهب المحلية، والآخر بسبب الجماعات المتطرفة، وغيرها من الظروف الطبيعية التي تسبب تآكل العديد من الأبنية التي تهمل دون التفات لأهمية صيانتها الدورية، وأياً كانت الأسباب تظل هنالك حاجة ملحّة للحفاظ على تلك المعالم.

منارة الحدباء

تتمثل أهمية الحفاظ على التراث الثقافي المادي في أنه يختزل حضارات وثقافات مرت بها الدول، تلك التي تكتب تاريخ المنطقة وأحداثها، فهو هوية المكان والمجتمع، ناهيك عن كون آثاره ومبانيه كنزاً ومزاراً سياحياً، ومرجعاً بحثياً للمتخصصين.

تراث يندثر

لا يوجد حتى اليوم حصر واضح بالأضرار الخاصة بالتراث الثقافي المادي في العراق، فما بين الآثار التي نهبت على مدار السنوات والأبنية التي تآكلت وقصفت نجد التراث العراقي في مهب الريح، ولا ننكر الجهود الدولية في الحفاظ، وكذلك الفردية، إلا أن ما تعرضت له الدولة أكبر بكثير من أن تندمل جراحه بين يوم وليلة أو حتى على مر السنوات.

وحددت هيئة الآثار والتراث أن العراق بأن في الدولة أكثر من 150 ألف موقع أثري، وهي تابعة لحضارات إسلامية، وما قبلها من الحضارات الآشورية والبابلية والأكادية وغيرها، وتواجه المواقع تحديات تتمثل في السرقة والنبش العشوائي، خاصة أن كثيراً منها يقع في المناطق الصحراوية البعيدة عن المناطق السكنية.

وفي رقم تقريبي نشره أحد المصادر، تشير إلى أن ما يقدر بخمسة عشر ألفاً من المعروضات الأثرية في المتحف الوطني العراقي، قد فقدت خلال عام 2003م، وقد استرجعت بعضها، حيث هرّبت الآلاف بشكل غير قانوني، كما تمّ تدمير المركز العلمي والمكتبة الشهيرة بيت الحكمة، ونهبت العديد من الوثائق والمخطوطات، وجاء ضرر مدينة بابل خلال فترة الاحتلال، حيث تم تجهيز مهبط كبير للطائرات العمودية على أراضي هذه المدينة العريقة، وتمّ هدم عدد من المعالم الأثرية لتحقيق الغرض، وتم تهريب بعضها إلى الخارج، كما تمّ تدمير العديد من القطع الأثرية في مدينة الناصرية والاستيلاء عليها، كما أن موقع عقرقوف مهدد بسبب الإهمال وظروف الحرب، ولا يخفى على القارئ أن تنظيم «داعش» قام بتدمير العديد من المواقع ذات الدلالة الدينية والحضارية، بزعم مخالفتها «التوحيد بالله»، والأسس الدينية، منها مسجد القبة الحسينية، وضريح النبي دانيال، ومسجد النبي يونس في الموصل، وكثير من الكنائس، ومسجد الأربعينية في تكريت، وفجّر أجزاء من قلعة تلعفر، وجدار نينوى، ومقتنيات متحف الموصل، وبوابة نركال، وتمثال الثور المجنّح وغيرها كثير.

جهود فردية وجماعية

تشـير المجلـة العراقيـة لهندسـة العـمارة والتخطيـط، في بحـث منشـور حـول معالجـات الحفـاظ المسـتدام في الأبنيـة التراثيـة، في 2022م، إلى نوعـين مـن الأبنيـة التراثيـة، العـمارة التاريخيـة: المبنـى الـذي أنشـئ بالمـاضي البعيـد لأكـثر 180-200 سـنة. والعـمارة التراثيـة؛ أي المبـاني التـي شـيّدت في المـاضي القريـب ضمـن 180-200 سـنة.

واختـار البحـث ثلاثـة مواقـع للدراسـة، مـن بينهـا القشـلة 2012م، وتعتـبر القشـلة مـن الأبنيـة التراثيـة المهمـة في العـراق التـي تقـع في مركـز حسـن باشـا التاريخـي في الـسراي، ويوجـد جنـوب المبنـى المركـز الثقـافي العراقـي، ويفصـل بينهـا شـارع المتنبـي. وكانـت القشـلة تتصـل بالأبنيـة الجنوبيـة للـسراي التـي كانـت تمثـل مجلـس الـوزراء للحكومـة العراقيـة في العهـد الملـكي، والمتبقيـة حتـى الوقـت الحـاضر، تخطيطهـا مسـتطيل مفتـوح مـن جهـة نهـر دجلـة الـذي تكفـل بحمايتهـا عـلى مـر الحقـب التاريخيـة، وتعرضـت القشـلة إلى حمـلات مـن الصيانـة مـن قبـل الحكومـة العراقيـة؛ لتعمـير مـا أصابهـا مـن خـراب نتيجـة الإهـمال والتقـادم فضـلاً عـن الأضرار الجسـيمة التـي أتـت عـلى سـقوفها وجدرانهـا الخارجيـة نتيجـة العمليـات التخريبيـة والتفجـيرات في شـارع المتنبي التـي طالـت جـزءاً مـن الواجهـة الأماميـة المطلـة عـلى الشـارع الرئيـس، وقـد تأثـرت بسـببها السـقوف وقلعـت بعـض الشـبابيك. وآخـر صيانـة كانـت في عـام 2012م، حيـث شـملت جميـع البنايـة سـقوفها وبرجهـا مـع إزالـة كل الإضافـات الطارئـة عـلى البنايـة أو المسـتحدثة فيهـا مـن قبـل بعـض الـوزارات التـي شـغلتها في مختلـف العهـود. وشـهدت القشـلة الكثـير مـن عمليـات إعـادة التأهيـل، إلا أن بعضهـا جـاء مخالفـاً، وغـيّر مـن هويـة المبنـى التراثيـة، وهـو مـا يؤكـد أن آليـات الحفـاظ والترميـم لم تأخـذ في الاعتبـار هـدف الاسـتدامة، مـن خـلال التغيـير في شـكل المبنـى، وهـو مـن المخاطـر التـي تواجههـا الأبنيـة التراثيـة.

وتشـير العديـد مـن المصـادر إلى أن كثـيراً مـن الخـراب والتشـويه قـد طـال المبـاني العمرانيـة التراثيـة في العـراق، منهـا مـا أشـار إلى تقلـص أعـداد الأبنيـة التراثيـة التاريخيـة التـي كانـت تنتـشر عـلى شـاطئ نهـر دجلـة مـن جهتـي الرصافـة والكـرخ، نتيجـة توسـع ظاهـرة التمـدن العشـوائي والمراكـز التجاريـة التـي شـيّدت حولهـا، ففـي وسـط بغـداد تقـع مناطـق بـاب الشرقـي، البتاويـن، السـعدون، الكـرادة وغيرهـا، التـي بـدأت تخـسر معالمهـا بعدمـا هجرهـا سـكانها الأصليـون، وباتـت محـلاً للمشـاريع الاقتصاديـة الكبـيرة عـلى حسـاب تاريخهـا.

وتحـاول الحكومـة العراقيـة أن تعيـد وترمـم وتحيـي مـا تـضرر مـن الـتراث المـادي جـراء مختلـف الظـروف،

القشلة في بغداد

الثور المجنح

حيـث أعلنـت مؤخـراً البـدء بعمليـات ترميـم وصيانـة رأس الثـور المجنـح الـذي تـم اسـتظهاره مؤخـراً في مدينـة خورسـيباد في الموصـل، بهـدف إعادتـه إلى جسـده بعـد سـنوات طويلـة مـن الانفصـال، ويعـود اكتشـاف الـرأس إلى عـام 1992 مـن قبـل بعثـة تنقيـب عراقيـة، وفي عـام 1995 تـم قطـع رأس الثـور مـن قبـل مجموعـة مـن لصـوص الآثـار، وتمـت اسـتعادته. كـما عملـت عـلى صيانـة وترميـم موقـع منـارة المعمـورة الأثـري الـذي يعـد مـن أهـم المعـالم الأثريـة الشـاخصة في قضـاء هيـت، ومـن أقـدم أبـراج المراقبـة عـلى طريـق بـلاد الرافديـن والشـام، وموقـع خـان جريجـب الأثـري في قضـاء القائـم الـذي يعـود تاريخـه إلى القـرن الثامـن عـشر، وغيرهـا مـن المعـالم.

ومـن الجهـود المبذولـة للحفـاظ عـلى الـتراث المـادي العراقـي «البرنامـج الصيفـي العراقـي الألمـاني» للطـلاب والمتدربـين العراقيـين في DAI، ووصـل البرنامـج إلى مرحلـة التوسـع ليصبـح مركـزاً ألمانيـاً عراقيـاً لتدريـب وتعليـم الخـبراء في الحفـاظ عـلى الـتراث الثقـافي. وقامـت العراقيـة ذكـرى سرسـم بطـرح مبـادرة «بـرج بابـل» للإسـهام في الحفـاظ عـلى مـا يقـرب مـن 2500 بيـت تـراثي في بغـداد القديمـة.

إحياء روح الموصل

هـي مبـادرة أطلقتهـا «اليونسـكو»، برئاسـة أودري أزولاي، في فبرايـر 2018، لتكـون بمثابـة مشـاركة المنظمة في إنعـاش إحـدى المـدن العراقيـة العريقـة. ولا ينحـصر إحيـاء الموصـل في إعـادة بنـاء المواقـع التراثيـة وحسـب، بـل يتعـداه إلى تمكـين السـكان بوصفهـم أطرافـاً فاعلـة في التغيـير، تشـارك في عمليـة إعـادة إعـمار المدينـة مـن خـلال الثقافـة والتعليـم.

وبحسـب «اليونسـكو»، فـإن المبـادرة قائمـة عـلى ثـلاث ركائـز، هـي الـتراث، والحيـاة الثقافيـة، والتعليـم، واسـتهلّت «اليونسـكو» العمـل بمـشروع مهـم لإعـادة تأهيـل مواقـع ثقافيـة ودينيـة بـارزة، كإعـادة تأهيـل جامـع النـوري والمنـارة الحدبـاء، وكنيسـتَي السـاعة والطاهـرة، بدعـم مـالي مـن الإمـارات العربيـة المتحـدة، وكان اختيـار الموصـل، حيـث أمضـت ثلاثـة أعـوام عصيبـة (2014-2017) تحـت نـير تنظيـم «داعـش»، قبـل أن تتحـرر مـن قيـود التطـرف العنيـف. ودارت خـلال هـذه السـنوات الثـلاث معـارك عـدة، خلّفـت وراءهـا مدينـة مدمّـرة، حيـث تحوّلـت مواقعهـا التراثيـة إلى ركام مـن الأنقـاض، وتعرّضـت معالمهـا الدينيـة وآثارهـا الثقافيـة إلى التخريـب.

«التراث العالمي المهدد»..

كتاب يكشف معاناة المعالم الأثرية في سوريا

يستعرض كتاب «التراث العالمي المهدد.. القرى القديمة في شمالي سوريا قبل وأثناء الأزمة 2011-2021»، الصادر عن معهد الشارقة للتراث، للدكتور مأمون عبدالكريم، المعالم التراثية التي سُجّلت على قوائم «اليونسكو»، وتعرضت منذ بداية الأزمة السورية 2011 لتهديد مستمر، وتشمل الكنائس، والمعابد والمنازل، والحمامات، ومن المواقع التي عانت آثار الحروب «كنيسة بيزوس في الريحة»، «بارك جبل الأعلى»، «موقع قلب اللوزة»، «موقع قرقبيزة»، «موقع الكفير»، «بارك جبل باريشا»، «موقع باقرحا»، «موقع دير ديرونة»، «موقع دار قيتا»، «موقع هربة الخطيب»، «بارك جبل الوسطاني»، «موقع بنصرة».

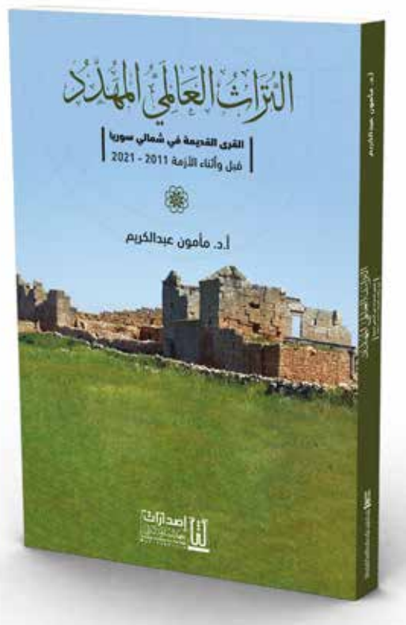

ويوضح الكاتب معاناة تلك المعالم من الحروب التي نتجت عن الأزمة السورية، بما في ذلك الدمار والأضرار والنهب من قبل لصوص الآثار، أو استخراج الحجارة، والتشييد غير القانوني للمنازل والمباني الأخرى، ويكشف عن تاريخ القرى القديمة في شمالي سوريا إلى العصرين الروماني والبيزنطي، وهجرت معظم المنازل خلال القرن الثامن الميلادي.

وتحدث الكاتب عن الجهود التي بُذلت مع المجتمع المحلي؛ لحماية هذه المواقع وتخفيف الأضرار عن المباني الأثرية، من خلال محاولات الحد من تكسير الحجارة الأثرية، وبيعها لغرض البناء الحديث، والعمل مع المجتمع المحلي على رفع الوعي بهدف محاربة التنقيب السري في بعض المواقع الأثرية.

كما تطرق الكاتب إلى توضيح الروية العلمية حول كيفية حماية هذه المواقع التراثية، وتطويرها في المستقبل، بصفتها منتجاً ثقافياً عالمياً؛ لخدمة وتطوير حياة الناس من خلال تطوير مفاهيم السياحة الثقافية الحديثة وفق الأسس العلمية، بما ينعكس إيجابياً على حياة الناس من النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية.

علي العشر
خبير تراث فني
معهد الشارقة للتراث

فن المخولفي

مراود

فن المخولفي من الفنون التي تندرج ضمن الفنون المصاحبة لفن الفجري، وهو من الفنون الترفيهية التي غالباً ما تغنى خارج السفينة؛ أي في البر، وليس في البحر، حيث إنه من فنون السمر، ويصاحب هذا الفن من الإيقاعات طبل لاعوب بحريني، وعدد ثلاث أو أربع إيحال؛ أي جرة ماء، وعدد اثنين مرواس وزوج طوس.

ومجموعة من المغنين يراوح عددهم بين عشرين وخمسة وعشرين شخصاً، ومن بينهم شخص يسمى النهام.

يبدأ المغنون بشطرين أو ثلاثة أشطر من أغنية هذا الفن، ثم يدخل عليهم النهام بنغماته الجميلة حتى نهاية الفصل.

سمي هذا الفن بفن المخولفي؛ لأنه يخالف جميع الفنون الترفيهية، من حيث إن جميع الفنون الترفيهية يكون فيها أجرحان قبل الغناء، ومعنى أجرحان أن يقوم النهام بنهمات ملحّنة على حسب الفن المقام، وذلك قبل البدء بغناء الفن، ماعدا فن المخولفي، لا يوجد أمامه أي أجرحان، حيث تبدأ المجموعة مباشرة بالغناء، حتى يدخل عليهم النهام بالنهمات داخل الفن للعلم.

ومن أغاني فن المخولفي ما يلي:

كوكب نبات يا عمي
في الليلة بات هي والله
واحد حياة قلبي
وانا وياه نمشي سوي
هيلي ياالله
يت الحلو الموح الموح
ورويحته ترد الروح
وانا بهواهم مطروح
وانا وياه نمشي سوا
هي ياالله
يته في في السادة
ريش النعام وساده
جوموا احضروا يا سادة
وانا وياه نمشي سوا
هي ياالله
يته في في الخوخة
أسمر ولابس خوخة
جانك تبي هالشيخة
وانا وياه نمشي سوا
هي ياالله
ورق علي مركب عالي
ويغرد بلحونه
قال الذي ياعلي صبار
باح الصبر هيضو مابي
ويغرد بلحونه

حمد بن عبدالله العويس

شاعر البعث والإحياء

محمد عبدالله نور الدين
كاتب وناقد ـ الإمارات

حفظ الشعر ونقله، فقد عاصر بداية القرن العشرين، وتشرّب من النصوص الشعرية بنكهتها الأصيلة حتى تفجرت قريحته ليصبح شاعراً مميزاً، له كثير من القصائد الوجدانية التي نشرت في الصحف في الثمانينيات، بالإضافة إلى قصائد أخرى يشاكيه بها الشعراء، فيبادلهم الردود الشعرية.

هو حمد بن عبدالله بن سلطان العويس الشامسي، من مواليد منطقة الحيرة بالشارقة، نحو عام 1914م، حسب ما أورد الباحث حمد بن خليفة أبوشهاب، بينما أورد الباحث الدكتور راشد أحمد المزروعي، أنه من مواليد 1905. والده من وجهاء المنطقة، ويعرف بسعة العلم، وكان لأبنائه، ومنهم شاعرنا حمد بن عبدالله، نصيب من اهتمامه، فنشأ محباً للعلم والثقافة، وقريباً من كبار شعراء الفصحى كشعراء الحيرة، ناهيك عن أنه ابن خال الشاعر الكبير سالم بن علي العويس. وهو عم الشاعر سلطان العويس - مؤسس إحدى أهم الجوائز الأدبية في العالم العربي - لم يكن حمد بن عبدالله العويس بعيداً عن عالم التجارة الذي ورثه عن جده، فقد عمل طوّاشاً؛ أي تاجراً في بيع وشراء اللؤلؤ الطبيعي، إلى جانب اهتمامه بالنخيل وبيع التمور، ولكنه أيضاً عرف باهتماماته الاجتماعية وأعماله الخيرية في الإسهام في توفير الرعاية الصحية والتعليم للناس[1] ناهيك عن أنه كان مقرباً من الحكام، بالأخص حاكم الشارقة الشيخ خالد بن محمد القاسمي، حيث كان مستشاراً له حتى وفاته عام 1972.

قد تكون موهبته الشعرية تفجرت بعد ذلك، حينما انتقل للعيش في البادية، فانهالت النصوص الشعرية بعد أن امتلأ مخزونه حافظاً لعيون الشعر النبطي والفصيح. وكان الباحث حمد خليفة بوشهاب مهتماً به، وعلى الرغم من عدم تقبله الظهور في برنامج شعراء القبائل، فاسحاً المجال لغيره، إلا أنه استطاع أن ينشر له في صفحة البيان في الثمانينيات، إلى أن جمع قصائده في ديوانين اثنين.

صدر ديوان حمد بن عبدالله العويس الأول عام 1986، من جمع وتقديم حمد خليفة أبوشهاب، واحتوى الديوان، على الرغم من قطعه الوسط على 140 قصيدة أغلبها في الغزل، وسرعان ما تم جمع وتحقيق مجموعة أخرى مؤلفة من 75 قصيدة، ونشرها في جزء ثان من الديوان في نهاية عام 1988، واللافت في أشعار حمد العويس أنه شاعر كلاسيكي من الطراز الأول، يهتم بالبناء التقليدي، ويبرع في رسم صور قد تبدو تقليدية من الوهلة الأولى، لكنها متجددة وتروق لذواقة الشعر الشعبي الأصيل في الإمارات، فكثيراً ما يخيل إليك أنك تقرأ لابن عتيج وجويهر وغيرهما من فحول شعراء الإمارات، وأنت تقرأ هذا الديوان. وأظن أن اهتمام أبوشهاب بهذه القصائد لم يكن عابراً، وإنما هو توثيق للماضي، وإعادته للحاضر بشكل يحفظ القاموس الشعري الذي لم يصلنا منه ما يشبع نهم القارئ؛ لذا فإنك ستلاحظ أنك في ديوان أشبه بالمعجم الشعبي، كنت أرجو أن يكتمل بذكر معاني المفردات وشرحها، وليس هذا المأخذ الوحيد على الكتاب، إذ نلاحظ عدم الاعتناء بقصائد الردود في هذا الديوان، إذ وردت فقط قصائد الشاعر حمد بن عبدالله العويس وهو يرد على بقية الشعراء. ناهيك عن قصائد في المعارضات الشعرية لم يشر إليها، إذ كان العويس يحاول مثل جماعة البعث والإحياء أن يستنطقها من جديد، كما هي هذه القصيدة:

ليلة وصل مخيرها	مرّت شرات الطيف
ليته طوّل عصرها	يوم الوقت السعيف
مع لي عالي قدرها	له في اليازي وصيف
أبكي م اللي قهرها	فرقا الخل الوليف
ما تغضي من ضررها	والدمع الها شحيف
الغالي لي حشرها	لا حلّه من وليف
مستارج من هيرها	ليلي بايت عنيف
اتخبر عن مقرها	وآسايل العرّيف
ايعالي في أمرها	من ذا الحال الشظيف
لي م الشامي عطرها	خمّر وآزم رضيف
تمغى به في نحرها	عن اوهيات الصيف
تسوى معي من برها	اعمان ويا الغريف
والهند ويا بحرها	والنيل الها سعيف
عم الخير بوطرها	من هملولٍ حظيف
أحيا الأروض وسرها	سيلٍ عقب الخريف[2]

أولاً، نلاحظ أن القصيدة استخدمت بحر وقوافي قصيدة جويهر المتوفى قبل ولادة الشاعر حمد العويس بعشرات السنين، ويكفي هذا دلالة على معارضته الشعرية، إذ يقول جويهر فيها:

كل الأمور أقدرها هيّنها والعنيف
واخشع نايف قلبها خشع اكربٍ من ليف
هب وياني شيرها فلّ بداه الهيف
يسجي عاضد ثمرها داوودي رضيف
لو يثمر من قطرها م الكيف إلى النكيف
تسوى العين وتمرها والبصره والقطيف
وعمانات بكبرها له في الوزنه خفيف
ليلة هير م اكدرها كنه شتا أو صيف
يا صاحبي قم ثرها على حلوة صفيف
دنيا زهت بامرها تمّن بالمستخيف
مرّح جانب قصرها كم خاطرٍ ومضيف[3]

نلاحظ التناص في عبارات شهيرة في بيت «ليلة وصل مخيرها / مرّت شرات الطيف»، وهي مشابهة لبيت جويهر «ليلة هجر مكدرها / كنّه شتا أو صيف»، أو البيتين الآتيين «تسوى معي من برها / اعمان ويا الغريف// والهند ويا بحرها / والنيل الها سعيف»، وهي مشابهة لبيتي قصيدة جويهر «تسوى العين وتمرها / والبصرة والقطيف// وعمانات بكبرها / له في الوزنة خفيف»، وعليه فإن القصيدة من نوع المعارضة، وهذا لا يخفى على أبوشهاب، بل هو أستاذ لي في هذه الأمور، ولكن على ما يبدو لم تكن هذه الإشارات

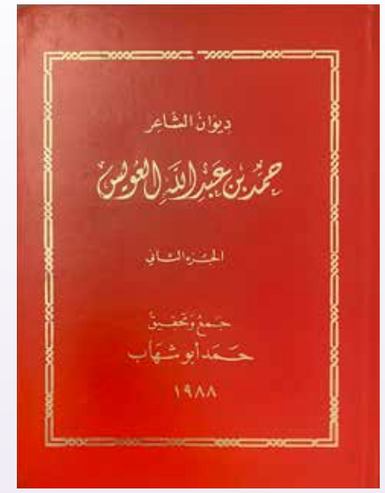

والتوضيحات دارجة في تلك الفترة، فلم يشر إليها. وأما القصيدة التالية لشاعرنا حمد بن عبدالله العويس، فهي خطاب للشاعر سعد بن عتيج الهاملي، الذي توفي في فترة طفولة شاعرنا أو قبل ولادته:

يا بدّاع القوافي لي مملايه حكم
نظم ومثل واوصافِ في وافين اللزم
لي ما سعوا بخلافِ ناجين من التهم
احتاط له بالكافي واحاذر م الوهم
من حسّادٍ خوافي ما فيهم محتشم
دمعي عليه اذرافِ من هجره مستهم
بو يدلانٍ ضوافي تخرطف للجدم
يا سيّدي يا الوافي في العهد وفي الذمم
خذني بعطف ورافي لا تلحقني ألم
ما احيد عن الاشرافِ لو في حبّه عدم

وهي معارضة لقصيدة معروفة هي:

فزيت فزة غافي لي في نومه دهم
صاب القلب اختلافي أمرٍ ما ينكتم

والمعارضة اصطلاحاً هي: «شعرٍ موافق لشعرٍ آخر في موضوع معين، حيث يلتزم نظم الشعر الآخر في قافيته، وبحره، وموضوعه التزاماً تاماً، يحرص فيه الشاعر على مضاهاة الشاعر المعَارَض في شعره، إن لم يتفوق عليه، وقد يلجأ الشاعر إلى هذا النوع من الشعر عندما يرى في شعر غيره من الشعراء ما يمتاز به من فصاحة، وروعة صياغة، أو صور معبرة، وغيرها من أمور تثير في نفسه العجب»[4]؛ لذا فالمعارضة لا تعني بالضرورة الاعتراض على المعنى، وهو كما يسمى بـ«المناحاة» عند بعضهم؛ أي أنه ينحو ويقتفي أثر الشاعر السابق، وفي هذه القصيدة:

فزّيت فزّة غافي لي في نومه دهم
صاب القلب اختلافي أمرٍ ما ينكتم
سرت انشد العرافِ عن موفين الذمم
قال الجناب الوافي هو راس المحتشم

قلت وصوله مطافي وملاقاة النسم
يبري حشيد رضافِ وهايوسٍ مرتضم
لكنّي باختلافِ يوم انكز وانتجم
صاحب نحس واجافي واتبع دربٍ عسم
واسير في الخلافِ لو يلحقني ندم[5]

إلى آخر القصيدة، والأبيات الثلاثة الأخيرة، على الرغم من أنها لم ترد عند الباحثين، إلا أنها متداولة عند بعض الرواة، وهي لبّ موضوع القصيدة، ولكن لا يجدها بعضهم لائقة لشاعر كبير مثل ابن عتيج، بينما طبيعة وماهية الشعر قد تستدعي التمرد والخروج عن المألوف، ومخالفة المنطق العقلي بمنطق شعوري لبيان الأثر الكبير للموضوع على نفس الشاعر، وعلى ذلك، فإن من غير المستبعد أن نسبة الأبيات صحيحة لابن عتيج، ولعل هذه الأبيات التي تشير إلى عصيان المحبوب أو خيانته وغضب الشاعر وانحرافه، هي سبب إثارة الشعراء، ومنهم حمد بن عبدالله العويس، الذي يقول مدافعاً عن المحبوب:

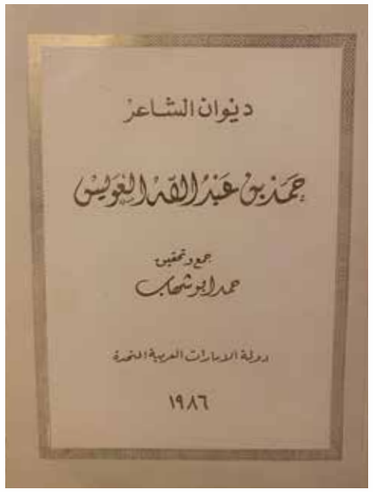

أفضيت سرٍ خافي في قلبي منكتم
يا كامل الأوصافِ الزين فيكم عم
مذهب وخلق وافي وبسماتك تنسجم
ما هو من الأخفافِ رزين ومحتشم
لي ما سعوا بخلافِ ناجين من التهم
احتاط له بالكافي واحاذر م الوهم
يا صافي الأطرافِ إنته قصد اللّزم

ويتهم فيها الحساد في البيت الذي يلي قائلاً:

من حسّادٍ خوافي ما فيهم محتشم

وقد تكون قصيدة المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، معارضة أيضاً لقصيدة ابن عتيج فيقول:

قاصد جداكم حافي يا حلوين المشم
ولكم ضميري صافي ولغيركم ما يضم
وأنتو من الأشرافِ ولكم قدر بيعم
م انتو من الأطرافِ دانات غزر ويم
والإحترام الوافي حقٌ علينا يتم

والقصيدة، وإن لم تصرّح بأنها موجهة لابن عتيج، كما فعل حمد بن عبدالله العويس، إلا أنها واضحة المعاني، ولا يذهب الشاعر فيها للدفاع عن المحبوب فحسب، وإنما نجده أكثر من ذلك ينزّه المحبوب من كل نقص، ويرفع منزلته؛ لأنه من أشراف القوم، وذو خلق عظيم؛ لذلك استوجب الشاعر على نفسه أن يمضي حافياً نحو المحبوب تقديراً، وهي دلالة على الثقة الكبيرة بالمحبوب، ويكفي أن الشاعر لم يتطرق في هذا القصيدة إلى الموضوع، ولم يشر إلى أحد من الحساد أو الوشاة، بل أفرد قصيدة كاملة لتنزيه المحبوب من خلال مدحه، وذكر محاسنه، والتوجه نحوه بتقدير كبير، ما يعبر عن معارضة بأسلوب رائع جداً لقصيدة كثر النقاش حولها.

1. أعلام الشعر الشعبي، د. راشد أحمد المزروعي، ج3، ص419.
2. ديوان الشاعر حمد بن عبدالله العويس، ج1، ص78.
3. مصدر القصيدة: حمد خليفة بوشهاب: جريدة البيان، ص 10، 28 نوفمبر 1981.
4. أحمد الشايب (1954 م)، تاريخ النقائض في الشعر العربي (الطبعة الثانية)، مصر: مكتبة النهضة المصرية، صفحة 7.
5. ديوان ابن عتيج: ط2، مراجعة الشاعر/ محمد بن يعروف المنصوري.

فلسطين
في الشعر الكويتي

طلال سعد الرميضي
كاتب - الكويت

من المؤلفات الرائعة التي أفتخر بالإشراف عليها أثناء تولي أمانة رابطة الأدباء الكويتيين، كتاب «فلسطين في الشعر الكويتي»، للشاعر الكويتي الكبير الدكتور خليفة الوقيان، حفظه الله، وقد صدر هذا الكتاب ضمن مطبوعات احتفالية الكويت عاصمة الثقافة الإسلامية في عام 2016، وكان بالتعاون ما بين المجلس الوطني الثقافة والفنون والآداب ورابطة الأدباء الكويتيين، ويتناول الكتاب هذا البلد السليب، وما قيل فيه من شعر كويتي رصين عبر التاريخ.

وكان هذا الإصدار من ضمن سلسلة قيّمة من المؤلفات ذات الطابع الثقافي الإسلامي، بأقلام أدباء كويتيين، لهم بصمتهم في الساحة الأدبية، التي تتسم في إبراز عناية الكويت بالثقافة الإسلامية من أوجه مختلفة، ومنها كتاب الدكتور خليفة عبدالله الوقيان، الذي تناول موضوعاً في قمة الأهمية والعناية لدى شعراء الكويت القدامى، حيث كانت القضية الفلسطينية من أول اهتماماتهم الأدبية، ونظم كثير منهم القصائد الجزلة والمعبرة عن وجدان المجتمع الكويتي في موضوعات متنوعة تلامس الجرح العربي المتمثل في فلسطين العروبة، والدكتور خليفة الوقيان هو من قامات الأدب الكويتي في زمن المعاصر، ومن الذين نعتز بما قدموا من أدوار مهمة ومتنوعة في الحراك الثقافي بدولة الكويت، خلال أكثر من نصف قرن، وهو من مواليد 1941م، أمد الله في عمره، وله مؤلفات كثيرة، منها الثقافة في الكويت، والقضية العربية في الشعر العربي، وشعر البحتري، ومن دواوينه الشعرية المنشورة نذكر «المبحرون مع الشراع، تحولات الأزمنة، الخروج من الدائرة» .

ويقول الدكتور خليفة الوقيان في مقدمة كتابه: إن قضية فلسطين حظيت بالاهتمام الأكبر لدى الكويتيين، إذ شكلت لجاناً لجمع التبرعات منذ عشرينيات القرن المنصرم، واستقبلت الكويت الحاج أمين الحسيني، رئيس اللجنة العربية العليا في عام ألف وتسعمئة وثلاثة وعشرين من الميلاد، وقام الكويتيون بتهريب الأسلحة إلى فلسطين، وتوصيلها إلى الثوار في عام ألف وتسعمئة وتسعة وعشرين، أما الشعر الكويتي المعبر عن الاتجاهات الكويتية القومية، فكان منغمساً في أدق تفاصيل تلك القضية وأحداثها، متفاعلاً مع نضال شعب فلسطين في كل مراحل النضال .

وبيّن الشاعر الوقيان أن النصوص الشعرية التي توثق تضامن الكويتيين مع كفاح الشعب الفلسطيني تعود إلى عام ألف وتسعمئة وثمانية وعشرين، وتمتد دون توقف إلى يومنا هذا.

ومن الأحداث التي وثق الشعر كويتي تفاعل الكويتيين معها حادث البراق في عام ألف وتسعمئة وتسعة وعشرين من الميلاد، وإعدام المناضلين فؤاد حجازي وأحمد عطا الزير وخليل جمجوم في عام ألف وتسعمئة وثلاثين للميلاد، واستشهاد الشيخ عز الدين القسام، وهو يواجه العدوان الإسرائيلي، وإعدام الشيخ فرحان السعدي، وصولاً إلى قرار تقسيم فلسطين في عام ألف وتسعمئة وسبعة وأربعين، واندلاع الحرب العربية الإسرائيلية في عام ألف وتسعمئة وثمانية وأربعين، وما انتهت إليه، وانتهاء بنكسة حزيران عام 1967م، ثم التعلق بالمقاومة الفلسطينية بوصفها الأمل في انتزاع الحق العربي .

وجاء هذا الإصدار في 115 صفحة، متناولاً عناوين عدة مهمة، وهي قضية فلسطين، والحركة الصهيونية ووعد بلفور، والانتداب ونضال الشعب الفلسطيني، وثورة عام 1936م، وقرار التقسيم ومقاومته، والحرب العربية الإسرائيلية، ومن آثار نكسة حزيران 1967م، وأخيراً المقاومة الفلسطينية.

ويذكر الدكتور خليفة الوقيان أنه بعد أن اتضح تصميم اليهود على التشبث بإقامة الوطن القومي، وتكرر الاعتداءات على السكان العرب خلال عام 1929م، توجه الشاعر خالد الفرج بخطابه إلى بلفور الذي يعد في نظره أساس البلاء، وفي هذا المعنى يقول :

هذه فلسطين الوديعة في مصائبها تميد
ما ينقضي زلزالها حتى تزلزل من جديد
من قبل وعدك بالهنا عاش المسوّد والمسود

ثم ذكر بلفور بحق العرب التاريخي في فلسطين منذ أقدم العصور، وقارن بين قدم عهدهم بها وحال اليهود المشردين في أنحاء العالم قائلاً:

الدار دار جدودهم من عهد كنعان البعيد
فليعرب الملك الطريف وللعمالق التليد
ما لليهود الغاصبين سوى المآثم والحقود
شعب شريد في الممالك منذ أن برئ الوجود

وثمة شاعر كويتي آخر، هو محمود شوقي الأيوبي، أثاره في عام 1929م حادث البراق الذي يرى أنه جاء نتيجة لسياسة بريطانيا الجائرة في إصدار وعد بلفور، ثم لإطلاقها أيدي اليهود لتعبث بالمقدسات، وتستفز المشاعر وتزعزع الأمن والاستقرار:

وفي فلسطين من بلفور مهزلة
هزت لها من خمار الحقد أذقان
فحادث القدس ساء الناس قاطبة
وللبراق على التنكيل برهان
واليوم أشعلتم ناراً تؤججها
أيدي اليهود وهم للفتك ذؤبان
فبنتيوس وصمويل وأولهم
بلفور كلهم للجور أوثان

ثم يترحم الشاعر محمود شوقي الأيوبي على حال فلسطين قائلاً :

لهفي عليك فلسطين العزيزة
يا مهد السلام وللإسلام بستان
في كل شبر شهيد حوله جثث
من الضحايا الألى للبغي ما دانوا

ويمجد محمود شوقي الأيوبي شهداء الوطن وضحايا وحشية الإنجليز فؤاد حجازي وأحمد عطا الزير وخليل جمجوم في عام 1929م، الذين كانوا يتسابقون إلى المشنقة بشجاعة خارقة قائلاً:

«فؤاد» شهيد الحق أسرى مهللاً
وخلف ذكرى وهو كالطفل طاهر
وسار «خليل» للفراديس مشرقاً
نقي المحيا وهو كالورد عاطر
و«أحمد» لم يحفل مشى للردى ولم
يشنه ظلام الحزن والوجه ناضر
هم هتفوا لبيك لبيك أمتي
وساروا على الأكباد شدا وخاطروا
ضحايا وحوش الإنجليز تضرجت
من الدم منها أرضنا والحفائر

طفيلي مختلف

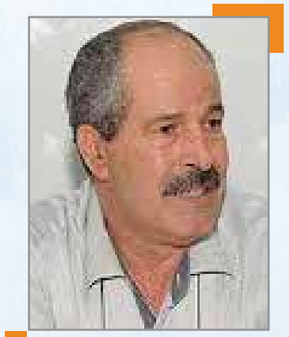

سعيد يقطين
كاتب - المغرب

تنبيه أول: التطفل سلوك شخصية تسعى إلى العيش على حساب الآخرين، إنه نوع من الفضول الذي يفرض من خلاله المرء نفسه على غيره، بهدف مشاركته في وليمة لم يدعَ إليها. مجّه العرب وذموه، وقدموا لنا من خلاله حكايات وأخباراً للتنبيه إلى خروجه عن القيم المتعارف عليها، وللسخرية ممن يمارسونه، تماماً كما فعلوا مع البخل والمغفلين أو المتغافلين.

1. وليمة تجر إلى الإعدام:

أمر المأمون أن يحمل إليه من أهل البصرة عشرة كانوا قد رموا بالزندقة. اقتيد العشرة إلى الساحل ليُحملوا في زورق قد أعد لهم لينقلوا إلى بغداد. رآهم أحد الطفيليين مجتمعين فقال: ما اجتمع هؤلاء إلا لوليمة، فانسل معهم ودخل في جملتهم. كل من أطلع إلى الزورق قيد، وقيد الطفيلي معهم، فعلم أنه قد وقع في ورطة، ورام الخلاص فلم يقدر. وساروا إلى أن وصلوا بغداد. أدخل الجميع على المأمون، فأمر بضرب رقابهم بعد أن استدعوا بأسمائهم. ولم يبق إلا الطفيلي. فقال المأمون للموكلين بهم: ما هذا؟ قالوا: والله، ما ندري يا أمير المؤمنين، غير أنّا وجدناه مع القوم فجئنا به! فقال المأمون: ما قضيتك، ويلك؟!

فقال: يا أمير المؤمنين، امرأته طالق إن كان يعرف من أقوالهم شيئاً، ولا يعرف غير لا إله إلا الله محمد رسول الله. وأنا إنما رأيتهم مجتمعين، فظننت أنهم يدعون إلى وليمة أو دعوة، فالتحقت بهم. فضحك المأمون، ثم قال: بلغ من شؤم التطفل أن أحلَّ صاحبَه هذا المحل. لقد سلم هذا الجاهل من الموت، ولكن يؤدب حتى يتوب.

تنبيه ثانٍ: لا تنتهي القصة الأولى إلا بعد نهاية قصة ثانية.

2. تجربة عجيبة في التطفل:

كان إبراهيم بن المهدي شاهداً لما وقع للطفيلي، فتدخل وقال: يا أمير المؤمنين، هبه لي وأحدثك بحديث عن نفسي في التطفل عجيب. قال: وهبته لك، فهات حديثك. فقال: يا أمير المؤمنين، خرجت يوماً متنكراً، أنظر إلى سكك بغداد، فاستهواني التفرج، وانتهى بي المشي إلى جناح شممت فيه روائح طعام وأبازير قد فاحت، فتاقت نفسي إليها. ووقفت يا أمير المؤمنين لا أقدر على المضي، فرفعت بصري، فإذا شباك، وإذا خلفه كف ومعصم ما رأيت أحسن منه، فوقفت حائراً. ونسيت روائح الطعام بذلك الكف والمعصم. وأخذت في إعمال الحيلة إلى الوصول إليه. فنظرت وإذا خياط قريب من ذلك الموضع، فتقدمت إليه وسلمت عليه، فرد عليَّ. فقلت: يا سيدي لمن هذه الدار؟ فقال: لرجل من البزازين. قلت: ما اسمه؟ قال: فلان بن فلان، قلت: أهو ممن يشرب الخمر؟ قال: نعم، وأحسب أن اليوم عنده دعوة، وليس ينادم إلا تجاراً مثله مستورين. وبيننا نحن في الكلام إذ أقبل رجلان نبيلان راكبان، فقال هذان نديماه، فقلت: ما اسمهما، وما كناهما؟ فقيل فلان وفلان، فحركت دابتي فلحقتهما، فقلت جعلت فداكما، قد استبطأكما أبو فلان، أعزّه الله، وسايرتهما حتى أتينا الباب، فدخلت ودخلا، فلما رآني صاحب المنزل معهما، لم يشك أني منهما بسبيل، فرحب بي، وأجلسني في أفضل المواضع، ثم جيء بالمائدة، ونقلت إليها الألوان، فكان طعمها يا أمير المؤمنين أطيب وألذ من ريحها. فقلت في نفسي هذه الألوان قد منَّ الله علي ببلوغ الغرض منها، بقي الكف والمعصم، ثم جيء بالوضوء فغسلنا، ثم نقلنا إلى مجلس المنادمة (...) حتى إذا شربنا أقداحاً، خرجت علينا جارية كأنها غصن بان في غاية الظرف وحسن الهيئة، فسلمت غير خجلة، وثنيت لها وسادة، فجلست عليها، وأتي بعود، فأخذت وجسته أحسن جس، فإذا هي حاذقة، واندفعت فغنت نوبات عدة بصوت بلا مثيل.

3. إصلاح تدخل غير مرغوب فيه.

فحسدتها، والله، يا أمير المؤمنين على حذقها ومعرفتها بالغناء، وإصابتها معنى الشعر؛ لأنها لم تخرج من الفن الذي ابتدأت به. فقلت: قد بقي عليك يا جارية شيء. فرمت بالعود، وقالت: متى كنتم تحضرون مجالسكم البغضاء؟ فندمت على ما كان مني، ورأيت القوم كأنهم تنكروا لي. وأردت إصلاح ما أفسدت، فقلت: أتَمَّ عود؟ قالوا: نعم، فأتيت بعود مليح الصنعة، فأصلحت ما أردت فيه، ثم اندفعت فغنيت. فما استتممته، يا أمير المؤمنين، حتى وثبت الجارية، فأكبت على رجليّ تقبلهما، وتقول: معذرة إليك يا سيدي، والله، ما علمت مكانك، وما سمعت مثل هذه الصنعة من أحد. وقام مولاها وجميع من كان حاضراً فصنعوا كصنيعها، ثم زاد القوم في إكرامي وتبجيلي، فطربوا غاية الطرب، وشربوا بالكاسات والطاسات، فلما رأيت طربهم اندفعت فغنيت مرات عدة، فجعلت الجارية تصيح: هذا والله الغناء لا ما نحن فيه.

4. طفيلي مختلف:

انتهى المجلس، واستبقاني صاحب البيت، وقال لي: يا سيدي، ذهب ما مضى من عمري هدراً، إذ لم أعرف مثلك، ولم أحاضر رئيساً يشبهك، فبالله يا مولاي من أنت لأعرف نديمي؟ فأخذت أُورِّي عليه، وهو يقسم علي، إلى أن أعلمته من أنا على الحقيقة. فوثب قائماً على قدميه، وقال: لقد عجبت أن يكون هذا الفضل إلا لمثلك، ولقد أسدى إلي الزمان يداً لا أقوم بشكرها. ومتى طمعت بأن تزورني الخلافة في منزلي، وتنادمني ليلتي أجمع! ما هذا إلا في المنام، فلا أتممت ليلتي إلا قائماً بين يديك، إذ كنت أحقر من أن أجالس الخلافة، فأقسمت عليه أن اجلس، فجلس. ثم أخذ يسألني: ما السبب في حضوري عنده، بألطف سؤال وأرق معنى، فأخبرته يا أمير المؤمنين القصة من أولها إلى آخرها.

تنبيه ثالث: جزاء التطفل: اندساس الطفيلي العادي مع من لا يعرف قاده إلى العقاب. أما الطفيلي الراقي فكان جزاؤه الإكرام.

5. نهاية القصة الأولى:

أخبر إبراهيم بن المهدي مضيفه عن تحقق رغبته الأولى في الطعام. فأخبره المضيف بأنه سيرى الكف والمعصم. استعرض كل جواري القصر. فلم ير إبراهيم فيهن ما كان رأى. فقال له: والله ما بقي غير أمي وأختي، ووالله لينزلن، فعجبت من كرمه وسعة صدره، فقلت: جعلت فداك أبدأ بالأخت قبل الأم، فإني أحتشم أن أنظر إلى كف والدتك، قال: حباً وكرامة، ثم نزلت أخته، فأراني كفها فإذا هي التي رأيتها، فقلت: حسبك، هذه الجارية. فزوجني بها. فعجب المأمون من كرم هذا الرجل، فقال: لله دره ما سمعت قط بمثلها فعلة. ثم أطلق الطفيلي وأجازه.

«شجرة الكون»..
كتاب «الكَلَمة» بلسان الباطن

خالد عمر بن ققة
إعلامي - الجزائر

تشدّنا كتب التراث إليها، وتقتحمُ حياتنا المعاصرة، فُتَسائِلُها وُتَساءِلُنا، وأحياناً تشكّل لدينا مرجعيَّة للأفكار والأطروحات والدراسات، وفي كل ذلك تأسيس للمعرفة عبر المطالعة، إذا ما تفادينا الاستغراق في قضاياها، أو اتّخاذ موقف الخصومة أو العداوة منها، وبحثنا عن سبل استحضار ما جاء فيها، بما تمثله من امتداد زمني وتراكم ثقافي، وتفاعل بشري، من خلال قراءة واعية، تمكننا من توسيع مجالات المعرفة ومتعتها بما تحمله من اتفاق أو اختلاف مع قضايانا المعاصرة، على النحو الذي نقّدمه هنا في قراءة كتاب «شجرة الكون».

هل هذا الكون الذي نعيش فيه نحن البشر وغيرنا من الكائنات الأخرى إلى أجل مسمًّى عبارة عن شجرة، أو ما يشبهها أو يقترب منها؟ وإذا سلمنا جدلاً بأنه كذلك: فماذا نقول عن الأشجار التي تعيش وتنمو داخله؟ وما مصير الكائنات الأخرى التي وجدت داخله وهي تحقق التعارف، أو تنتهج التجاهل والنكران، أو تختار الصراع أسلوب حياة؟

الأسئلة السابقة، وأخرى غيرها كثيرة، راودتني وأنا أرى للوهلة الأولى عنوان كتاب «شجرة الكون» لمؤلفه الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، وعندما قرأته، وجدته يأخذنا إلى عالم علوي، حيث البحث عقليّاً ووجدانيّاً في القضايا المستعصيَّة، حتى إذا ما وصلنا أو حتى اقتربنا من ذلك العالم، أبصرنا أنوار الحقائق، التي تنتهي بنا إلى نوع من ألفة الذات وشوقها، وإدراكها معاني الوجود.

في هذا الكتاب تحضرُ اللغة ببلاغتها، ويحل الوصف بجمالياته، وتتداعى الأفكار بتدفقها، ثم تتزاحم، وبعدها ترحل لتترك السَّابقة منها مكانها إلى أختها اللاحقة، ثم تعودان معاً في رحلة بحث، فتظهر فيها بشكل جديد، عبر صيغة هي أقرب إلى التكاثر والتناسل في مجال الفكر، غير مُجْدٍ معها اعتقاد البعض باستنساخها؛ لذلك علينا الغوص معه في عوالمه المختلفة حول فهم الكون، بكل ما فيه اعتماداً على الكلمة، كما جاءت في القرآن، مع اعتبارها هي الأولى عند البدء، وهي الأخيرة عند النهاية، وهي خطاب الدنيا والآخرة.

وفي فهمنا يقيناً أو رجْماً بالغيب، نرى أن هذا الكتاب دائم الحضور منذ ألفه ابن عربي، من ناحية القيمة والمعنى، والسّعة المعرفية ـ الروحية منها والعقلية ـ عند الذين قرؤوه منذ أن أصبح متداولاً بين الناس إلى يومنا هذا، مع أن الكاتب رياض العبدالله ذكر عند تحقيقه وضبطه وتقديمه الكتاب، أن ابن عربي يتكلّم بلسان الباطن الذي هو في الحقيقة مذهبه الحقيقي.. ويدع لسان الظَّاهر ليعبر عنه الآخرون، فهو في مذهبه هذا يفرق بين اللّسانين.. فيعتبرهما منطقين، الأول: منطق العقل، والثاني: منطق الذوق، فالعقل لسان الظاهر، والذوق لسان الباطن، وما أروع الباطن الذي يرينا ما يعجز عن تفسيره لسان الظاهر. (ص 37)

لسان الباطن

من غير الواضح لدينا، إن كانت تلك الطريقة حالة عامّة تبناها وسار عليها ابن عربي في كل كتبه ومؤلفاته ورسائله وشروحه، كما ذهب إلى ذلك المحقق العبدالله؛ لأننا لم نطلع على كل كتبه، لكن الماثل أمامنا في كتابه هذا أن شرح ما اعتبره شجرة الكون يعتبر فعلاً نوعاً من التعمق الباطني، هو إليه أقرب بحكم تبنّيه هذا المنهج، وأيضاً كونه متصوِّفاً.

كما ينظر لكتابه هذا ضمن مدارس الفلسفة العربية الإسلامية، التي ميزت بوضوح بين الظاهر والباطن، فمالَ بعضها إلى هذا الأخير، وترتب عن ذلك ظهور مذاهب فلسفية رجحت كفة الروحانيات والعرفان، ومالتْ أخرى إلى العقلانية، حتى طغت على بعضها رؤية جدليّة أتبعت بدراسات معاصرة، من ذلك على سبيل المثال، دراسة مرجعية قيمة ومهمة، هي كتاب «النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية» للمؤلف حسين مروة.

يُقدِّم لنا ابن عربي هنا معالجة تتَّسم بالفكر، حيث التصورات القائمة على الإدراك والمعرفة، مصحوبة بخيال ذهب فيه بعيداً، معتمداً على قناعة خاصة مستقاة من نظرته للوجود والكون، وللذات البشرية في علاقتها بربّها أوّلاً، وعلاقتها بالكون ثانياً، وعلاقتها بذاتها، الفردية والجماعية، ثالثاً، وذلك من خلال تعبير مؤثر أظهر فيه حسّاً روحيّاً عالياً، وبدَا ممتعاً في تصوير فني للرمز والإشارة، وبذلك جعل أفكاره في هذا الكتاب ناطقة، ومعبرة عن الباطن، بغضّ النظر إن كان صوتها ملازماً للعقل، أو متفاعلاً مع بعض تصوراته أو متخلّياً عنها.

في حديثه بلسان الباطن يجعلنا نستمع بالجوارح لأفكاره، وقد تُهدينا البصيرة إلى ما رآه فنتفق معه، أو نختلف معه في حال تعذرت علينا رؤية الصورة، خاصة صورة الكون من الزوايا نفسها التي أبصرَ منها، ومع ذلك علينا الإقرار بأن ابن عربي، تمكَّن من سحبنا إلى عالمه الروحي، حين استند في قراءته للكون وشجرته إلى كتاب الله، ما يعني أننا وإياه نلتقي عند مرجعية واحدة، حتى لو اختلفنا معه في القراءة، إذْ من المحتمل أن تتناقض أو تختلف القراءات بين الظاهر العقلاني، والباطن ـ الوجداني، مع أن الاثنين مطلوبان، وليسا مختلفين، إذا اعتمدا على البصيرتين العقلية والنورانية.

الكَلِمة.. والكيْنُونة

من بداية الكتاب يجعل ابن عربي مدخله إليه آية من القرآن، مع حذف صيغة الاستفهام من بدايتها؛ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ، فيذكرها على النحو الآتي: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (سورة إبراهيم ـ الآية 24)، وهو بذلك يقرُّ حقيقة تتعلقُ بالشجرة من حيث المعنى والدلالة، وهي بالفعل كذلك، وطرحها على هذا النحو يحمل مُبرَّراً أو تفسيراً لاتخاذ الشجرة جزءاً من عنوان كتابه (شجرة الكون)، حتى إذا ما استبدلنا شجرة بكلمة، نجد أنفسنا في عالم الكلمة؛ أي عالم الرمز والعقل والعرفان، وهكذا سيصبح عنوان الكتاب «كلمة الكون».

ينتقل الكاتب بعدها إلى حمد الله، ذاكراً بعض صفاته وأفعاله ـ جلّ جلاله ـ ويقف عند قدرة الله المطلقة، قائلاً: «وكون بكلمة كُنْ جميع الكائنات.. وأوجد بها جميع الموجودات، فلا موجود إلا مستخرج من كنهها المكنون.. ولا مكنون إلا مستخرج من سرِّها المصون». (ص41)، وهو في ذلك كله يبني فكرته ويؤسسها على قول الحق تبارك وتعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}. (سورة يس ـ الآية 82)، حيث أمره سبحانه وتعالى يتجاوز قدمه إلى أزليته، أي إلى المستقبل، من ناحية معرفتنا المحدودة للزمن في أبعاده الثلاثة.

وتلك كانت عملية مقصودة ـ على ما تبدو ـ إلى ولوج فكرة الكتاب الأساسية، الخاصة بالحديث عن الكون وصلته بالكلمة من خلال رمزية الشجرة، وقد وضحها ابن عربي بقوله: «فإني نظرت إلى الكون وتكوينه، وإلى المكنون وتدوينه، فرأيت الكون كله شجرة.. وأصل نورها من حبّة {كُنْ}، قد لقحت كاف الكونية بلقاح حبة} نحن خلقناكم{.. فانعقد من ذلك البزر ثمرة }إنا كل شيء خلقناه بقدر{، وظهر من هذا غصنان مختلفان أصلهما واحد، وهو }الإرادة{، وفرعها }القدرة{. (ص 42)، وهو بذلك يتحدث عن النشأة الأولى وطبيعة الخلق في جانبه الحياتي للإنسان ولكل المخلوقات، ونهايتها بالموت والفناء، ناهيك عن تحديد الأدوار والمهام لكل الكائنات في هذا الوجود، من حيث إن الكون كله مجرد شجرة، خاضعة لأمر كُن.

بين كَافَيْن

الحديث عن شجرة الكون عند ابن عربي، ينطلق من آيات القرآن، صوب كل الفضاءات الأخرى، سواء تلك التي يوجد فيها الإنسان أو غيره من الكائنات، وهذا يجعلنا أمام كتاب شارح للكون، أو لنقل معبر عنه، بحيث يتعذر علينا فهمه خارجه بدليل أن أمماً كثيرة خلت ـ لها ما كسبت ـ ضلت الطريق في رحلة بحثها عن الخالق قبل ظهور الكتب السماوية، وأخرى خرجت عن سواء السبيل، حين تخلت عن تعاليم تلك الكتب أو حرَّفتْها، وهذا يحيلنا إلى قضيتي الإيمان والكفر، من منطلق أنهما يحددان المصير الأخروي للبشر.

الإيمان والكفر ظهرًا ـ كما يقول ابن عربي ــ من جوهر الكاف بمعنين مختلفين، المعنى الأول كاف الكمالية انطلاقاً من قول الله اليوم أكملت لكم دينكم، وذلك في اقتباس من الآية الثالثة من سورة المائدة، والمعنى الثاني كاف الكفرية، كما في قول الله: {.. فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ}، وقد اقتبسها الكاتب من سورة البقرة ــ الآية 253، يضاف إلى هذا جوهر النون، الذي يحمل معنيين، الأول: نون النّكرة، والثاني نون المعرفة، وقد أتبع هذا بتفصيل لمسائل كثيرة، حدّد فيها تمثال الشجرة الكونية المستخرجة من حبّة كن، وذلك من خلال نظرته الباطنية التي تجعل القارئ يتبعه بغية مزيد من الفهم.

هكذا، إذن بدت الأمور المتفرعة عند ابن عربي عن شجرة الكون، وقبلها بذورها، ذات صلة بالكينونة، وبالفطرة، وبشروط الاختيار، وأيضاً باختيارات الإنسان في الوجود، من حيث حريته ومسؤوليته، بما في هذه الأخيرة من حمولة، ولذلك فإن الإنسان مطالب ـ من خلال تجليّات نور الله ـ بكشف المعنى المقصود من كُنْ، لأنه ـ في نظره ـ «كان حظّ كل مخلوق من كلمة كُنْ ما علم من هجائها وهجاء حروفها.. وما شهد من سرائر خفائها دليله». (ص 44)، وهو هنا يستعين بحديث الرسول عليه الصلاة والسلام، القائل: «إن الله خلق خلقه، ثمّ رشّ عليهم من نوره، فمن أصابه ذلك النور اهتدى.. ومن أخطأه ذلك النور ضلّ وغوى..». (ص 44)

آدم.. وثمار التوحيد

في هذا الكتاب، يُرْجِعُنا ابن عربي إلى أبينا آدم حين نظر إلى دائرة الوجود، وما تبدَّى له فيها، وما تضمنته من أسرار كن، ثم ينتهي بنا إلى الحديث عن نوعين من البشر، أحدهما شهد كاف الكماليَّة ونون المعرفة، والآخر: شهد كاف الكفرية ونون النكرة، وبناء عليه، فإن الإنسان «إذا نظر إلى اختلاف أغصان شجرة الكون ونوع

ثمارها.. علم أن أصل ذلك ناشئ من حبّة كن..»، وعلى هذا الأساس يسير في قراءته لشجرة الكون، وما فيها من استنباط لمسائل أخرى من مثل: التكريم، والكنية، والنورية، والنّعْمة، وغيرها.

إن تأمل شجرة الكون يبدأ عند ابن عربي من خلال قراءته الباطنية ـ تطبيقاً وليس أمراً بقانون كُنْ ـ من نَظَرِ آدم إلى اختلاف شجرة الكون، وتنوع أزهارها وثمارها، فتثبَّت بغصن «إني أنا الله»، فنودي: كُلْ من ثمار التوحيد، واستظل بظل التغريد، ولا تَقْربا، فأراد إبليس أن يوصله بغصن فوسوس لهما، فأكلا منها، فزلق في مزالق.. وعصى.. واستمسك بغصن ربنا ظلمنا أنفسنا، فتدلت عليهما ثمار.. فتلقَّى.

لقد اعتبر ابن عربي الفعل كُنْ قاعدة عامة، وهو بالفعل كذلك، وعلى أساسها طوَّع ما جاء في كتاب الله لمصلحة رؤيته المتعلقة بشجرة الكون، فمثلاً اعتبر أول ما أنبتت هذه الشجرة، التي حبّة كن ثلاثة أغصان، أخذا غصناً منها ذات اليمين، فهم أصحاب اليمين، وأخذ غصناً منها ذات الشمال، فهم أصحاب الشمال، ونبت غصن منها معتدل القامة على سبيل الاستقامة، فكان منه: السَّابِقُون المقرَّبُون.

من ناحية أخرى، يرى أن ما كان من قشورها الظاهرة وستورها البارزة، فهو: عالم المَلِك، وما كان من قلوبها الباطنة ولباب معانيها الخافية، فهو: عالم المَلَكوت، وما كان من الماء الجاري في شريانها وعروقها الذي حصل به نموها وحياتها وسموها، وبه طلعت ثمارها فهو عالم الجبروت، الذي هو سر كلمة كن، ثم أحاط بالشجرة حائط، وحدَّ لها حدوداً، ورسم لها رسوماً.

يواصل ابن عربي من خلال رؤيته الباطنة التأمل في شجرة الكون، وذلك عبر تفسير وشرح ومقصود لآيات القرآن، بما يمْكن اعتبَاره إضافة نوعية ومختلفة عن تلك التي اعتدناها عند سَعْينا لمعرفة الشجرة والإنسان والكون، وقد بَدَا وفيّاً لمنهجه ورؤيته وأسلوبه الكتابي، وسواء اتّفقنا معه أو اختلفنا، فإن كتابه هذا أخرجنا من الحديث عن الشجرة، كما في الخرافة والأساطير والتراث الإنساني بشكل عام، وكذلك أبعدنا عن الوقوف أمام التاريخ المشترك بينها وبين الإنسان، وجعلنا نراها كلمة الكون، كما جاءت في الخطاب الإلهي، وفهمها ابن عربي.

أثوابٌ ونمارقٌ وزرابيُّ مبثوثة

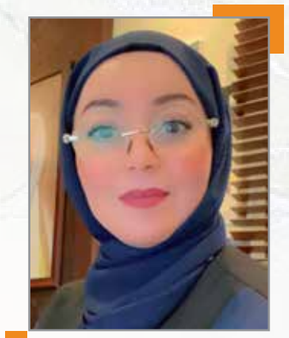

عائشة مصبح العاجل
كاتبة وإعلامية - الإمارات

تراثنا أمانة؛ ليس في حفظه فحسب، بل في المحاولات الجادة لتعزيز مكانته وطرحها بأسلوب قابل للتعايش وقابل للاستمرار والصيرورة، رغم كل التحديات والمفارقات والمقاربات الواقعية.

التراث بشقية المادي وغير المادي رمزاً لتاريخ المنطقة، عنوان لإباء الأوفياء، صورة وأثر للأنقياء، ويعد المرتكز الأول للنهوض بالفرد في المجتمعات، «فمن ليس له ماضٍ.. ليس له حاضر»، وهو الركن الآمن في ظل المتغيرات المستمرة والمستعرة والمستنفرة، وغير المستقرّة لمجمل مناحي الحياة (السياسية – الاقتصادية – الثقافية – الاجتماعية)، والتي تنشطر منها، وتمتد إليها كل التعاملات والمظاهر التي تُلبس الفرد والمجتمع صفته الحالية، وسمته المتمدنة والحداثوية.

التراث أثواب بسيطة في تركيبها، عميقة في مضامينها وتشكلها، فنسيجها معقوف على التحدي والأمل، وأيدي الحائكين والمطرزين، وأيدي الساكنين فيها كانت تبني للاستمرار، وتزرع للنماء، وتحفر لريٍّ أبدي، وتبسط لاستقرارٍ وقرار، وترفع لعمار، وتسور البلاد أجنحة لأمان المستقبل المنظور.

وهو أمانة معقودة في الأعناق؛ لأنه يحمل المتكئين على النمارق، والمفترشين زرابي الحوش، و(الدكة) و(المنامات)، السارحين في فضاء الانفتاح الأول على البسيطة والبشر، وعلى القلوب الصافية والنيّات الصادقة، والمعلنين التخاطب والتحاور والتفاهم مع البشر والشجر ومع الحجر والبهائم، والانفتاح على الآخر برقي وتصالح، الفاسحين طرق التواصل كل درب، وفاتحين كل باب من أجل الآخر من جهة القلب.

وكون التراث استمرار الفِكر، والرؤى والخطابات الروحية المتصلة من ذاك الزمان، لهذا الوقت المكتظ والحاوي كل المتناقضات، وبتوازٍ مثير للجدل، ساعياً لمد الطرق وتعبيدها من أجل الوصول والاتصال الحميد بين الأجيال بالأفكار والرؤى والاحتمالات والتنبؤات التي يحملها القادم على أطباق الزيف العالمي المختلط بالوهم الحداثوي، لما بعد الحداثة، ومفارقات الغوص نحو افتراضات ما بعد الواقع والمخيال، وفق متصور منظور لآت محتمل في نطاق الفضاء الإلكتروني والتقنيات الحديثة والذكاء الاصطناعي الذي حول كل التصاريف والمهام والتحولات إلى أتمتة فقدت من خلالها روح التعاطي مع التفاصيل المحيطة، وفكرة التلامس والتجاذب مع الحيثيات الصغيرة من نسج وعجن وحفر وتشييد وريّ وتمشيط، فلا حبة رمل تشم رائحتها ويتبع أثر من خلالها، ولا نجمة سابحة في فضاء يستدل بها، ولا ناي ولا عزف ولا صوت حداة.

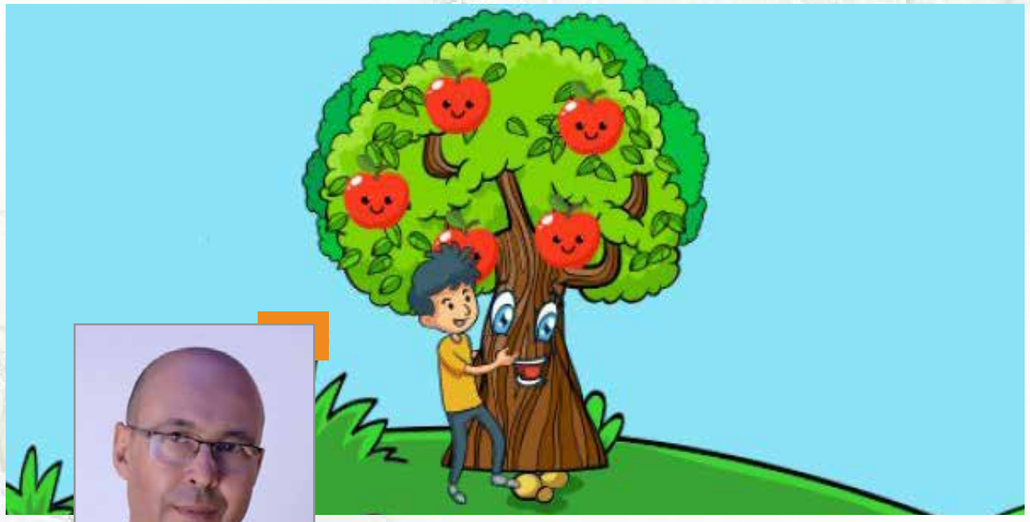

الشجر الذي يلد أطفالاً

د.محمد الجويلي
أكاديمي - تونس

خصّص كسافييه إيفانوف (Xavier Yvanoff) في كتابه «أساطير خلق الإنسان» (بالفرنسيّة) مبحثاً كاملاً لولادة البشر من الشجر، بعنوان «الخرافات العربيّة»، أشار فيه إلى أنّ أوّل رواية عربيّة في موضوع هذه الولادة العجيبة قد وصلتنا من خلال حكاية صينيّة تُعرف بـ«طونغ تيان» (T'ong-tien) دوّنها صيني يُدعى «طويوأُو» (Tou Ye-ou) كان العرب قد أسروه في معركة نهر طلاس التي حدثت سنة 751 ميلاديّة، أثناء غزوهم الصين، يدّعي فيها أنّه خلال غزوة بحريّة قام بها «الطاش» (Ta-che)؛ أي العرب، إلى وجهة غير معلومة، قادتهم بعد ثمانية أيّام إلى جزيرة مجهولة، وجدوا فيها شجرة غريبة، أغصانها حمراء، وأوراقها خضراء، قد أنجبت أطفالاً لا يتجاوز طول الواحد منهم الشبر. لم يتكلّم هؤلاء الأطفال، ولكن عندما رأوا البحّارة العرب يتقدّمون نحوهم، تعلّقوا بأغصان الشجرة والدتهم ضاحكين مقهقهين. جمع بعض البحارة منهم الكثير، ولكن ما أن يقع الواحد منهم في قبضة اليد حتّى يجفّ ويتحوّل إلى غصن يابس أسود اللون.

تذكّرنا هذه الشجرة بشجرة الوقواق، نسبة إلى جزيرة تحمل هذه الاسم، ذُكرت في «ألف ليلة وليلة» في رحلة السندباد، ويُعتقد أنّها جزيرة تقع في بحر الصين، وهي الشجرة التي تثمر نساء تعترضنا في كتاب مجهول المؤلّف ألّفه سنة 1388 ميلاديّاً بطلب من أمير بغداد الجلائري أحمد خان، وقد استلهم صاحبه مادته من كتاب القزويني «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»، وتصرّف فيها. سمّيت هذه الشجرة بالصوت الذي تُطلقه بناتها «وقواق»، وقد تدلّين في أغصانها مثل الثمار، رؤوسهنّ إلى الأسفل، وقد شدّت إليها من شعرهنّ. لا يكفّ هؤلاء النسوة عن الصياح «وقواق» إلّا عندما يُفصلن عن الشجرة فيقضين نحبهنّ.

خرافة الشجر الذي يثمر بشراً وُجدت كذلك في أوروبا، ابتداء من القرن الثالث عشر للميلاد، بتأثير من الثقافة العربيّة، كما يشير كسافييه إفانوف للتداخل مع قصّة الخلق التوراتيّة، بحيث نرى في رسم تصويري ورد في مخطوط ألماني مؤلّف سنة 1205، آدم وهو يغطّ في سبات عميق تحت شجرة وقواق تتدلّى من أغصانها رؤوس بشر، هي ثمارها، في حين كان الربّ يمسك بحوّاء بيده، بدا كأنّه اقتطفها من هذه الشجرة.

معرض الشارقة الدولي للكتاب.. شاهد على ترسيخ الشيخ سلطان بن محمد القاسمي لمكانة الشارقة في التاريخ الثقافي

د. خالد بن محمد مبارك القاسمي
كاتب – الإمارات

في الثامن عشر من إبريل سنة 1979م، قال صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، مقولته الخالدة: «إنه قد آن الأوان لوقف ثورة الكونكريت في الدولة، لتحل محلها ثورة الثقافة»( ). وبعد ذلك بثلاث سنوات تم افتتاح معرض الشارقة الدولي للكتاب، الذي انطلقت دورته الأولى في يناير من عام 1982. ليكون خير شاهد على دخول إمارة في مرحلة جديدة من مراحل تطورها الثقافي. وذلك بإسهامه في ترسيخ مكانة الشارقة في التاريخ الثقافي.

واليوم، أصبح معرض الشارقة الدولي للكتاب ثالث أكبر معرض للكتاب في العالم، والأكبر مكانةً وشُهرةً على مستوى العالم العربي، بالإضافة لكونه القلب الحاضن للفعاليات الأدبية الأكثر تأثيراً على مستوى المنطقة، حيث يستقطب المعرض سنوياً أبرز دور النشر وأكثرها إبداعاً في مجال النشر في منطقة الشرق الأوسط [1].

الدورة الأولى لمعرض الشارقة الدولي للكتاب

تم افتتاح المعرض الأول في الثامن عشر من يناير 1982م، حيث أقيم بمركز إكسبو الشارقة، حيث افتتحه صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي مساء ذلك اليوم[2].

وقد جاء مسمى هذا المعرض «معرض الكتاب العربي»، وشاركت فيه 53 دار نشر، وضم نصف مليون كتاب. ويعتبر معرض الكتاب العربي الأول من نوعه في الإمارات الشمالية من حيث عدد الناشرين والكتب والمؤلفات. وبدأ الاحتفال حين قص صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي شريط افتتاح معرض الكتاب، وبدأ سموه جولة في أقسام المعرض رافقه فيها عدد من الشيوخ والسفراء والكتّاب والأدباء المحليين والعرب ومئات المواطنين والمهتمين[3].

وفي التاسع عشر من يناير سنة 1982م، استقبل سموه ممثلي دور النشر العربية المشاركة في معرض الكتاب العربي، وتحدث سموه لأعضاء الوفد قائلاً:

«إن تربية الأبناء تربية سليمة يجب اعتمادها وتنميتها في إطار الإيمان بالوحدة العربية، وبالتأكيد على دور الشباب في التنمية الفكرية، ما يحتم على دور النشر القيام بدورها الطليعي في خدمة هذه المبادئ السامية»[4].

واشتمل المعرض على أجنحة للكتب العربية وأخرى للكتب الأجنبية ولكتب الأطفال وللكتب الإلكترونية وللكتب الإسلامية والكتب العامة وكتب القانون.. وتم

صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي يفتتح الدورة الثلاثين لمعرض الشارقة الدولي للكتاب، ويقوم بالتوقيع على عدد من نسخ كتابه «حصاد السنين» عام 2011.

تصنيف الكتب وفق نظام ديوي (موضوعياً) ووفق الناشرين المشاركين أيضاً (ألفبائي بالناشرين) وهو معرض تخصصي[5].

الدورة الثلاثين لمعرض الشارقة الدولي للكتاب وقصيدة منابع العز

تبرز أهمية الدورة الثلاثين لمعرض الشارقة الدولي في عام 2011، من خلال رائعة صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي «منابع العز»، تلك القصيدة التي فاجأتنا بها سموه في افتتاح هذه الدورة، وقد جسدت تلك القصيدة محطات كثيرة من المراحل التاريخية لإمارة الشارقة، والتي ربط فيها سموه، وكعادته، وبصورة ساحرة، بين الماضي والحاضر. وفي هذه القصيدة يقول سموه[6]:

منابع العزّ هِلّي وابتسمي
قد زارك اليوم رفاقُ الرق والقلمِ
مراكب النور صُفّت لكل مقتنٍ
ومحافل الفكر تتلى فاغتنمي
قد جئتك يوماً حاملاً
مشاعلَ الفكرِ وتوقَ الهممِ
فوجدتك بين قتيل ومصفدٍ
والناس بين خائف ومتبرمِ
فتحت قلبي ساحات زرعتها
عفواً وحباً غيرَ منفصمِ
وأرضعتك علماً ومعرفةً
ورفعتك منارة بين الأممِ
حدثيهم عن لقانا في سحرٍ
بين حفيف الرقاقِ وصرير القلمِ
حدثيهم عندما شاهدتني
قارئاً فرحاً بانتصاري في القِدمِ
حدثيهم عندما وجدتني

مطرقاً أعمل الخاطر لأمرٍ مبرمِ
فنظرتِ إلى إما قد كنت قارئاً
فوجدتك ثائرةً بتجهمِ
تلوميننى لسكوتي قائلة:
هل في عروقكَ شيءٌ من دمِ
كيف السكوت لما قد كتبوا
وصفاً لنا بسائر البهَمِ؟
كيف السكوت لما قد نشروا
نيلاً من النبي الأكرمِ؟
فرأيتكِ مشمرةً عن ساعدٍ
وتنادين هل من منتقمِ؟
بنت العروبة مهلاً لا تعجلي
لا تجزعي من دماسة الظلمِ
إن نوقد الشموع تنير الدربَ لنا
ولهم، وندير حواراً للتفاهمِ
حدثيهم بعد ذلك بما جرى
من اقتحام لفكرهم ولكلِ معلمِ
بنت العروبة هاهنا من أوكلت
إليهم ثقافة العرب فتقدمي
هلا تمدين إليهم يداً
لرفعِ الثقافة إلى أعلى القممِ
تكونين حقاً في الدنى
عاصمة الثقافة لكل العواصمِ
منابع العزّ كم أهواك يا بلدي
رفعتني عن شميم الكبر إلى شممِ
منابع العز، ترابك الطهر ألثمه
عليه سجدت للهِ كريم النعمِ

الدورة التاسعة والثلاثون لمعرض الشارقة الدولي للكتاب (دورة التفاؤل)

ولعل من أهم دورات المعرض هي الدورة التاسعة والثلاثون، بتاريخ نوفمبر 2020، وذلك لانطلاق هذه الدورة في ظل ظروف استثنائية عالمية، إذ كان العالم يعيش جائحة كورونا.

فقد كانت دورة خاصة في مذاقها، وفعالياتها، خالفت التوقعات، والتخمينات، حيث اعتقد بعضهم أن المعرض لن يقام في ظل هذه الظروف، ولكنها الشارقة التي أصبحت مرادفة للثقافة والمعرفة، والتي لا يمكن أن تخلف موعدها مع من ينتظرون المعرض كل عام، ولا يمكن إلا أن تستمر في رسالتها التي أصبحت عالمية البوصلة، فالثقافة ضرورة قصوى للحياة نفسها.

وقد سُميت هذه الدورة بدورة «التفاؤل»، ففي ظل حالة من التوجس سادت العالم لأشهر عدة، وتوقفت فيها كثير من الأنشطة، ومختلف مجالات النشاط الثقافي، وأصاب البعض الخوف، جمعت دورة التفاؤل العالم بأكمله، ليقرأ من الشارقة، المئات من الناشرين، والآلاف من العناوين، وعشرات اللغات. وقد أكد هذا المعرض رسالة بسيطة وعميقة المغزى، وهي أن شعلة الثقافة ستبقى متوهجة في شارقة الثقافة.. شارقة سلطان[7].

الدورة الـ41 لمعرض الشارقة الدولي للكتاب وإطلاق أجزاء جديدة من المعجم التاريخي للغة العربية

بتاريخ 2022/11/2 افتتح صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، الدورة الـ41 من معرض الشارقة الدولي للكتاب الذي تنظمه هيئة الشارقة للكتاب، تحت شعار «كلمة للعالم».

وأعلن سموه خلال افتتاح المعرض عن إطلاق الأجزاء الجديدة للمعجم التاريخي للغة العربية، مباركاً هذا الإنجاز العلمي الكبير، وقال: «نحن إذ نجتمع في هذه المناسبة العظيمة، أتوجه بالتهنئة إلى كل أبناء العربية على هذا الإنجاز الذي كنا ننتظره منذ أمد بعيد، وسعادتنا وسعادتكم اليوم كبيرة بهذه الأجزاء الـ36 التي تؤرخ لـ9 أحرف من حروف العربية، ونحن اليوم في منتصف الطريق، والمستقبل القريب حافل بالخيرات، بإذن الله».

وأضاف سموه: «إن المعجم التاريخي ليس معجماً كسائر المعاجم، يشرح معاني كلمات العربية، ويُعرّف بمعانيها فقط، وإنما هو سجلُ هذه الأمة وتاريخها وديوان أشعارها وأخبارها وأمثالها، ابتداءً من عصر النقوش القديمة، ومروراً بجميع أعصر العرب التاريخية، ووصولاً إلى العصر الحديث».

وأعلن رئيس هيئة الشارقة للكتاب، في كلمته، تصدّر معرض الشارقة الدولي للكتاب للعام الثاني على التوالي، معارض الكتب العالمية، ليستمر المعرض الأكبر على مستوى العالم، على مستوى بيع وشراء حقوق النشر والترجمة[8].

لا خاسر في معرض الشارقة الدولي للكتاب

أصبحت دور النشر في مختلف أرجاء العالم تتهيأ وتتسابق من أجل الحصول على موطئ قدم في معرض الشارقة الدولي للكتاب، وذلك لأن الشارقة

صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي يفتتح الدورة الـ41 لمعرض الشارقة الدولي للكتاب عام 2022.

أضحت عاصمة للثقافة بكل ما تحمله الكلمة من معان، والمتخصصين في العلوم الطبية. وعندما أزف المعرض على الانتهاء، وبدأت دور النشر تستعد للرحيل، اشتكى ناشر الكتب الطبية وقع الخسارة، وضاقت به السبل، حيث لم يجد من الزبائن إقبالاً على كتبه، فعلم صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي بما آلت إليه حال صاحب دار النشر، فأمر بشراء كل ما لدى صاحب الدار من كتب، وعوضه عما وقع به. وزاد سموه على هذا الفعل الحميد أن أحسن الاستفادة بهذه الكتب، إذ وجّه سموه أن توضع في مكتبة كلية الطب

1. معرض الشارقة الدولي للكتاب: موقع هيئة الشارقة للكتاب، على الرابط الآتي: https://sba.gov.ae/fairs-and-festivals/?lang=ar
2. الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي: حصاد السنين، مرجع سابق، ص 11.
3. سلطان القاسمي يفتتح معرض الكتاب العربي: الموقع الرسمي لصاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي. من قسم التوثيقات الإعلامية، على الرابط الآتي: https://cutt.us/Cb4ui
4. الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي: حصاد السنين، مرجع سابق، ص 11 – 12.
5. سلطان القاسمي يفتتح معرض الكتاب العربي، سبق ذكره.
6. أحاديث صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، ج3، منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، 1440هـ/ 2019م. ص 44.
7. الكتاب دواء العالم.. دورة التفاؤل: جريدة الخليج، العدد (15144) بتاريخ 4 نوفمبر 2020م.
8. سلطان القاسمي يفتتح الدورة 41 لمعرض الشارقة الدولي للكتاب، العين الإخبارية، بتاريخ 2 نوفمبر 2022، على الرابط الآتي: https://al-ain.com/article/sultan-alqasimi-sharjah-book-fair
9. محمد سعد التميمي: سمو الإنسان سلطان بن محمد القاسمي.. مسيرة على خطى الخلفاء الراشدين، من دون ناشر، ص 91 – 93.

ثقافة الحرب
عند هنود أمريكا

د. خليل السعداني
جامعة محمد الخامس بالرباط
المغرب

اضطلعت الحروب بوظائف عدة لدى قبائل الهنود بأمريكا، ففي الجانب الاجتماعي، كانت القرابة تلعب دوراً معتبراً عند الساكنة المحلية؛ فالقبيلة تنشأ نتيجة تجمع قرى صغيرة عدة، وتتقوى آصرة التضامن نتيجة وجود خطر خارجي تمثله قبائل أخرى. فالآخر - كما يشير إلى ذلك الأنثروبولوجي الفرنسي بيار كلاستر Pierre Clastres - يتم اعتباره غريباً ومعادياً. وبما أن كل القبائل هي محاربة في جوهرها، فعلى الهندي أن يكون مقاتلاً. لكن ثمة قبائل تصبح عندها الحرب غاية للمحارب، وليست وسيلة.

لاحظ الأوروبيون عند وصولهم إلى أمريكا أن الحروب كانت متواترة ومتكررة بين مختلف القبائل، ذلك أن الحرب كانت تعتبر جزءاً لا يتجزأ من شعائر الهنود. وعادة ما تكون مصحوبة بحفلات ورقصات، وذلك بطلب مساعدة القوى الخارقة، كما هي الحال بالنسبة لقبائل الإلينوا Illinois. أما بالنسبة للشيكاشاس Chicachas، وهي قبائل مقدامة ومحاربة، فيغلب على الحرب الطابع الديني. ويقول أنطوان – دوني رودو Antoine-Denis Raudot الذي عاش في كندا ما مفاده أن «المتوحشين» لا يرغبون في اجتياح والسيطرة على أراضي أعدائهم، فالبغض والكراهية والانتقام والرغبة في قتل الرجال أو الزيادة في عدد الساكنة بضم عبيد هي التي تدفعهم إلى خوض الحرب. ويضيف أن هذه الحرب لا تعدو أن تكون قتلاً مباحاً. إن هذا الادعاء يخفي أحكاماً قيّمة، ونزوعاً إلى المركزية الأوروبية، ورفضاً للنسبية الثقافية. «فالمتوحشون» يقتلون حباً في القتل ليس إلا.

وكانت قبائل الإيروكوا Iroquois تخوض على غرار كثير من القبائل، المعارك لإتمام ما يعرف بمأتم الحرب، الذي يمكن من تعويض الساكنة المفقودة، فالأوبئة والحروب تؤدي إلى نقص في أعداد السكان، وينبغي الثأر للقتلى؛ لأن أسرهم تطالب بشدة بذلك. وقد لاحظ الأوروبيون المستقرون في أمريكا أن القدرات القتالية العالية مستحسنة لدى السكان المحليين، ذلك أن طريق الحرب يضمن لصاحبه حظوة شخصية ورقيّاً اجتماعياً وزواجاً مفيداً. وتساعد الحروب على المحافظة على مستوى ثابت للساكنة، بل زيادة عدد القبيلة؛ فلدى قبيلة الأمم الخمس، التي كانت توجد جنوب بحيرة شامبلان وجنوب بحيرة أونتاريو، كان يقوم الأب الذي فقد ابنه بتبني شاب معتقل مكانه، واليتيم يختار أباً جديداً، والأرملة زوجاً بديلاً. كما كانت طقوس مآتم الحروب تسهم في التخفيف من حزن قبائل الإيروكوا. ولا يتم البحث عبر الحروب بالضرورة عن الثأر؛ لأنه يحدث أن تتم مهاجمة قبائل غير مسؤولة عن موت المحاربين من أجل الحصول على أسرى. وعندما تعود قبائل الإيروكوا بالأسرى، كان يتم تبنيهم من طرف أقرباء القتيل أو تعذيبهم وقتلهم.

ويجرنا الحديث عن الدور الذي تضطلع به الحروب داخل المجتمعات الهندية إلى الوقوف عند مصطلحي النصر والهزيمة عند السكان المحليين، فأحد الأسباب التي تفسر هزيمة الهنود أمام الإسبان في بداية الحقبة الاستعمارية هو تمثلهم للنصر والهزيمة، ذلك أن غاية المحليين من الحرب لم تكن قتل أعداد كبيرة من الطرف العدو، بل السبق إلى إسالة الدم. وقد كان لهذه الطريقة المتبعة في الحرب، والتي تناقض الإبادة التي تتبعها الجيوش الإسبانية، سبباً في القضاء على المحاربين المحليين، فالنصر بالنسبة لقبائل الإيروكوا يعني الحصول على أسرى وليس القتل. وحسب المعايير الأوروبية، يعتبر الجيش قد أوشك على تحقيق النصر، إن هو تراجع ولم يفقد إلا بعض الجنود.

أمـا بالنسـبة للهنـود، فيعتـبر الأمـر خسـارة، وذلـك لأن الغايـة مـن المعركـة هـي الحصـول عـلى أسرى لتعويـض النقـص الديموغـرافي. وإذا كان الأوروبي يعتـبر المـوت في سـاحة الحـرب فعـلاً بطوليـاً، فـإن الهنـدي يـراه كأمـر شـنيع وفظيـع، حتـى وإن كانـت عليـه مقابلـة مصـيره بشـجاعة. ويتمثـل مصـير المحـارب المقتـول في دفنـه بعيـداً عـن أسرتـه وأصدقائـه، ويسـتمر هـذا الفصـل عنهـم في الحيـاة الأخرويـة.

وقـد كان لطريقـة تمثـل الانتصـار والهزيمـة تأثـير في التكتيـكات المتبعـة مـن طـرف الإيروكـوا في الحـروب، فمـن أجـل تقليـص عـدد الضحايـا، كان هـؤلاء يلجـؤون إلى نظـام حـرب العصابـات، وإلى الكمائـن والغـارات المباغتـة، مـا كان يعتـبر في أعـين الأوروبيـين نوعـاً مـن الجـبن والنذالـة. كـما أنهـم كانـوا يتحاشـون الاحتـكاك المبـاشر مـع العـدو، ولا يلجـؤون إلى مهاجمـة الأماكـن المحصنـة، فهاجـس تخفيـض عـدد الضحايـا يفـسر التقنيـات الدفاعيـة المستعملة. وعـادة مـا يتـم إرسـال الجواسـيس والمستكشـفين عنـد العـدو مـن أجـل تنبيـه القبيلـة إلى وصـول أعـداء محتملـين. وكانـت قبائـل الإيروكـوا تقـوم بالمهاجمـة انطلاقـاً مـن المخابـئ، وتقـي نفسـها خلـف

سـياجات، وإذا مـا كان العـدو قويـاً، قـام الهنـود بإحـراق القريـة، وفـروا إلى الغابـة أو عنـد حليـف.

وفي نهايـة الحـرب يلجـأ الهنـود إلى طقـوس عـدة كاسـتعمال الغليـون الهنـدي calumet، للسـلم، أو إلى شريـط الوامبـون wampuns وهـو عبـارة عـن شريـط مـن الصـدف. كـما كان يتـم تقديـم الهبـات تعويضـاً عـن القتـلى والشـتائم. وتصبح مسـألة القتـل صعبـة إذا مـا كان المقتـول ينتمـي إلى قبيلـة أخـرى، إذ كان عـلى جميـع أعضـاء القبيلـة أن يسـهموا في تقديـم هديـة ثمينـة.

وعنـد وصـول المبعوثـين إلى القبيلـة المكلومـة، يلقـي زعيـم الوفـد خطابـاً لتخفيـف أحـزان والـدي وأصدقـاء الضحيـة. وتسـتمر الطقـوس فـترة طويلـة قـد تصـل إلى شـهرين أو ثلاثـة أشـهر.

تلكـم أهـم مميـزات ثقافـة الحـروب لـدى هنـود أمريـكا، وسـتعتريها كثـير مـن التغييـرات عقـب وصـول الأوروبيـين إلى أمريـكا انطلاقـاً مـن نهايـة القـرن الخامـس عـشر وبدايـة القـرن السـادس عـشر، حيـث سـتحصل انتقـالات ثقافيـة عـدة بـين السـكان المحليـين والأوروبيـين.

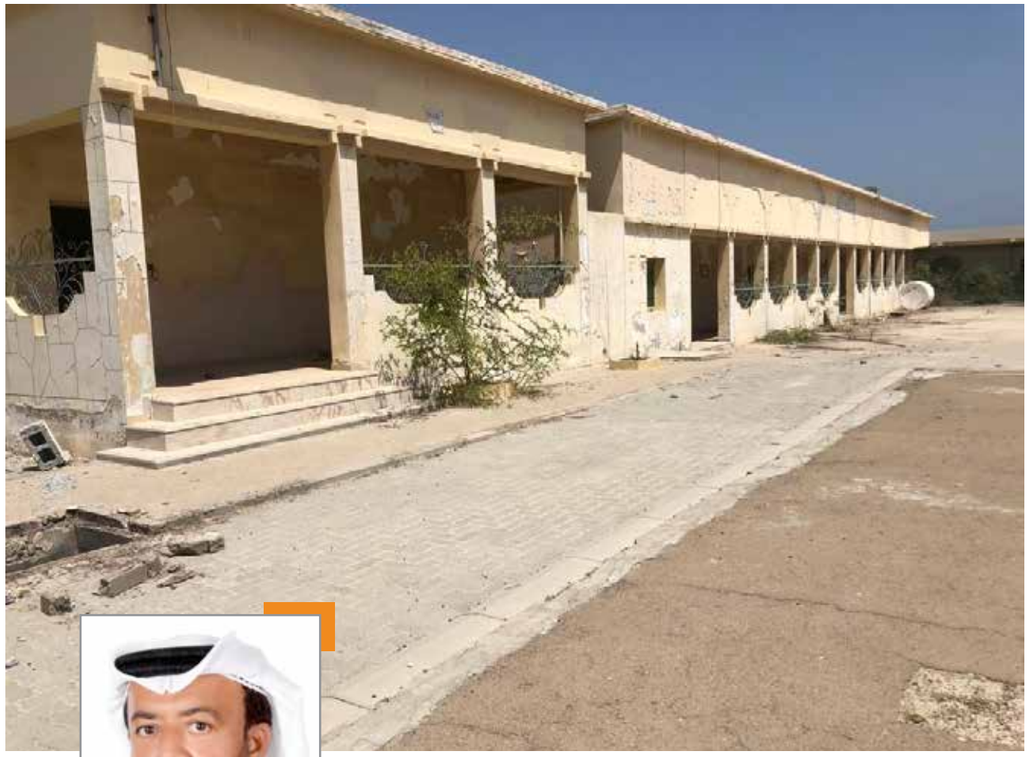

الزمن الجميل لمدرسة المهلب والخليل (خورفكان) (2-2)

محمد راشد النقبي
كاتب - الإمارات

مَن المهلب؟

المهلب بن أبي صفرة، شخصية معروفة في التاريخ الإسلامي، ولد في دبا بدولة الإمارات، في العام الأول من هجرة النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وكان يمتلك الكثير من الصفات القيادية، منها الحكمة والفروسية والشجاعة وحسن التصرف والبراعة في الحروب، وبرز كقائد فذ في فترة الدولة الأموية، ومن هذا المنطلق ونتيجة لهذه الشخصية العظيمة، تم إطلاق أولى المدارس في خورفكان باسم هذا القائد[1]

وصول الطلبة للمدرسة:

بعد وصول الطلبة إلى المدرسة، ينطلقون أولاً لوضع حقائبهم المدرسية في فصولهم، حيث يضم كل فصل مجموعةً من الطاولات والكراسي الصغيرة المخصصة لطالب واحد، وفي بعض الفصول تتوافر بعض الطاولات الكبيرة التي تحتوي على أدراج تكفي لجلوس طالبين، وبعد وضع الحقائب ينطلق الطلبة للعب قليلاً قبل أن يرن جرس المدرسة معلناً بدء طابور الصباح.

نشيد الصباح:

يذكر الخبير الزراعي صالح بشير النقبي، أحد ذلك الجيل الذي تعلم في المهلب في حديثة قائلاً: من الأيام الجميلة التي لا تنسى الطابور الصباحي، الذي اعتاد أن يشرف عليه معلم الرياضة، حيث يقوم بتنشيط الطلبة ببعض الحركات الرياضية المتضمنة بعض الألفاظ العسكرية، منها (مدرسة صفا.. انتباه) ثم حركات اليدين (أمام، جنب، فوق، تحت)، وبعدها تنطلق تحية العلم، حيث يقوم اثنان من الطلبة برفع العلم، وآخران يقومان بالتحية، وأما بقية الطلبة فيرددون نشيد العلم، ذلك النشيد القديم الذي سبق نشيد (عيشي بلادي)، حيث تؤكد تلك الكلمات والأبيات الجميلة مكانة العَلَم وقِيمته وأهميته بين الأمم:

عالياً.. عالياً.. عالياً.. عالياً يا عَلَم
فوق أعلى الذُّرى.. فوق كُلِّ القمِم
يا شباب البلاد.. يا منَار الأَمل
ارفعوا كالشُّهاب.. رايةَ الوحدة
واهتِفوا دائماً عالياً.. يا علم[2]

الإذاعة المدرسية والتكريم:

وفي لقاء مع أحد طلاب ذلك الجيل، يعرّج السيد خلفان الريل بقوله متذكراً الإذاعة المدرسية، وتكريم الطلبة قائلاً: مما لا يغيب عن ذاكرتي أنه بعد انتهاء رفع العلم، تبدأ عندها إذاعة الصباح اليومية، حيث يقوم مذيع البرنامج بتحية ناظر المدرسة والمعلمين وجميع الطلبة، وتبدأ الإذاعة اليومية أولاً بتلاوة آيات عطرة من الذكر الحكيم، ثم يلي ذلك التطرق لذكر أحد الأحاديث الشريفة مع شرحها، بعدها تأتي حكمة اليوم أو من ذكر بعض الأقوال المأثورة، ومن ثم يتم التطرق لبعض المقالات والموضوعات الثقافية والعلمية التي كُتِبت من قبل المعلمين أو الطلبة أنفسهم. وفي بعض الأحيان يتم إعلام الطلبة ببعض التعليمات الجديدة الخاصة بالسلوك أو النظم الإدارية الجديدة.

لكن أفضل وأكثر ما يفرح الطلبة، ويدخل السرور في

علبة الألوان المائية من الذكريات الجميلة في المدارس.

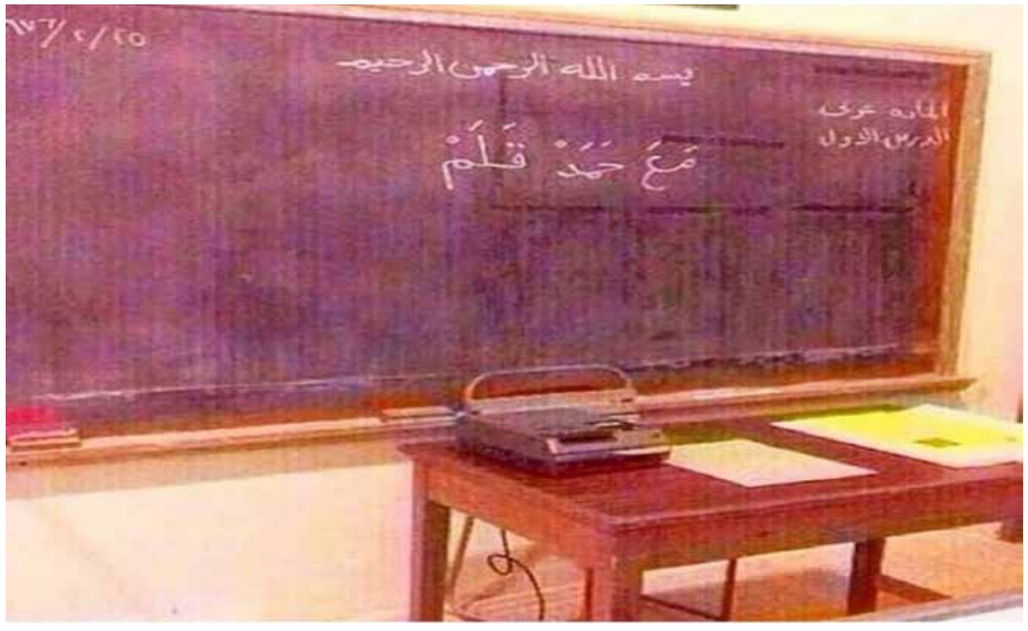

السبورة الخشبية إحدى وسائل التعليم المهمة في الماضي (أخذت الصورة من أحد الموقع الإلكترونية).

استخدم الطباشير قديماً في الكتابة على السبورة الخشبية السوداء، وله ألوان مختلفة، فاللون الأبيض يتم استخدامه لكتابة الفقرات، وبقية الألوان لكتابة العناوين المهمة وعنوان الدرس

قلوبهم أيام ومناسبات التكريم الصباحية، حيث كان الحصول على الجوائز والهدايا من الأشياء التي لا يمكن أن ينساها الطلاب، خاصة المتفوقين والمميزين منهم، فكم هي فرحة وسرور الطالب بخروجه لمنصة الإذاعة المدرسية متوجهاً لتسلم جائزته، حيث الجميع يحدقون ببصرهم نحوه يحيونه، ويصفقون له، ويرفعون هامتهم إجلالاً له، وكانت الجوائز في تلك الأعوام لا تتعدى أن تكون عبارةً عن مقلمة وأدوات هندسية،

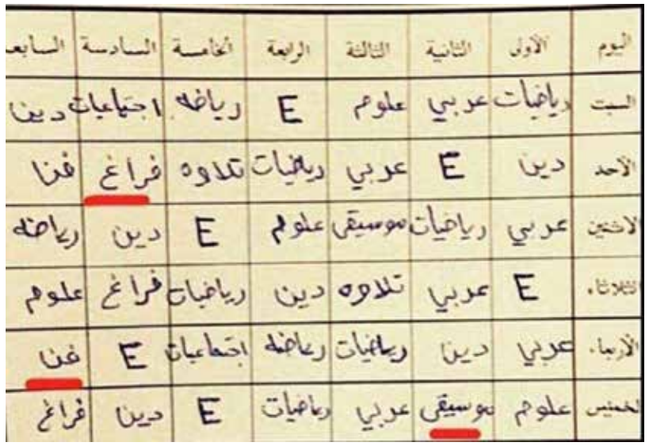

اليوم	الأولى	الثانية	الثالثة	الرابعة	الخامسة	السادسة	السابعة
السبت	رياضيات	عربي	علوم	E	رياضة	اجتماعيات	دين
الأحد	دين	E	عربي	رياضيات	تلاوة	فراغ	فنا
الاثنين	عربي	رياضيات	موسيقى	علوم	E	دين	رياضة
الثلاثاء	E	عربي	تلاوة	دين	رياضيات	فراغ	علوم
الأربعاء	عربي	دين	رياضيات	رياضة	اجتماعيات	E	فن
الخميس	علوم	موسيقى	عربي	رياضيات	E	دين	فراغ

جدول الحصص وقد يتغير توقيت المواد الدراسية بين وقت وآخر، وكانت مادة الرياضيات يطلق عليها الحساب.

وعلبة ألوان للرسم، وحقيبة، وساعة يد بسيطة، لكن على الرغم من بساطتها، إلا أنها تترك أثراً طيباً في نفسية الطالب، لا يمكن أن ينساه أو يغيب عن ذاكرته، كما يزرع فيه حافزاً للعطاء والمثابرة، وحباً للمدرسة والمعلمين.[3]

بعض الذكريات:

وفي حديث مع السيد علي صالح النقبي أحد الطلبة الذين التحقوا بسلك التعليم في فترة الستينيات في

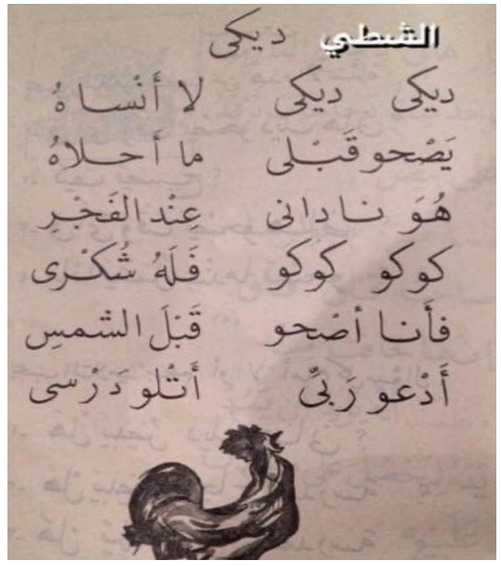

المرحلة الابتدائية والإعدادية، حيث يسرد لي بعض ما عايشه في تلك الفترة في حديثة عن قسوة وشدة المعلمين في تلك الفترة، وعدم تهاونهم مع المقصرين، حيث كان الضرب والعقاب بالعصا والمساطر ذات الحد النحاسي مسموحاً به، لكن على الرغم من تلك الشدة، إلّا أن غالبية الطلاب ممن قد تتم عقوبتهم سرعان ما كانوا يتقبلون تلك الشدة بشيء من الرضا، إذ لا تمر ساعات ودقائق حتى ينسى الطالب تلك العقوبة التي جرت بحقه. وهذا العقاب الذي ينال الطلاب المقصرين والمتهاونين أو أصحاب السلوك السيئ، يجعلهم بالتالي يدركون ويعون أنه لا مجال للتقصير والإهمال، مادام المرء يريد الوصول لطريق النجاح والتفوق، حيث لابد من بذل الجهد والمثابرة المستمرة.

كانت أوقات الفسحة من الأوقات التي لا يمكن للطلبة تجاهلها ونسيانها، لدرجة أنهم كانوا يتمنون مرور الوقت بسرعة للخروج للعب في ساحة المدرسة وفنائها، ليس هذا فقط، بل كانوا ينتظرون وجبة الطعام اليومية المعتادة، حيث جرت العادة قبل نهاية الحصة الثالثة بدقائق من كل يوم، إحضار وجبة الطعام التي يطلق عليها (التغذية) لداخل الفصل، يحملُها أحد الفراشين (العاملين) من المواطنين، وكانت تلك الوجبة تُوضع في طَشت من البلاستيك الملون، وعادةً ما تحوي على مكونات ومواد غذائية تختلف من يوم لآخر خلال أيام الأسبوع، فيومٌ تحتوي على صَمون وجبن وجام (مربي) مع بعض الفواكه الطازجة منها الموز والبرتقال والتفاح، ويوم آخر تتكون من صمون وجبن وجام ونوع من الحلويات الشائعة المعروفة إلى يومنا هذا وهو (كاكاو جالكسي)، وفي الستينيات تضمنت التغذية الحليب الطازج والتمر الذي يوضع في أكياس مغلفةً من البلاستك.[4]

وفي لقاء مع السيد عبدالله راشد المخلوف، أحد طلاب تلك الفترة، يستذكر بعض أحداثها بقوله: ما إن يدقُّ جرس الفسحة، حتى ينتشر الطلاب في أرجاء المدرسة وساحاتها، فمنهم من يأكل، ومنهم من يلعب بعض الألعاب الشعبية المحلية، ومن أشهرها (الغميضة، لعبة يوك أو كروك، لعبة التيلة)، ومنهم من يذهب لمشاهدة حظيرة الطيور التي كانت موجودةً في إحدى زوايا ساحة المدرسة.

كـما لا يمكـن أن يغيـب عـن ذاكـرتي، تلـك الملابـس المدرسـية التـي كانـت تـوزع بالمجـان عـلى الطلبـة، حيـث كانـت عبـارة عـن قميـص وبنطلـون، والغالـب عـلى تلـك الألـوان اللـون الأزرق، حيـث كان ذلـك اللـون الشـائع في تلـك الفـترة، وقـد جـرت العـادة قيـام الفراشـين ومعلمـي الإدارة بعمليـة توزيـع قطـع الملابـس (الخـام) التـي كانـت تفـرش في سـاحة المدرسـة، وتقـص وتقُطّـع قِطعـاً بمقـاس واحـد للجميـع، حيـث يتـم تـوزع قطعـة خاصـة للبنطلـون تكفـي عـدد بنطالـين، وقطعـة أخـرى للقميـص تكـون ناعمـة الملمـس، تكفـي لخياطـة قميصـين اثنـين، حيـث يقـوم الطلبـة بالتوجـه إلى الخياطـين في السـوق القديـم لخياطتهـا.[5]

وأجمـل مـا يتذكـره البعـض تلـك الأناشـيد الرائعـة التـي يحفظهـا غالبيـة ذلـك الجيـل عـن ظهـر قلـب، وهـي بحـق أناشـيد جميلـة هادفـة، تحـث عـلى القيـم والمثـل والتعـاون وحـب الوطـن والأسرة، وجميعهـا يدعـو إلى زيـادة أواصر الترابـط الأسري والمجتمعـي، وإبـراز أهميـة وقيمـة ونفـع مـا نتعايـش معـه، نذكـرُ منهـا نشـيد (وقـف الأسـير مقيـداً، ونشـيد أمـي أمـي، ونشـيد انظـر لتلـك الشـجرة، وشرطـي المـرور، ونشـيد ولي وطـن، يـا طائـراً مـا أجملـك، ونشـيد مدرسـتي الحبيبـة، وسـفينة البخـار، وبـرز الثعلـب يومـاً، وديـكي ديـكي)، هـذه الأناشـيد عـلى الرغـم مـن مـرور تلـك السـنين والأعـوام، إلا أن أكـثر مـن تعلمـوا ودرسـوا في تلـك الفـترة لا يزالـون يسـتذكرونها ويتداولونهـا فيـما بينهـم في المجالـس وفي التجمعـات الشـبابية والنـدوات، حيـث إنهـا بسـيطة في ألفاظهـا وكلماتهـا، كبـيرة في معناهـا ومغزاهـا، فهـي تدعـو وتحـث عـلى القيـم والفضائـل والشـجاعة وحـب الوطـن وحـب الوالديـن والمحافظـة عـلى البيئـة الطبيعيـة، ومـا تحويـه مـن كائنـات كثـيرة.

وأجمـل مـا قيـل مـن وصـف لمدينـة خورفـكان ومدرسـتها، قصيـدة طويلـة للشـاعر والأديـب الأسـتاذ: راتـب السـيد (رحمـه اللـه تعـالى) تطـرق في جانـب منهـا لمدرسـة الخليـل وطلابهـا، حيـث يقـول:

يا حادي الركب طول السير أضناني
قـف بي تمهـل فهـذي خورفكانِ
مدينة السحر قد طاف الجمال بها
ومـاؤها العـذب يـروي كـل ظمـآنِ
منـارة العلـم خـورفـكان دارتهـا
وللخليـل عليهـا فضـل عـرفـانِ
أهدي الخليل لها عيناً لمعرفة
ولاحظتهـا مـن الـرحمن عينـانِ[6]

الخلاصة:

مـا أجملهـا مـن أيـام مدرسـية مضـت كغمضـة عـين، لكنهـا ظلـت عالقـة في الأذهـان، تاركـة بصـمات لا تنسـى، رغـم مـرور الأيـام والأعـوام، ومـا ميزهـا وأضفـى لهـا بهجـةً تلـك الألفـة والمحبـة بـين الطلبـة والمعلمـين، وبـين جميـع العاملـين، كـما لا يغيـب عـن الذاكـرة ذاك المنهـج السـلس البسـيط، الـذي لا تعقيـد فيـه ولا صعوبـة، ظلـت تلـك الأيـام

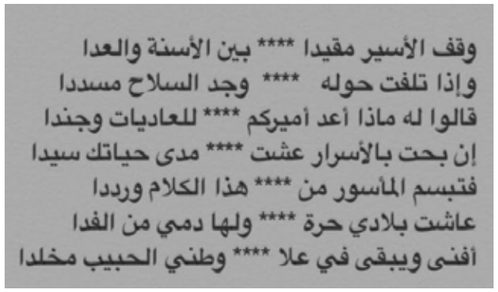

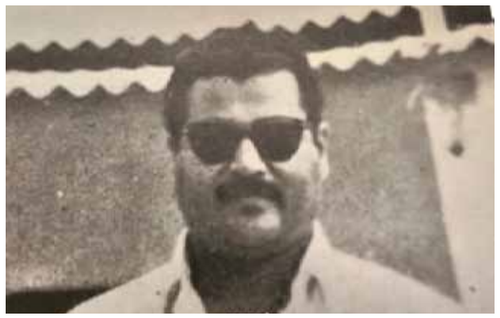

ناظر المدرسة (أبوالمعاطي) أول مدير لمدرسة المهلب بخورفكان (أخذت الصورة من كتاب مسيرة التعليم).

محفـورةً في ذاكـرة الزمـن، يسـتذكرها البعـض بـين الحـين والآخـر، ففيهـا روح الصداقـة والأخـوة الصافيـة والألفـة، وفيهـا الترابـط والتعـاون والتعاضـد، وفيهـا العلـم والثقافـة والمعرفـة التـي تألفهـا القلـوب والعقـول كأنهـا النبـع الصـافي العـذب لا ينضـب مـاؤه، وهـذه الأشـياء هـي مـا ميـز ذكـرى تلـك الأيـام والأعـوام الجميلـة، في مدينـة مـن أجمـل مـدن السـاحل الشرقـي مـن الدولـة، خورفـكان العريقـة التـي ينسـاب منهـا عبـق التاريـخ والـتراث، لقـد كان طابـع البسـاطة في المناهـج المدرسـية هـو طابـع عـام في جميـع مـدارس الإمـارات؛ لـذا كان مـن الواجـب عـلي أن أبـرز جانبـاً مـن موروثنـا الثقـافي العلمـي والاجتماعـي، فالتعليـم في تلـك الفـترة كان شـعلة تنـير للمتعلمـين دروب المجـد والعليـاء في حياتهـم، فالعلـم نـور يسـطع في الأعـالي ليبـدد ظُلـم الليـالي.

---

1. من كتاب المهلب من دبا إلى مطلع الشمس، رياض نعسان آغا، 2013م.
2. لقاء مع السيد، صالح بشير النقبي
3. لقاء مع السيد: خلفان عبيد الريل
4. لقاء مع السيد: علي صالح النقبي
5. لقاء مع السيد: عبدالله راشد مخلوف النقبي
6. النقبي، محمد خميس، خورفكان في ذاكرة الزمان، دار كتاب، ص232، ط1، 2012م.

المراجع والمصادر:

1. النقبي، محمد خميس، خورفكان في ذاكرة الزمان، دار كتاب، ط1، 2012م.
2. النقبي، إبراهيم أحمد، مسيرة التعليم في خورفكان (دراسة تاريخية)، هيئة الشارقة للوثائق والأرشيف، 2018م.
3. النقبي، محمد راشد، ملامح من التراث الإماراتي في الساحل الشرقي، معهد الشارقة للتراث، ط1، 2022م.

الصحف والمجلات:

- لقاء مع الطبيب، إبراهيم القاضي، البيان، يوليو، 2012م.
- من ذاكرة الزمن، ملاحق الخليج، ملحق تراث، مايو، 2014م.

اللقاءات الشخصية:

- لقاء مع السيد: محمد صالح النقبي
- لقاء مع السيدين: محمد وعلي إبراهيم النقبي
- لقاء مع السيد: صالح أحمد بشير النقبي
- لقاء مع السيد: خلفان عبيد الريل
- لقاء مع السيد: علي صالح النقبي
- لقاء مع السيد: عبدالله راشد مخلوف النقبي.

القلافة.. مهنة البحر

سارة إبراهيم
كاتبة - مراود

امتهن الإنسان على مر العصور المئات من المهن التي تتناسب مع بيئته واحتياجاته واحتياجات محيطه، من بينها مهنة صناعة السفن أو القلافة، كما تسمى في دول الخليج، هذه المهنة جاءت بشكل طبيعي لتتماشى مع الطبيعة الجغرافية الساحلية لتلك الدول ومن بينها دولة الإمارات.

القلاف هو صانع السفن على اختلاف أنواعها والغرض منها، وهي مهنة أساسية في فترة ما قبل ظهور النفط، فمهن صيد السمك والغوص على اللؤلؤ والتجارة، وما تحملها من عشرات المهن كلها رهن صناعة السفن. وتشير المصادر إلى أن الإنسان في الإمارات بدايةً تعرف إلى السفن الخشبية من خلال التجارة الوافدة له من الخارج، فقرر إنشاء صناعة محلية خاصة به تتلاءم مع متطلبات معيشته، فاستخدم الأخشاب المستوردة والمحلية لصناعته الجديدة.

يعمل القلاف أو الجلاف على نحت وصقل ألواح الأخشاب تهيئة لرصها ببعضها بعضاً لبناء السفن الخشبية، وطريقة رصّها تكون إما بالحبال أو بالمسامير المعدنية، وللقلافة كغيرها من المهن تخصصات عدة، فالاستاد هو مشرف عملية بناء السفينة، وهو المخطط لها، ويساعده في عمله مساعد يعينه على إتمام العمل بدقة، وهنالك من يشذب أخشاب السفينة ويصقلها، يليه من يمتهن تركيب الألواح الخشبية، ويكون معه ضارب المسامير فكلاهما يقومان بمهمة تعتبر أساسية في البناء، وبعد الانتهاء من هذه العملية يأتي قلاف مهمته حشو الفراغات بين الأخشاب بقطع قطنية مشبعة بالزيت لمنع تسرب الماء للسفينة، وهي مهنة تحتاج الدقة والصبر ويتحمل صاحبها مسؤولية كبيرة، وكما هي العادة فكل مهنة بحاجة لمساعدين صغار يعاونون الفريق لسد الاحتياجات الناقصة ومناولتهم عدة العمل والطهي وما إلى ذلك.

ما ذكر من مهام في قلافة السفن، تكبر أو تصغر ويزداد عدد أفرادها أو ينقص وتحدد مدتها الزمنية، بحسب حجم السفينة، والسفن الكبيرة هي سفن متخصصة بالتجارة ونقل البضائع والسفر إلى دول بعيدة، وهناك ما هو أصغر منها، وهو ما يطوف بين دول الخليج، بينما سفن صيد اللؤلؤ فهي أصغر حجماً، وتصمم بشكل يتيح لها السرعة بمعاونة المجاديف، كما هنالك سفن صيد الأسماك، وتراوح في أحجامها بحسب مهمة الصيد في المياه الضحلة أو العمق. ومن أهم أنواع السفن في الخليج هي البتيل، السنبوك، الجالبوت، البوم، البغلة، الهوري، اللنج، الماشوه، الشاشة، وغيرها، وهي أسماء نراها عادة أسماء لمحال متخصصة في معدات السفن والمطاعم وغيرها، والغرض من ذلك ترسيخ تلك المفردات التراثية في الأذهان، فمهن القلافة وما يتعلق بها من مهن البحر هي مهن الأجداد الخالدين بأعمالهم.

السدو العربي:
وتوأمه الحنبل المغاربي

الزبير مهداد
كاتب وباحث ـ المغرب

لعل صناعة النسيج من أقدم الحرف الإنسانية، توافرت مادتها الأولية بفضل تربية الأنعام التي تنتج الصوف والوبر أو الشعر الذي يمكن غزله وإعداده للنسج، ولعل هذه الصناعة كانت موكولة للنساء؛ لأن الرجال كانوا في الغالب يتكفلون برعي الأنعام في الحقول.

ومازالت النساء في البوادي، وفي كثير من الحواضر، يتوارثن هذه الصناعة، ويتلقين أسرارها وطرقها وآدابها، من أمهاتهن وجداتهن، فيحولن بأناملهن الأصواف الشعثاء إلى منسوجات بديعة وأنيقة.

ويعد السدو من أهم المنسوجات التقليدية التي تبدعها النساء العربيات في شبه الجزيرة العربية، التي تمتلك ثروة مهمة من الإبل والأغنام والماعز. وكذلك في شمال إفريقيا، التي تشتهر بكثرة أنعامها، وجودة أصوافها، فإن النساء يبدعن في صنع العديد من المنسوجات من صوف أو شعر، منها السجاد الموبر، والحنبل وهو نوع من السجاد الأملط (من دون وبر)، ينتج في البوادي الأمازيغية بالخصوص، المنتشرة في المغرب والجزائر وتونس.

أسماء مختلفة ومشتركة في آن

تطلق كلمة «السدو» على عملية «حياكة أو نسج الصوف عند أهل البادية»، ويقصد بها عند البدو مدّ خيوط الصوف بشكل أفقي وحياكتها على النول. وفي لغة صناع الزرابي المغربية، فإن كلمة «السدى» تعني الخيوط الأفقية التي تشد فيها العقدة.

أما الحنبل فله معان عدة في لسان العرب، منها الفرو الخلق، وأطلقه بعضهم فقال هو الفرو. في الجزيرة العربية يطلق لفظ الحنبل أو الحنبلية أو البساط الحنبلي على نوع من الزخارف التي تحلي السدو، يتألف من مثلثات متداخلة، ولعله من أقدم الزخارف لبساطته.

تمر عملية صناعة المنسوج بخطوات عدة:
الخطوة الأولى: جمع المادة الأولية من صوف الأغنام ووبر الإبل وشعر الماعز.
الخطوة الثانية: فرز الصوف وتنظيفه ثم غسله بالماء وتمشيطه ونفشه.
الخطوة الثالثة: غزل الصوف المنفوش لتحويله إلى خيوط متينة باستخدام المغزل.
الخطوة الرابعة: صباغة أكوام الخيوط المغزولة، وتثبيت الألوان بالحرارة أو مواد أخرى، وتجفيفها.
الخطوة الخامسة: النسج أو الحياكة، وهي صناعة النسيج بالخيوط على النول. وأحجام النول تختلف باختلاف نوع المنسوج.

الزخرفة

الرموز والأشكال المستعملة في هذه المنسوجات قديمة متوارثة، وهي عبارة عن أشكال هندسية بسيطة وعفوية، وبألوان مشعة مثل الأحمر والبرتقالي والأصفر، تضفي عليها قيمة جمالية، تغذيها رموز من الثقافة المحلية.
وفي السدو كما في الحنبل، تختلف زخارف المنسوجات من منطقة لأخرى، فلكل منطقة أو قبيلة أشكالها الزخرفية وألوانها المفضلة، بل شكل النسيج وسمك خيوطه وليونتها.
تجدر الإشارة إلى أن كل «حنبل» يحمل اسم القبيلة التي ينتمي إليها، مثل حنبل «آيت زكوكو» وحنبل «آيت يوسي» وحنبل «بني واراين». فحين ينسب الحنبل للقبيلة، نعرف مسبقاً حتى دون رؤيته، لونه وشكله ونوع زخارفه.
فحنبل الأطلس المتوسط عبارة عن ثوب خشن وسميك، يصنع من خيوط الصوف الغليظة، وله أرضية بيضاء مزركشة بألوان مختلفة. أما «حنبل» الأطلس الكبير، فهو عبارة عن ثوب منسوج يدوياً أقل خشونة وفيه كثرة الألوان. كذلك الأمر بخصوص السدو، فهو يختلف بزخارفه من منطقة لأخرى.
كذلك الشأن بخصوص السدو، ففي المملكة العربية السعودية مثلاً، يمكن التمييز بين السدو النجدي والسدو الحجازي، والعسيري، والجنوبي. إلى جانب السدو الكويتي والإماراتي والقطري، وكل نوع من الأنواع يتميز بكثافته، وملمسه، وألوانه وزخارفه.

العناصر الزخرفية

الزخارف التي تحلي السدو والحنبل هندسية كلها، تتألف من الخطوط بأنواعها المستقيمة أو المنكسرة، المتفاوتة الطول، والتي يمكن ترتيبها بأوجه عدة، لتوليد عدد لا متناه من الأشكال. كما تتصرف في سمك الخطوط وطبيعتها، فهناك خطوط سادة ذات لون واحد، وخالية من أي زخرفة، وهناك خطوط مزخرفة. إلى جانب الخطوط نجد المضلعات الثلاثية (المثلثات) والرباعية (المعينات) التي أيضاً يمكن أن تتولد عنها أشكال عدة.
هذه الأشكال، سواء منها الخطوط أو المضلعات، توظفها الناسجة بالتشابك، والتداخل، والتكرار، والتقابل، وبتنويع سمكها، لتنتج لوحة جميلة في مجملها.
يستعمل المضلع الرباعي (المعين) بكثافة في زخرفة السدو والحنبل، وهو شكل هندسي بسيط، يرسم بحجم واحد في كل قطعة، يرسم بمفرده، أو ضمن تركيبة كثيفة معقدة من الأشكال، يكون بلون واحد، أو يزين داخله بأشكال زخرفية أصغر، وفي الغالب يأتي في شكل سلسلة متراصة من المعينات تمتد على طول قطعة النسيج، وأحياناً تكون المعينات متراكبة داخل بعضها بعضاً، أو معينات كبيرة، مجزأة إلى معينات أصغر متساوية الحجم.
ويستعمل المضلع الثلاثي (المثلث) أيضاً بشكل لافت للنظر، وهو يتميز ببساطته أيضاً، لكنه يفتح آفاقاً واسعة للابتكار، ويتيح تشكيلات عديدة، فالناسجة تقسم النسيج إلى قطاعات مستقيمة، وتستخرج من العقد أي شكل مضلع منتظم، بحساب دقيق، فتؤلف عدداً من مركبات نجمية.
فزخرفة «الحنبلية» عبارة عن مثلثات متراكبة، بألوان مختلفة (بيضاء، خضراء، وحمراء)، أما زخرفة «عويرجان»، فقوامه الخطوط المتعرجة، بلونين أحمر وأبيض، لكنهما يرسمان بشكل متقابل في شكل شريط طويل على امتداد النسيج فيشكلان مثلثات.
فعلى الرغم من أن زخرفة السدو والحنبل تقليدية متوارثة، ومحددة الأشكال، وتخضع لنظام موحد وصارم، فإن فرص اختيار الوحدة الرئيسة للتشكيل واختيار التنويعات متاحة للناسجة التي تستعين بذكائها ومهاراتها الحسابية، فتبتكر تشكيلات عديدة.

إن التشكيلة الزخرفية للحنبل المغاربي تستند إلى إطار مرجعي هندسي مستمد من الخط المستقيم والمثلث والمعين، ولا تشتمل على عناصر حيوانية أو نباتية. لكن يتم تشخيص الحيوانات والنباتات بشكل تجريدي، أو يرمز لها بأشكال هندسية.

أما في السدو العربي، فقد تم رصد رسوم للعقارب والإبل والنخيل، بأشكال بسيطة، لكنها دالة بوضوح على الموضوعات المذكورة.

أسماء وتأويلات

رغم اختلاف هذه التصاميم الزخرفية في بعض الأحيان من قبيلة إلى أخرى، أو منطقة وأخرى، لا سيما من حيث اسم الوحدة الزخرفية، أو نوعها، أو التمازج في ألوان الخيوط، إلا إنها تتشابه لحد كبير في أغلب أجزائها، وفي دلالاتها، فهي تجسد اتجاهات، أو معتقدات، أو ظواهر اجتماعية.

تتميّز المنسوجات بالزخرفة الهندسية، فهي لها صبغة خاصة تعرف لأول وهلة بأنها زخرفة محليّة، تعتمد أساساً على شكليّ المثلث والمعيّن، توارثتها عن أمها أو جدّتها، وهي محفوظة في صدرها، وقد تختلف التسميات من منطقة لأخرى، لكن الشكل الأساس لا يتغيّر، حيث يمكننا أن نصادف عناصر لها المعنى نفس عند جميع الناسجات، فلم تتغير هذه الأشكال، ولم تطرأ عليها أي تعديلات أو تطورات، بل حافظت على أصالتها، فنقلتها وتداولتها الأجيال منذ أقدم العهود. إلا أن هذه الأشكال الهندسية المتشابهة، يتم إكسابها أحياناً وظائف ومعاني رمزية تستمد أصولها من الثقافة المحلية. ودون الابتعاد عن النماذج القديمة، تعبّر عما يجوب في داخلها، فتنجزه عن طريق الخطوط والألوان، فتعطي لها تفسيراً واسماً خاصاً بها.

فالشريط المتكوّن من الخط المنكسر، يسمى في المغرب «الحنش» أو «الأفعى»؛ لأن حركة هذا الزاحف تشبه الخط المنكسر.

أما «المعين، فهو يمثل عنصراً زخرفياً مشتركاً بين المشرق والمغرب، في بعض المناطق بالمغرب الأوسط يرمز المعين إلى الحذر من الحسد والعين، بل يسمى في منطقة القبائل «ثيط»؛ أي العين، وحين يتكرر في الأشرطة الأفقية في صفين أو ثلاثة صفوف، يكون بحجم أصغر، يسمى «عين الحجلة». وفي السدو السعودي أيضاً، ففي بعض المناطق تسمى المعينات التي تزخرف السدو بـ«العين».

في السدو العربي يوجد رمز «ضرس الخيل»، سمي بهذا الاسم لأنه يشبه في شكله الأسنان البارزة، ويستخدم هذا الرمز مفرداً بتكراره كإطار لتصميم حاشية أو قد يضم إلى مجموعة وحدات أخرى ليكون إطاراً لها.

أما «الحبوب» فيتم تمثيلها بأشرطة طويلة غالباً ما تكون بيضاء اللون تحتوي على مجموعة نقاط تشبه حبات المحاصيل الزراعيّة، في حين تكون خلفية تصميم السادة باللون الأسود، أما النقشة في الوسط فترتكز على مثلثات متراصة بألوان مختلفة.

نقشة الضّلعة أو الضليعة، شريط طولي أفقي ممتد في السدو يرمز إلى ضلوع الإنسان أو الحيوان، وهناك اعتقاد بدوي قديم بأن نقشه الضّلعة إذا وضعت على خرج الجمل تزيد من قوته ومتانته وتحمله. وتتلون الضّلعة عادةً باللونين الأبيض والأسود.

أصول الزخارف

لعل من الصعب معرفة أصول هذه الفنون الزخرفية، لكن، من الواضح أنها عريقة جداً، ففي البلاد المغاربية، قد نجد بعض جذورها في الرسوم الصخرية، أو بعض أشكالها الأولية في النقوش التي تزين واجهات العمارة القديمة، أو في الوشوم التي تتزين بها النساء، أو زخارف الأواني الطينية، كما تزخر مدن المغرب والجزائر وتونس بآثار رومانية قديمة، تضم لوحات فسيفساء مزخرفة بأشكال هندسية ورسوم، هي نفسها التي تعيد الناسجات إنتاجها في الزرابي والحنابل منذ قرون عدة إلى اليوم.

كما أن هذه الزخارف والألوان بتشكيلاتها وتوزيعها هي نفسها التي تغطي سقوف المنازل الطينية في الأطلس، وتسمى «السقف الطاطاوي»، حيث يتم زخرفة الوجه الباطني للأخشاب التي تكون السقف برسوم هي عبارة عن زرابي مشخصة بكامل زخارفها وتفصيلاتها، والزخارف ذاتها نجدها منتشرة على نطاق واسع بالمناطق المغاربية التي يقطنها الأمازيغ بليبيا وتونس والجزائر والمغرب، فكثير من الزرابي المصنوعة بهذه المناطق تتشابه تشابهاً كبيراً.

في الجزيرة العربية أيضاً، تم اكتشاف نقوش صخرية قديمة جداً، تنسب إلى مملكة دادان في منطقة العلا شمال غربي السعودية، رسمت فيها زخارف شبيهة بالعويرجان، كما تتزين البيوت التهامية بما يسمى «القط العسيري» الذي تنجزه النساء لزخرفة المنازل من الداخل والخارج، ويحتوي على وحدات زخرفية جميلة جداً، تستخدم هي أيضاً المضلعات الثلاثية والرباعية، بألوان حارة، مثل الأخضر والأصفر والأحمر، هي نفسها التي تتكرر في قطع السدو.

الخاتمة

إن السدو وأخاه الحنبل توأمان، عاشا في بيئات مختلفة، فاختلفت ألوانهما، لكنهما ظلا محافظين على سماتهما الأصلية التي تؤكد أخوتهما، فالسمات المشتركة بينهما كثيرة، في اللون، والزخارف، والرموز، وطرق الإنتاج، والوظائف. ومازالا يعكسان إبداع النساء البدويات في البلاد العربية والمغاربية، وذائقتهن الجمالية، ومهاراتهن. كما يختزلان معاً، ثقافة المنطقة وموروثها، والصلات العريقة القوية القائمة بين شعوبها، التي تستدعي تكاثف الجهود لبحثها والكشف عنها وسبر أغوارها. فالمشتركات الثقافية بين البلاد العربية والمغاربية كثيرة وعميقة، لن يزيد الكشف عنها أمتنا إلا قوة، وعلاقاتها متانة، ويصحح كثيراً من المفاهيم الخطأ والأحكام النمطية المضللة التي أضحت تروجها بعض المنابر المشبوهة.

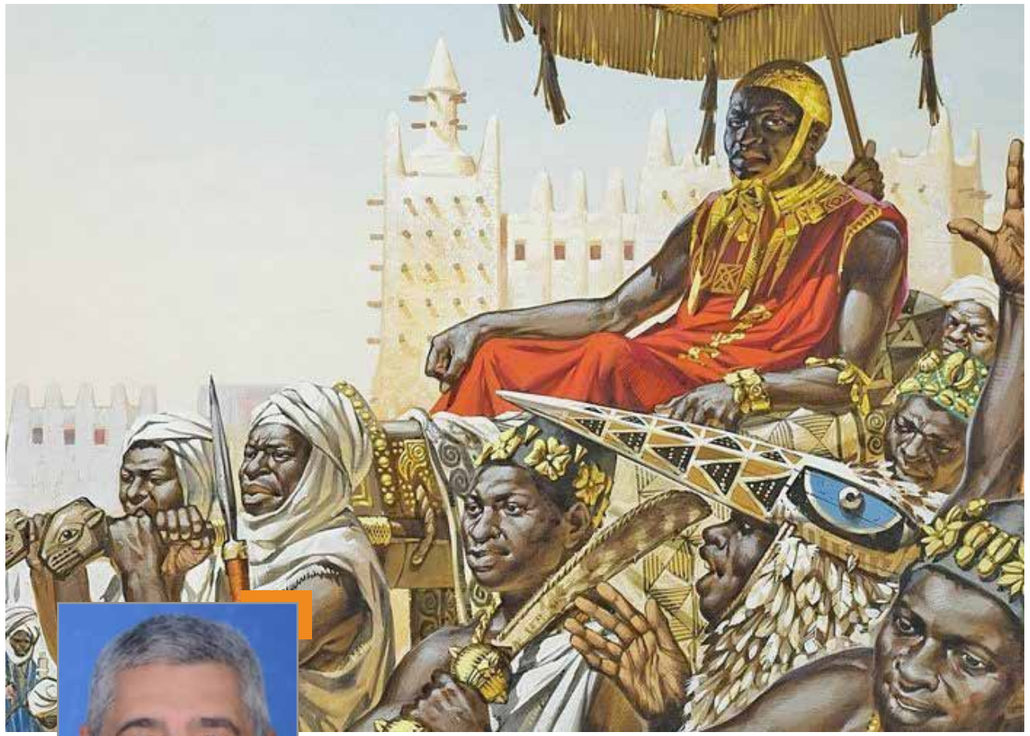

حج عاهل إمبراطورية مالي

السلطان منسا موسى 724 هـ/ 1324م

د. أحمد الشكري
أستاذ التعليم العالي
بجامعة محمد الخامس بالرباط

يعد السلطان منسا موسى، رابع ملوك مالي الذين يقومون بأداء فريضة الحج، وفي عهده (712-737هـ/1312-1337م) كانت الإمبراطورية تعيش أوج قوتها، وذروة مجدها؛ لذلك أضحى منسا موسى يبحث لنفسه عن مكان، وليس أي مكان، بين حكام الأقطار الإسلامية، فجاء حجه في مستوى هذه التطلعات، بحيث رتّب له من المظاهر ما يدل على مكانته، ولكن أيضاً على قوته وكثرة ذهبه.

تذكر المصادر المحلية التنبكتية، خاصة منها تاريخ الفتاش، أن السلطان لما عزم على قضاء فرضه: «قام بجمع المال والجهاز للسفر، ونادى من بأرضه من كل جانب، يطلب الزاد والعون، وأتى أحد مشايخه يطلب منه أن يختار له يوم الخروج في الأيام، فقال أرى أن تنتظر يوم السبت الذي يكون ثاني عشر شهر، واخرج فيه، لا تموت حتى ترجع إلى دارك سالماً، إن شاء الله، ومكث يتربص حصول ذلك في الشهور وينتظره، ثم لم يحصل إلا بعد تسعة أشهر، وافق فيه الثاني عشر يوم سبت، وخرج بعدما وصل رأس قافلته بتنبكت، وهو بداره في ملّ».

وحسب سياق هذه الرواية، يبدو جلياً أن السلطان منسا موسى لم يتعجل الأمور، وإنما أخذ ما يكفيه من الوقت للإعداد والترتيب لرحلته الحجية، حيث دامت مرحلة الإعداد زهاء سنة كاملة، اتخذ خلالها جميع احتياطاته لمواجهة أي ظرف طارئ. وكان أول عمل قام به السلطان قبل سفره، أنه استناب ابنه محمد (منسا مغا)، وجعله وصياً على العرش إلى حين عودته.

وإذا كانت المصادر متفقة حول أهمية عدد الرفقة التي صاحبت السلطان إلى الحجاز، فإن الأرقام التي تطرحها، تختلف من مصدر لآخر؛ وحسب رواية ابن خلدون التي تملك مصداقية معتبرة بهذا الشأن، يمكننا القول إن الركب السلطاني ناهز الاثني عشر ألف نفر.

وكان الموكب يضم زوجة منسا موسى المسماة إنار كُنْتُ، وعدداً غير قليل من الأمراء وحكام الأقاليم، والفقهاء والقضاة، منهم بعض المغاربة القاطنين بمالي. ورافق الموكب مئات الجنود لحماية الركب من الإغارات المحتملة، ذلك أن ذكرى مقتل السلطان ساكورة (نحو عام 1300م) بطرابلس حين عودته من الحج، مازالت عالقة بالأذهان، ولاريب في أن منسا موسى قد فكر في الأمر ملياً، وتهيأ له جيداً.

ومشى مع السلطان، سِلمان بن يَعْثَ و«كان من خدمه يركب أمام الرفقة»، ما يعني أنه كان دليل القافلة وقائدها العام؛ ومجموع حاشية السلطان مع جنوده لم يتجاوز في نظرنا الثلاثة آلاف نفر، بينما كان المتبقون وتقديرهم تسعة آلاف، يتكونون من العبيد.

والحاجة التي دعت إلى استصحاب هذا العدد الوافر من العبيد، تتمثل في استعمالهم لخدمة السلطان وحاشيته في الطريق، ولمساعدة الجند في حماية الركب، حينما يتعرض لاعتداء محتمل. وأخيراً، فقد كان من عادة أهل التكرور أن يأخذوا معهم العبيد للاعتبارات نفسها المتقدمة، ولكن أساساً لمقايضتهم في أسواق مصر والحجاز بغرض الحصول على عملة نقدية، تمكنهم من تغطية مصروفات رحلتهم الحجية داخل البلدين.

ولعل هذه المعطيات قد غابت عن عدد غير قليل من الباحثين، ما جعلهم يستعظمون عدد رفقة السلطان منسا موسى، ويضربون عرض الحائط الأرقام التي أوردتها المصادر، حيث اعتبروا تلك الأرقام من بين الشطحات التي عودتنا عليها الحوليات القرسطوية في تقديراتها.

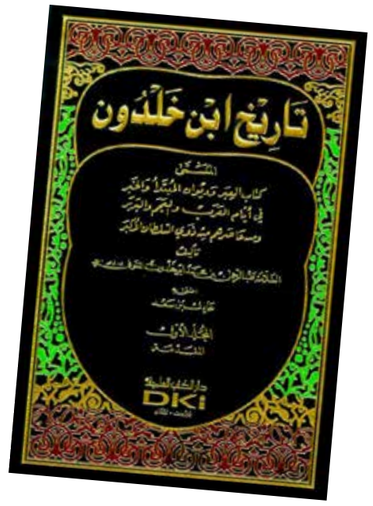

لا نعرف متى خرج الموكب السلطاني من مالي باتجاه الحجاز، في المقابل تتهافت المصادر على تأكيد وصوله إلى مصر عام 724هـ/1324م. ويدقق المقريزي (ت. 1442م) في المسألة، ثم يخبرنا أن دخول موكب منسا موسى إلى القاهرة كان في ليلة الأحد خامس عشر جمادى الأولى من السنة نفسها (10 مايو 1324م)، بينما يؤجل ابن حجر العسقلاني تاريخ الحدث زهاء ثلاثة أشهر. وبالنظر إلى ضخامة الموكب السلطاني، فقد اهتزت القاهرة لوصوله، وأرسل عاهل المماليك السلطان الناصر محمد بن قلاوون (693-741هـ/1293-1340م) موظفاً من بلاطه، وهو المهمندار لاستقبال منسا موسى؛ رغبة في إنزال سلطان مالي وحاشيته بقصر عند القرافة الكبرى، أقطعه لهم الملك الناصر.

وإذا صدّقنا رواية المقريزي، فسيكون الرّكب المالي قد مكث في القاهرة زهاء خمسة أشهر قبل ذهابه إلى مكة. وهذه المدة الطويلة نسبياً، تتطلب الكثير من المصروفات، فضلاً عن الإغراءات التي تمنحها مدينة عظيمة وصاخبة مثل القاهرة، سوف تمتص الكثير من أموال الماليين؛ بيد أن السلطان منسا موسى كان قد أعدّ لذلك «مائة حمل من التبر كل حمل ثلاثة قناطير»، عدا الأموال التي سيحصل عليها بعد بيعه العبيد الذين جلبهم معه.

وتجمع المصادر على أن سلطان مالي أثناء إقامته بمصر، كان «كريماً جواداً كثير الصدقة والبر». فقد أهدى للناصر محمد بن قلاوون هدية حفيلة «يقال إن فيها خمسين ألف دينار». وفضلاً عن عطاءاته التي بذلها لشيوخ القبائل بطريقه، فإنه لم يدع أميراً مقرّباً ولا ربّ وظيفة سلطانية إلا ووصله بحمل من الذهب. نذكر منهم المهمندار الذي تكلف استقباله؛ ويظهر حسب تلويحات العمري (ت. 1349م)، فإن المهمندار قد حصل على كمية وافرة من التبر (الذهب الخام)، ومنهم أيضاً، الأمير أبو الحسن علي ابن أمير حاجب والي مصر والقرافة إذّاك، الذي وصله منسا موسى بخمسمئة مثقال؛ أما دليل الموكب السلطاني من مصر إلى الحجاز، المسمى مهنا بن عبدالباقي العجرمي، فقد حصل على مائتي مثقال من الذهب، بينما حاز رفاق الدليل بعض المثاقيل.

وبناء على شهادة العجرمي الدليل، فإن منسا موسى لما بلغ الحجاز، أفاض على الحجيج وأهل الحرمين الشريفين بحال الإحسان، وتصدق بمال كثير قدّره عبدالرحمن السعدي (ت. 1655م) بعشرين ألفاً من الذهب، فضلاً عن أربعة آلاف قدمها لبعض الأشراف القريشيين، ممن قبلوا مرافقة السلطان إلى عاصمة ملكه بمالي.

وبينما كان منسا موسى ينثر التبر على أقدام أمراء المماليك في القاهرة، كان رعاياه يتهافتون «على شراء الجواري من الترك والحبوش والمغنيات والثياب، فانحط سعر الدينار الذهب ستة دراهم». على أن السلطان لم ينشغل بمثل هذه الأمور الدنيوية، رغبة في عدم «خلط حجه بغيره»؛ لذلك وجدناه يبحث ويسأل عن فقهاء المالكية بمصر للاستنارة بنصائحهم، والاستفادة من علمهم. والحالة هذه، ليس من الغرابة في شيء أن تتحدث المصادر عن اجتهاد السلطان في تقريب العلماء والفقهاء، والتمكين لهم في مجالسه الخاصة،

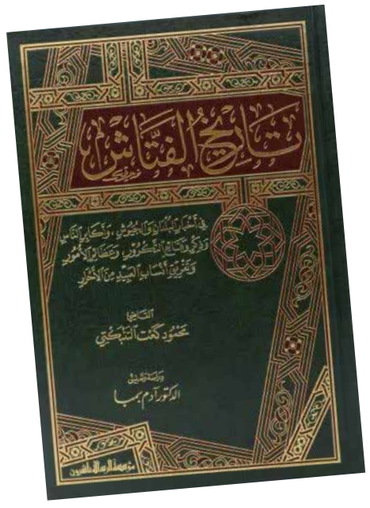

شأن القاضي شرف الدين أبو الروح عيسى الزواوي، الذي يظهر أنه جالس منسا موسى كثيراً في قصره بالقرافة. وبالموازاة مع تشوّفه إلى مجالسة علماء وفقهاء المالكية بمصر، فقد استغل السلطان منسا موسى فرصة إقامته بالقاهرة لشراء مجموعة من كتب «فقه المالكية».

بعد أن استراح الرّكب السلطاني بضعة أشهر، استجمع قوته، ثم أخذ يتهيأ للخروج رفقة الرّكب الحجّي المصري، فلما آن أوان الحج ـ يقول العمري ـ بعث الناصر محمد بن قلاوون إلى منسا موسى «بمبلغ كبير من الدراهم، وجمال وهجن خاص كاملات الأكوار والعدة للمراكبة، وأتباع لأصحابه، ومن حضر معه وأزواد جمة، وركز له العليق في الطريق ورسم لأمراء الركب [المصري] بإكرامه واحترامه».

أخيراً، خرج الركب الحجي المالي قاصداً الديار الحجازية ضمن الموكب المصري، الذي عادة ما كان يغادر العاصمة المصرية في يوم 21 شوال، والمسافة الفاصلة بين القاهرة ومكة تستغرق في أحسن الأحوال 36 يوماً.

وفي مشهد يسر الناظرين، أدّى السلطان منسا موسى صحبة قومه مناسك الحج، وزار قبر النبي (صلعم)، وتصدّق في الحرمين الشريفين بمال كثير، ثم حادث مشيخة مكة في أمر القرشيين الذين سيصحبونه إلى بلاده، ونجح بعد لأي في جلب أربعة منهم على ما أخبرنا به صاحب تاريخ الفتاش، طلباً للتبرك بآثارهم في مالي. ومن الوقائع اللافتة في هذا السياق، أن ظروف موسم الحج ومصادفاته الجميلة، شاءت وتكرّمت بلقاء بين منسا موسى، والعالم المشهور والصالح المشكور والشاعر المذكور، أبا إسحاق إبراهيم الساحلي، المعروف بالطويجن؛ فتوثقت علاقتهما إلى درجة جعلت أبا إسحاق يهجر بلده غرناطة، ويعود مع السلطان إلى مالي، حيث توطّن تنبكت، وبها توفي عام 747هـ/1347م.

في ختام هذه الرحلة الحجية، تبدو مسألة الوقوف على محطات طريق حج السلطان منسا موسى ذات أهمية بالغة؛ وفي هذا الجانب، يمكننا القول إن الطريق التي أخذها الرّكب في ذهابه، كانت مغايرة لتلك التي أخذها أثناء العودة. فقد انطلق الموكب الحجي لمنسا موسى من نياني العاصمة، ثم ميمة، فولاتة، وتغازة، وتوات، ووارکلا، وغدامس، وطرابلس، والإسكندرية، وأخيراً القاهرة، التي خرج منها الموكب المالي ضمن الركب المصري إلى مكة؛ وأما طريق العودة، فكانت من القاهرة إلى غدامس ثم كوكو (= كاغ)، فتنبكت ومنها إلى العاصمة نياني.

والخلاصة التي تتحصّل لدينا مما تقدم، أن أهل التكرور الميسورين المقبلين على أداء فريضة الحج، كانوا يحرصون على أن يأخذوا معهم في رحلاتهم الحجية زوجاتهم وأبناءهم وذوي القربى منهم (ابن خلدون: العبر). وهذه المزية، بالإضافة إلى حرص حكام التكرور على قضاء فرضهم، تمثلان مزيتين فريدتين، اختص بهما تاريخ الركب الحجّي التكروري، وانطبع بهما طيلة العصر الوسيط.

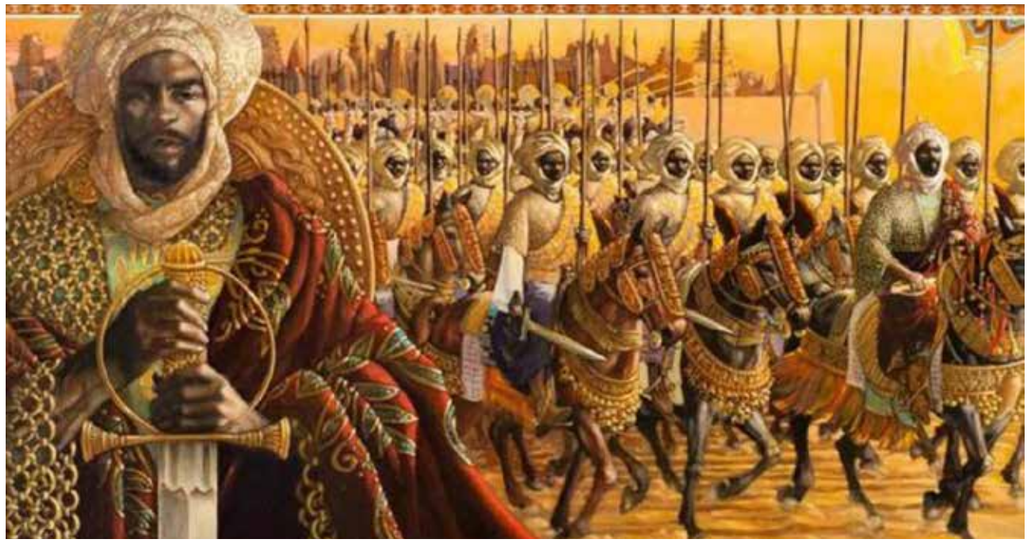

«متحف قصر العين»

توثيق لمحطات من مسيرة مؤسس الدولة

عبير يونس
كاتبة - سوريا

يحتلّ متحف قصر العين مكانة كبيرة في المجتمع الإماراتي، تنبع من كونه يوثق صفحات من حياة المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، ويستعرض محطات من مسيرته، فمتحف قصر العين الذي كان في الأصل مقر إقامة العائلة الحاكمة في الإمارات العربية المتحدة والمركز الإداري للحاكم. أصبح مع مرور الزمن متحفاً ومكاناً ثقافياً وتاريخياً، يمُكّن الزوار من الاطلاع على نمط الحياة الإماراتية في القرن العشرين، والتعرف إلى معلومات وتفاصيل الحياة الخاصة والسياسية للعائلة الحاكمة، لا سيما حياة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، رحمه الله، وذلك بعد أن شهد القصر عمليات الترميم، وتمت إضافة مبنيين جديدين إلى المجمّع الأساسي، يحتضن أحدهما المكاتب الإدارية، ويعرض القطع الأثرية التي أهداها عدد من الإماراتيين للمتحف، أما المبنى الآخر فيعرض شجرة عائلة آل نهيان، ويقدم الكثير من المعلومات بشأن حكام الدولة ونسبهم.

أقسام القصر:

يمكن للمتجول أن يتعرف إلى أقسام القصر، بدءاً من الساحة المحاطة بسور مرتفع، والذي تتخلله بوابة خارجية مصنوعة من الخشب، تبدو كتحفة فنية مميزة، وتشكل هذه البوابة المدخل الرئيس، أما السور فيتميز بالمسننات الدفاعية، ويتقدمه برجان على جانبي البوابة، ويليه على بعد بضعة أمتار بوابة داخلية، يعلوها نقش الآية القرآنية {ادخلوها بسلام آمنين} ترحيباً بالضيوف.

ومن بعد المرور من البوابة الداخلية، تأتي المجالس الخاصة باستقبال الضيوف والوفود الرسمية، سواء من أبناء المنطقة أو خارجها، وإلى جانبها توجد المجالس المخصصة للاجتماع بالمسؤولين، وإصدار التوجيهات لهم، بتسيير الأمور اليومية التي تتعلق بمختلف الخدمات في المنطقة الشرقية من إمارة أبوظبي.

ويحتوي القصر أيضاً على السكن الخاص بكبار الضيوف الذين يقصدونه من مناطق بعيدة، مما يبرز كرم الضيافة العربية، وهي من الصفات التي تحلى بها المغفور له، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان. كما يوجد فوق المدخل الرئيس للقصر مجلس علوي يطلق عليه «البرزة» كان مخصصاً لكبار الضيوف، وللجلوس في أشهر الصيف، بجانبها توجد الغرف الخاصة بالحرس، بينما اشتمل الفناء الخارجي على غرف تحضير القهوة التي وزعت على المجالس وسائر أقسام القصر.

أما القسم الذي كان خاصاً بإقامة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، رحمه الله، وحرمه سمو الشيخة فاطمة بنت مبارك (أم الإمارات)، فيتكون من طابقين، الطابق الأرضي منهما خصص لاستقبال النساء، من قبل سمو الشيخة فاطمة، بينما خُصص الطابق العلوي بأكمله للشيخ زايد وعائلته فقط.

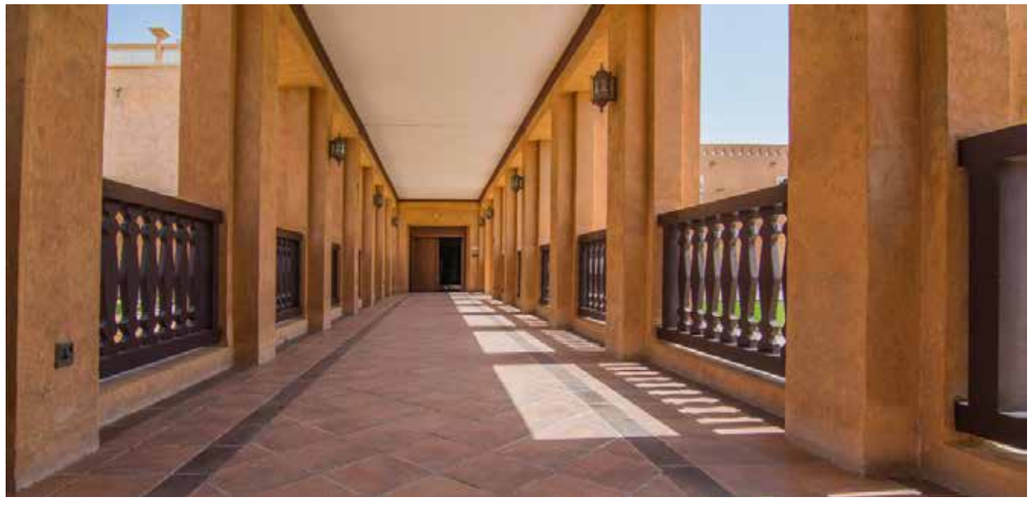

ويشمل القصر أيضاً غرفة دراسة خصصت لأنجال الشيخ زايد، وفيها كانوا يجتمعون مع أساتذتهم، ويتلقون دروسهم اليومية، وتظهر في الغرفة طاولات ولوح أسود قديم. كما توجد غرفة أخرى كانت مخصصة لتعليم القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة، وهي المهمة التي كان يقوم بها المطوع آنذاك، مستهدفاً طلابه من الفتية الصغار.

خصائص معمارية:

يقع متحف قصر العين على حافة واحة العين من جهتها الغربية، وقد تم تشييده عام 1937، ومن ثم قام المغفور له الشيخ زايد بن سلطان بتوسعته واستخدمه مقراً لإقامته، ومركزاً للنشاطات السياسية والاجتماعية حتى عام 1966، وتمت إعادة ترميمه في عام 1998، ومن ثم تم تحويله إلى متحف عام 2001، مع المحافظة على بعض الغرف العائلية والمرافق الإدارية التي أُثّثت بشكل يمُاثل الوضع الذي كان عليه القصر. وعندما جرى تجديده وتحويله إلى متحف عام 2001. تم الإبقاء على بعض الخصائص المعمارية المميزة للفترة الانتقالية (الثلاثينيات إلى الستينيات) للبناء في العين التي تميز بها القصر. وقد أضيفت خيمة كبيرة وحديثة في مجمّع المتحف، خلال عملية الترميم لتُذَكِّر بالخيمة التقليدية التي كان يستخدمها الشيخ زايد عند استقبال الضيوف، خاصة في فصل الشتاء، وتحاكي هذه الخيمة حياة البداوة الأصيلة التي كان يعيشها ويعتز بها، كما تؤدي في الوقت الحاضر

دوراً تعليمياً وسياحياً للطلبة والزوار، حيث تمثل الارتباط الدائم مع التراث والكرم العربي الأصيل، وتعليم تقاليد السنغ.

ومن جانبٍ آخر، يوجد في فناء المدخل الداخلي للقصر سيارة اللاندروفر، وهي نموذج يحاكي السيارات التي كان يستقلها المغفور له الشيخ زايد في زياراته لتفقد أحوال المواطنين، والاطمئنان على ظروفهم وحياتهم المعيشية خلال فترة حكمه لمدينة العين.

وقد شهد القصر عملية ترميم قبل افتتاحه للزوار كمتحف يروي بدايات باني الدولة، وتطلّبت عمليات الترميم، إضافة بعض المباني، مثل: مبنى الإدارة في بداية المدخل الرئيس الذي يحتوي على مكاتب موظفي الاستقبال، ومعرض للصور والهدايا التي قدمها المجتمع المحلي للمتحف، وغرفة توجد فيها شجرة عائلة آل نهيان حكام إمارة أبوظبي التي يتم التعرف من خلالها إلى نسب العائلة وأصولها العريقة. وقد روعي في تحديث القصر خصائص وعناصر مستوحاة من البيئة والعمارة المحلية، كما أضيف إلى البناء على جانبيّ المدخل الرئيس برجان، بحيث يكونان على غرار برج قلعة الجاهلي المتعدد الطوابق.

ويتميز بناء القصر بالعديد من الخصائص المعمارية التي توجد في المباني التاريخية في الإمارات العربية المتحدة، ومنها فتحات التهوية العريضة لتبريد المبنى والغرف الرئيسة طبيعياً خلال فصل الصيف، وكانت الطريقة التقليدية المتمثلة في استخدام الشرفات الرحبة والطويلة تساعد على تبريد الهواء خارج غرف القصر، وتحميها من أشعة الشمس الحارة، وكانت هذه الشرفات بمثابة ممرات وأروقة مفتوحة ومسقوفة. كما أن معظم المواد الإنشائية المستخدمة لبناء هذا المعلم التراثي هي مواد صديقة للبيئة تتماشى مع مبدأ الاستدامة في وقتنا الحاضر، حيث تم استخدام الموارد الطبيعية المحلية، كالطين، واللبن، والجص، والأحجار المتوافرة في المنطقة. كذلك تم استخدام معظم أجزاء شجرة النخيل في تسقيف الغرف، وصنع الأبواب والنوافذ. كما استخدمت أخشاب التيك في المباني التي خضعت للترميم لاحقاً.

وبهذه الطريقة هذا القصر إلى متحف للزوار، يشهد على مرحلة تاريخية من تاريخ الإمارات، ليذكر بالبدايات وبعظمة مرحلة التأسيس.

الهدهد

في التراث العربي والعالمي

أحمد سليم عوض
كاتب - مصر

حظي الهدهد، أرقى الطيور، بمكانة وحضور في ثقافات الشعوب المختلفة، وقد تفاوتت الرمزية والإشارة إليه بين ذمّ ومدح، كما ذكر في كثير من كتب التراث العربي، فنجد ذلك في القصائد الفارسية، وفي بعض قصائد حافظ الشيرازي، التي يظهر فيها تأثره الواضح بقصة سليمان، عليه السلام، والهدهد وملكة سبأ.. فنراه يستخدم الهدهد رسولاً إلى من يحب، فيقول:

لك البشرى يا قلبي.....
فقد عادت ثانية ريح الصبا
وقد رجع الهدهد السعيد...
بالأنباء السعيدة من سبأ....

ويقول في موضع آخر:

يا هدهد الصبا... إني مرسلك إلى سبأ...
فتأمل من أين أنا أرسلك؟

وذكره الشاعر فريد الدين العطار (توفي عام 1221م)، وذلك في كتابه «منطق الطير» الذي أبرز فيه مكانته المركزية بين الطيور، كما ذكره الجاحظ في كتابه «الحيوان»، فيقول عن الهدهد: «إن العرب والأعراب كانوا يزعمون أن القنزعة (التاج الريشي) التي على رأسه ثواب من الله تعالى على ما كان من بره لأمه عندما ماتت، حيث جعل قبرها على رأسه، فهذه القنزعة عوضاً عن تلك (الوهدة)».

وفي الأشعار القديمة للعرب نجد ذكر الهدهد عند الشاعر أمية بن أبي الصلت (550 624-م) في قصيدته «قنزعة الهدهد»، وفيها يمتدح جمال الهدهد والتاج الذي على رأسه، معتبرها - كما يعتقد العرب قديماً - مكافأة من الله لبره بوالديه.. فيقول:

تعلم بأن الله ليس كصنعه
صنيع، ولا يخفى على الله ملحد
غيم وظلماء وغيث سحابة
أيام كفن واسترداد الهدهد
يبغي القرار لأمه ليجنها
فبنى عليها في قفاه يمهد
مهداً وطيئاً فاستقل بحمله
في الطير يحملها ولا يتأود
من أمه.. فجزى بصالح حملها
ولداً وكلف ظهره ما تفقد
فيزال يدلح ما مضى بجنازة
منها وما اختلف الجديد المسند.

أما الشاعر عمارة اليمني (1121-1174م)، فكان يرى أن الهدهد مؤشر بداية نهاية حكم بلقيس ودولتها، وله قصيدة جرت أبياتها مجرى الحكمة، ومنها هذا البيت:

فقد هد قدماً عرش بلقيس هدهد ... وخرب فأر قبل ذا سد مأرب.

ونرى الهدهد في الشعر المعاصر قد اتخذ صورة رمزية مغايرة، ومنها رؤيته كرمز للمقاومة والحرية والأمل، ومنها قصيدة الشاعر محمود درويش، «الهدهد»، فممّا يقول فيها في حوار بين الهدهد الذي يمثل (الشاعر) و(الطيور التي تمثل الشعب الفلسطيني):

لم نقترب من أرض نجمتنا البعيدة بعد
تأخذنا القصيدة من خرم إبرتنا لنغزل للفضاء
عباءة الأفق الجديدة
أسرى.. ولو قفزت سنابلنا من الأسوار
وانبثق السنونو من قيدنا المكسور
أسرى ما نحب وما نريد.. وما نكون
لكن فينا هدهدا
يملي على زيتونة المنفي بريده

- ويقول في موضع آخر:

وإلى متى سنطير؟!
قال الهدهد السكران: غايتنا المدى..
قلنا: وماذا خلفه؟!
قال: المدى خلف المدى خلف المدى....
قلنا: تعبنا..
قال: لن تجدوا صنوبرة لترتاحوا...
سدى، ما تطلبون من الهبوط.....
فحلقوا.. لتحلقوا...

أما في قصيدة «الهدهد» للشاعر الأردني عبدالله أبوشميس، وهي في مدح الرسول، عليه الصلاة والسلام، فيقول فيها:

يا هدهد الأسرار إنا معشر....
وأخت، كائبنا على وديانه.....
يا هدهد الأسرار، نهرك آسر....
فدع الجمال يطيل في جريانه.....
أمطر علينا من شمائل أحمد.....
مطراً يبل القلب في حرمانه.....
قدر الطيور بأن تظل شريدة.....
يا ليتني حجر بنفس مكانه.....

وهناك من الإصدارات الشعرية المعاصرة الحديثة العديد التي تتناول أو تتخذ في عنوانها الهدهد، مثل «هدهد خارج نبوءة المطر»، للشاعر الفلسطيني رشدي الماضي 2003. وأيضاً إصدار لمجموعة شعرية للشاعر اليمني أسامة المحوري، التي حملت عنوان «هدهد وألف نبأ». وبالمغرب هناك مجموعة شعرية للشاعر المغربي مولاي رشيد العلوي، بعنوان «ما لم يأت به الهدهد»، ومجموعة شعرية للشاعر العراقي عبدالمنعم حمندي، وعنوانها «الإدريس والهدهد»، وفي عالم الرواية كان للهدهد نصيب فيها، ومنها رواية حملت عنوان «تقرير الهدهد» للأديب حبيب عبد الرب سروري، صدرت 2012، ورواية «تاج الهدهد» للروائي الصحفي المصري ناصر عراق.

ويحضر الهدهد أيضاً في التشبيهات والكلام العامي الشعبي في بعض المجتمعات، فيرمز أحياناً لصفات مدح من حدة البصر والذكاء، فيقال: أذكى من هدهد؛ أبصر من هدهد.. وفي الذم أيضاً لم يسلم الهدهد من استخدامه للتشبيه به ذماً، فيقال مثلاً في انتقاد وذم الشخص الذي يبدو حسن الحديث والمظهر من الخارج، لكنه سيئ من الداخل: مثل الهدهد «ظاهره نظيف وباطنه جيف»، ويقال «أنتن من هدهد».

وفي أبيات طريفة لأحد الشعراء التي جرت مجرى المثل الشعبي، أرادها مبطنة بالبوح بخيبة أمله فيمن كان يرجو منه خيراً، فبادله بالعكس، فقال فيه:

تشاغلت عنا أبا الطيب.....
بغير شهي ولا طيب.....
كأنتن من هدهد ميت.....
أصيب فكفن في جورب!

كما نجد الهدهد حاضراً في الكتابة وأدب الطفل، ومنها كتاب «الهدهد يمتلك تاجاً»، للكاتب المصري عبدالتواب يوسف، والرسوم للفنان ماهر عبدالقادر، وهو مثال لماهية الأدب المصور للطفل.

أما في الأدب الغربي فنجد حضوره ضعيفاً مقارنة بالشرق، رغم أنه يوجد ومعروف في أوروبا، على عكس أمريكا التي لا يوجد فيها، وبالتالي هو غير معروف هناك، إلا أنه رغم ذلك فقد ورد في أعمال بعض الأدباء منهم مثل أمنية للهدهد للروائي والشاعر الأمريكي جون أبدايك -1932 2009، وهي مجموعة شعرية نشرت عام 1959، والتي أشار فيها للهدهد بإحدى قصائده، وذلك لرمزيته في الثقافة الإغريقية، حيث أبرزه كرمز للحظ السعيد. كما نرى الهدهد في قصة الأخوين «غريم» (طائر المر والهدهد)، حيث استخدما الهدهد للدلالة على مفهوم الوسطية... وأيضاً في رواية الكاتبة ليا كامينسكي «العظام المجوفة»، واتخذته الكاتبة هنا كرمز للندرة والتفرد.. وشد انتباه القراء الذين لم يعرفوا الهدهد في بلدانهم.

ومع الرسامين، نجد أن الهدهد كان بطل موضوعات مختلفة للوحاتهم، وليكون رمزاً لمضامين عدة، فمما ذكر أن المصريين القدماء استخدموه رمزاً في بنية الكتابة الهيروغليفية، وكان بمعنى عكازة، ويظهر ذلك في جداريات المعابد والبرديات الجنائزية والتوابيت، فرسم وهو واقف على جذع الشجرة الطلح، ونجده في جدارية قبر الفرعون خنون حتب الثالث، في موقع مقابر بن حسن في الشرق الأقصى، وبمتحف شانغهاي بالصين توجد هناك مخطوطة حبرية على خلفية من الحرير القديم، يرجع تاريخها للقرن 13م، للرسام الصيني تشاو منغ فو، 1254-1322، وعنوانها «طائر الهدهد على ساق البامبو».

أما الفن الأوروبي وفنانوه فتناولوا عدداً من الأعمال، منها لوحة تعود لبداية عصر النهضة للإيطالي دومينيكو دي بارتولو 1362-1422، وعنوانها «خطبة فرانسيس للطيور»، وهناك لوحة للرسام الهولندي أبراهام ميغنون، 1640-1679 للطبيعة الصامتة، وعنوانها «الهدهد مقلوب على رأسه»، وفيها يصور الهدهد مقلوباً على رأسه، وقد اصطاده طائر القرقف، في رمزية الى النهاية المأساوية للكائنات الحية وانجرافها للتهلكة.

وفي رسومات التشكيليين العرب نجده في أعمال عدد منهم، مثل لوحات الرسام المصري حلمي التوني، حيث ارتبط برموز الكتابة المصرية، والفنان حمدي عطية ولوحته «هكذا تكلم الهدهد»، من خلال رؤية الفنان لحضور الهدهد في الأساطير والثقافات الإنسانية، ولوحات الرسام اليمني مظهر نزار، والفنانة العراقية هناء مال الله، والفنان الفلسطيني معتز نعيم في لوحته «الهدهد» ورمزية التمسك بالحياة وسط الدمار، وغيرهم آخرون.

وفي فن الخط العربي رسم الخطاطون العرب هيئة الهدهد في تكوينات مشكلة من البسملة وآيات كريمة أخرى.. ومنها لوحة الفنان والخطاط العراقي يسري المملوك التي خط فيها آيات من سورة النمل، باستخدام الخط الديواني وخط الثلث معاً في التشكيل.

وقد حسم مؤخراً وبعد طول اختلاف وجدال بين علماء الحيوان حتى أواخر القرن الماضي، حول تصنيف الهدهد، وعدد من أصناف فصيلته، وذلك وفق أحدث محاولات التصنيف المعتمدة التي ترجع لعام 1998، ليتم تصنيف فصيلة الهدهد وتقسيمها إلى ثلاثة أصناف للهدهد، هي:

- الهدهد الأوراسي ((Upupa Epops.
- الهدهد الإفريقي (Upupa Africana)، موجود بالخصوص في إفريقيا المدارية والاستوائية، جنوب الصحراء الكبرى وشمال غرب المغرب، وعلى طول الساحل الغربي للجزيرة العربية وكل شبه القارة الهندية وبلدان جنوب شرق آسيا.. ولها هجرة موسمية نحو الشمال إلى جنوب فرنسا وإسبانيا وكل أوروبا الشرقية حتى النصف الجنوبي من سيبيريا.
- الهدهد المدغشقري (Upupa Marginata).

علماً بأن الاختلافات بين هذه الأصناف الثلاثة طفيفة جداً، تنحصر تقريباً كما ذكر بتفاوت الألوان، وبالصوت وما إلى ذلك، والواقع أن هناك نوعاً رابعاً كان يعرف بهدهد سانت هيلانة (Upupa Saint Helena). والذي يرجح أنه انقرض بالقرن السادس عشر، وبقيت الثلاثة أصناف المذكورة أعلاه منه.

بقي الإشارة إلى بعض السلوك والصفات الطريفة للهدهد وطباعه... منها ميله للتمرغ بالرمل، وذلك إما وسيلة للتمويه للاختباء من أعدائه أو لمجرد الاستمتاع، وله قدرة عالية في العثور على المياه.. ولهذه الصفة نشأ معتقد شعبي مفاده أن الهدهد إذا رفرف بجناحيه فوق بقعة أرض ما، فهذا يعني أن في باطنها ماء! وفي حال استشعاره لأي خطر بقربه، يقوم ومن خلال غدد زيتية بجسمه بفرز سوائل كريهة الرائحة تصل إلى محيط 30 سم من حوله! ووسيلة أخرى يتبعها للدفاع عند تعرضه للخطر، وهي فرد جناحيه وذيله ليوهم عدوه أنه أكبر حجماً، ويعد الهدهد من أرقى الطيور من خلال سلوكه الأسري والعاطفي، فحسب ما أثبتته الأبحاث والدراسات، أنه لا يتزاوج إلا مع أنثى واحدة فقط، وفي حال فقد أنثاه يصبح من أكثر أنواع الطيور حزناً ووجداً عليها، ولا يتزوج بأخرى حتى بعد موتها!

السنع..
قيم لا تغيب عن الذاكرة الإماراتية

هشام ازكيض
كاتب وقاص – المغرب

التراث رمز لهوية أي مجتمع، وركيزة أساسية للتعبير عن الضمير الجمعي والروح الاجتماعية، ويمثل أيضاً البعد الخاص الذي يميز مواطني دولة من غيرها. وإذا كان التراث جزءاً من الماضي، فإنه يقتضي الاهتمام به لكونه عنصراً مهماً في بناء الحاضر والمستقبل، فهو يمثل العصب الأقوى في الحراك الثقافي والحضاري، ولهذا قال المغفور له، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيّب الله ثراه، «لابد من الحفاظ على تراثنا؛ لأنه الأصل والجذور، وعلينا أن نتمسك بأصولنا وجذورنا العميقة».

وهذه دعوة حقيقية للاهتمام بالتراث الإماراتي وتعزيزه وحمايته، سواء تعلق الأمر بالتراث المادي الذي يتضمن مثلاً آثاراً ومعالم تاريخية، كالأبنية التاريخية، والحرف اليدوية والأزياء الشعبية، أو التراث غير المادي؛ أي المعنوي، ويقصد به ما تم توارثه من قيم وعادات وتقاليد جيلاً بعد جيل.

ضمن مكونات التراث الإماراتي الأصيل نجد العادات والتقاليد؛ ومن خلالها يمكن الحديث عن «السنع»: وهي من أصل فصيح، ففي اللغة العربية الفصيحة يقال «سنع»؛ أي طال وارتفع وجمُل وحسن. والسنع هو الشيء الأفضل والشرف، والأسنع هو الشرف العالي، والأسنع الكبير الفاضل. وقد جاء عند بن دريد – العالم اللغوي الأقرب إلى لهجة الإمارات وعمان - أن الأسنع هو الطويل المرتفع العالي.

من دون شك، فالسنع لفظة محلية تعني «الأدب والأخلاق النبيلة والاحترام والتربية»، ويقصد بها كما يرى البعض «فن الإتيكيت»، أو فن التعامل مع الآخرين استناداً إلى قيم وأعراف إماراتية متوارثة من الآباء والأجداد.

فمن يكن على قدر كبير من الأدب والتربية، يحق وصفه بأنه فلان «سنع» و«امسنّع»، وهو شخص فطن، ملم بأدق تفاصيل آداب التعامل مع الآخرين. وعكس ذلك، فمن وصف بأنه ما فيه سنع؛ بمعنى أنه يفتقر الآداب، وهكذا فمصطلح سنع تندرج تحته جملة من السلوكات الطيبة، والمتمثلة في الأقوال والأفعال (الممارسات) كأدب الحديث، وتقاليد وآداب الضيافة والمجلس، وتناول الطعام، وحديث المائدة وإكرام الضيف، وأدب التعامل مع الوالدين والأهل... والإخلاص للآخرين، وكرم الأخلاق، والأمانة والتطوع، والتراحم والاحترام، التي تصب في مجملها في بوتقة اللحمة الاجتماعية والثقافية، وترابط أفراد المجتمع، والحفاظ على التواصل بين الأجيال المختلفة، والحفاظ على الهوية الإماراتية وترسيخها لأجيال وأجيال، وحفرها في الذاكرة والعقل عن طريق الممارسة وليس التلقين.

وهكذا، فالسنع من الموروثات التي ورثها الشعب الإماراتي عن أجداده منذ قديم الزمان، ومازال يتكيف معها رغم تقدم وتطور الحضارات والشعوب، فهو مازال متمسكاً بعاداته وتقاليده الخاصة، وعلى

الرغـم مـن أن أنـواع السـنع بالإمـارات متعـددة ومتنوعـة ومتشـعبة، فـإن الراغـب في تعلمهـا يتطلـب منـه التـأني والتركيـز، فهـي تبـدو معقـدة في البدايـة، لكـن بمجـرد مراقبـة هـذه العـادات في تصرفـات أفـراد المجتمـع الإماراتي، تـدرك عامـة النـاس أهميتهـا ومنزلتهـا، وجمال اتّباعهـا؛ لمـا لهـا مـن أثـر في تماسـك المجتمـع، وإضفـاء روح الاحـترام في نفـوس الجميـع، فيسـهل عـلى كل النـاس العمـل بهـا، بـل ترغـب بتعلمهـا بتفاصيلهـا.

فالسـنع في الضيافـة مثـلاً يمكـن التعـرف إلى أبـرز معالمـه وآدابـه مـن خـلال المناسـبات الاجتماعيـة أو عنـد اسـتقبال الضيـوف، حيـث يتـم تقديـم الضيـف للوليمـة أولاً، والامتنـاع عـن تنـاول الطعـام قبـل أن يبـاشر هـو بذلـك، ويبـدأ الضيـف بتنـاول الطعـام بعـد أن يقـول المُضيـف: «سـمّوا»، كـما يجـب عـلى الضيـف مراعـاة بعـض الآداب المسـتمدة مـن الديـن الإسـلامي عنـد تنـاول الطعـام؛ كأن يتنـاول ممّا يليـه، ويتجنّـب اسـتخدام يـده اليـسرى لتنـاول الطعـام، وألا يمسـح يـده أو أصابعـه بطـرف الوعـاء، ولا ينهـض المُضيـف عـن الوليمـة قبـل أن يفـرغ الضيـف مـن تنـاول طعامـه.

وفي الإمـارات، فـإن مـن أكـثر ملامـح السـنع انتشـاراً عـادات مفعمـة بـآداب صـب القهـوة، ويمكـن هنـا ذكـر جملـة مـن القواعـد، يجـب عـلى كل مـن الضيـف والمضيـف التزامهـا، ومـن أهمهـا: إمسـاك دلـة القهـوة باليـد اليـسرى، وتقديـم الفنجـان للضيـف باليـد اليُمنـى احترامـاً لـه. وعـلى سـاقي القهـوة أو مـن يعـرف باسـم «المقهـوي» أو «الصبيـب»، إمسـاك الفنجـان بثـلاث أصابـع، بـأن يضـع السـبابة والوسـطى تحـت الفنجـان، بينـما يضـع الإبهـام عـلى حافتـه؛ تسـهيلاً عـلى الضيـف في أخـذ الفنجـان.

مـن السـنع الإمـاراتي ألّا يحمـل المقهـوي أكـثر مـن 3 فناجـين بيـده، وإذا اكتفـى المضيـف مـن شرب القهـوة، فعليـه هـزّ الفنجـان قبـل إعطائـه للصبيـب، وإلا سيسـتمر الصبيـب بملئـه لـه مـراراً وتكـراراً حتـى يقـوم بهـزّه معلنـاً الاكتفـاء، ومـن العُـرف ألّا يطلـب الضيـف أكـثر مـن 3 فناجين، وأن يقـوم بهـزّ الفنجـان بعـد المـرة الثالثـة، كـما يجـب عـلى المقهـوي مـلء الفنجـان بمـا يقـارب ثلثـه، ومـن غـير اللائـق أن يطلـب الضيـف مـن المقهـوي مـلء الفنجـان بأكـثر مـن ربعـه، لكـن إذا مـا أراد ذلـك، يقـوم بضغـط الفنجـان عـلى يـد المقهـوي، ليعـرف بذلـك الأخـير رغبـة الضيـف بالزيـادة في الفنجـان التـالي.

كـما يجـب عـلى الضيـف أن يمسـك الفنجـان بيـده إلى حـين عـودة المقهـوي ليأخـذه منـه، ويمتنـع عـن وضعـه عـلى الأرض أو عـلى الطاولـة، كـما يجـب في الوقـت ذاتـه أن يتأكـد صاحـب المجلـس مـن أن قهوتـه سـاخنة وخاليـة مـن أي شـوائب؛ لأن تقديـم القهـوة البـاردة أو العكـرة يعـد انتقاصـاً مـن الضيـف.

مـن الثابـت أن مـن آداب السـنع في الضيافـة أن يحـرص الضيـف عـلى شـكر المُضيـف عـلى مـا قدمـه لـه الأخـير مـن طعـام بعـد انتهائـه منـه، بـأن يقـول بعـض العبـارات والأقـوال في السـنع الإمـاراتي، مثـل «أغنيتـوا» أو «أكرمـك اللـه» أو «كثّر اللـه خيركـم وزادكـم مـن زوايـد الخـير»، إذ يشـمل السـنع القـول والفعـل، فهـو يتضمّـن سـلوكات فعليـة، وعبـارات كلاميـة مـن الثقافـة الإماراتيـة، والملاحـظ أن الشـعر الإمـاراتي لا يخلـو مـن الحـث عـلى مـكارم الأخـلاق والتـزام السـنع.

يعـد الشـاعر الإماراتي الماجـدي بـن ظاهـر - وقـد ولـد في منطقـة الخـران بـرأس الخيمـة – مـن أبـرز الشـعراء الذيـن تتصـف قصائدهـم بالحكمـة والمواعـظ الحسـنة، وفي الحقيقـة فقصائـده تعـد مدرسـة ينهـل منهـا العلـم والأدب والسـنع. وفي بعـض أبياتـه التـي يقـدم فيهـا النصـح بـضرورة حسـن اختيـار الصاحـب - الـذي يعـين عـلى الحـق والخـير ويدفـع عـن الأذى والـشر - يقـول:

وإذا بغـيـت أنـك تصـــاحـب
لا تصحـب إلا جيـد الأطبـاع
حتى إذا ضاق المجال يثيبـك
بمـدافـع ومنـافـع وافـراغ
لنك تكن في قلص لي بحر طالما
في المفرجات.. وصغر كل شراع

وفي هـذا السـياق، تحـث الشـاعرة ريانـة العـود - التـي بـدأت مسـيرتها الشـعرية عـام 1989م - عـلى اتبـاع حسـن الأدب والأخـلاق، في قولهـا:

يا خالد يا أمي اسمع لي نصيحة
تجارب من حياة ما صفت لي
عجب دنياك ياروحي فصيحة
ولكنـا تغـافـلـنـــا يا خـلي

أمـا الشـاعرة فتـاة جلفـار - وهـي مـن شـاعرات الجيـل الذهبـي للسـاحة الإماراتيـة – فتناولـت العديـد مـن الأغـراض الشـعرية، وأبدعـت فيهـا، وفي عـزة النفـس قالـت:

الحـر لـي شـاف المـرارا ما يرتضي خذلان وخضوع
يشوم عن هظم الوقارا قدره عن الأنذال مرفوع

هـذا دون أن نغفـل مـا ورد في الأمثـال المعنيـة بالسـنع ومكـارم الأخـلاق، فالمثـل في الإمـارات يقـال إمـا باللفظـة الاعتياديـة، وإمـا بإضافـة لازمـة تكميليـة هـي «يقـول المثـل» أو «يقـول المتوصـف»، وهـي إضافـة يـراد بهـا تقويـة تأثـير المثـل، وإذا مـا اشـتهر أحـد النـاس بقـول الأمثـال سـمي «المتوصـف»، ومـن تلـك الأمثـال الإماراتيـة الخاصـة الآداب العامـة:

- «المذهـب ذهـب، والمعـاني حـروف»: ومعنـاه سـلوكك القويـم ذو قيمـة عاليـة، وحديثـك الحسـن ميـزة فضـلى.
- «ازكـر النـاس بأسـاميها عـن تاكلـك أثاميهـا»؛ أي ادع النـاس بأحـب أسـمائهم، حتـى لا تسـمع مـا يسـيئك.

ومن الأمثال المعنية بآداب المأكل والمشرب:

- «أطعمـه وطـرش كلبـك ينبحـه»: أي لا تكـرم النـاس مـن جانـب ثـم تضرهـم مـن جانـب آخـر،
- «إنـت تـاكل وغـيرك يُعـد الطعـام»: أي لا تـسرف في موائـد الآخريـن، فأنـت لا تعلـم حاجتهـم،
- «عنـد اليـواني محـد يـاني، وعنـد الصيـاني مـالي مـكاني»: أي يـذم في النـاس اجتماعهـم عـلى الولائـم وامتناعهـم عـن العمـل عـلى مسـاعدة الآخريـن.

ومـما لا يخفـى علينـا فالأمثـال لهـا وقـع مؤثـر ولطيـف، ولا تـؤدي المشـاعر ولا تحـرج الإحسـاس، فهـي مختـصرة الكلـمات بالغـة التعبـير؛ لـذا حـرص الأوائـل مـن الأجـداد والآبـاء والأمهـات عـلى التشـجيع عـلى حفـظ الأمثـال وتداولهـا وأخـذ العـبرة منهـا.

لـذا فمهـما بلـغ التطـور الحضـاري الـذي تشـهده الإمـارات، إلا أن السـنع كمـوروث المعنـوي مـازال متجـذراً في البيـوت، فهـو حـي يتجـدد في كل المناسـبات، وهـذا سـبيل مـن أجـل نـشر مفاهيمـه الأصيلـة بـين الأجيـال الجديـدة، سـعياً إلى الحفـاظ عـلى الطابـع المـشرف للمجتمـع الإمـاراتي، وعـلى الشـخصية الإماراتيـة.

الخيَّاط المجنون(*)

شهرزاد العربي
كاتبة - الجزائر

ـ كان هنـاك خيـاط اسـمه «لَبَقَـان»، تعلّـم فـنّ الخياطـة عنـد معلـم مـن الإسـكندرية، ورغـم أنـه كان ماهـراً في عملـه وغـير كسـول، إلا أنـه كانـت تعتريـه حالـة مـن الجنـون أحيانـاً، فيبقـى يعمـل لسـاعات وسـاعات دون توقـف، وأحيانـاً أخـرى يشـخْص ببـصره، ولا يعـود يسـمع ولا يـرد عـلى أحـد.

وفي كل يـوم جمعـة يرتـدي ثوبـه المميـز الـذي أخاطـه بمهـارة؛ ويذهـب إلى الصـلاة، وبعـد الفـراغ منهـا يخـرج متبختـراً يمـشي تيهـاً، حتـى إنـه لا يـرد عـلى تحيـة زملائـه إذا صادفهـم في الشـارع، وربمـا حـرك رأسـه رداً عـلى أحـد الأسـياد، وكان معلمـه عندمـا يـراه عـلى تلـك الحـال يمازحـه بقولـه:

ـ يبدو أن أحدهم ولد أميراً.

فيضحك لبقان ويرد:

هل لاحظت ذلك؟!

وذات يـوم أرسـل الأمـير سـليم، أخـو السـلطان، ثوبـاً ثمينـاً، وطلـب مـن الخيـاط أن يخيـط لـه ثوبـاً مماثـلاً لـه، وعهـد رب العمـل بهـذه المهمـة إلى لبقـان.

وضـع الأخـير الثـوب أمامـه وتأملـه لفـترة طويلـة، ثـم فكـر أن يجربـه لـيرى كيـف سـيكون عليـه، وبالفعـل نفـذ فكرتـه، وأعجـب بنفسـه أيمّـا إعجـاب، وتخيـل نفسـه أنـه ابـن أحـد الملـوك أو السـلاطين، ثـم غـادر الـدكان؛ وراح يجـول في المدينـة، وكان كل الذيـن يرونـه بذلـك الثـوب يعجبـون مـن حالـه، حتـى إنهـم سـألوه:

ـ كيف تلبس مثل هذا الثوب وتمشي على قدميك؟

فاشـترى حصانـاً هرمـاً ركبـه، وقـرّر مغـادرة الإسـكندرية، وفي طريقـه التقى شـابّاً وسـيماً، حسـن الثيـاب والمظهـر، فطلـب منـه أن يرافقـه ليسـتأنس بالحديـث إليـه، وعـرف مـن الشـاب أن اسـمه عمـر، كـما عـرف أيضـاً أن هـذا الشـاب يخـاف مـن اللصـوص.

وصـل الاثنـان إلى نـزل، قضيـا الليلـة فيـه، ثـم لم يـر أحدهـما الآخـر.

في الصبـاح قـرر لبقـان مواصلـة طريقـه، وبعـد مـدة وصـل إلى واحـة، فـأراد أن يسـتريح لبعـض الوقـت، وبعـد أن ربـط حصانـه تقـدم مـن البـئر ليـشرب، فـرأى آثـار معركـة قـد دارت رحاهـا هنـاك، فأصابـه الفـزع، وقلّـب نظـره في المـكان فـرأى لفافـة ملقـاة عـلى الأرض، حملهـا فوجدهـا مكتوبـاً عليهـا:

ـ أيهـا الغريـب، لقـد أسرني اللصـوص، فـإذا وجـدت هـذه اللفافـة، فخذهـا إلى تـلال «سروجـة»، وسـلمها للشـخص الـذي تجـده هنـاك.

فتـح لبقـان اللفافـة لـيرى مـا فيهـا، فوجـد كلامـاً آخـر مكتوبـاً، يقـول:

ـ اسـمي عمـر ألفـي بيـك، ربّـاني باشـا القاهـرة كابنـه، لكننـي لم أعـرف والـديّ الحقيقيّـيْن، ومنـذ أسـابيع مـات ألفـي بيـك متأثـراً بجراحـه؛ بسـبب معركـة خاضهـا مـع العـدو، وقبـل أن يمـوت صرح لي بأننـي لسـت حفيـده، وإنمـا أنـا ابـن رجـل ذي سـلطان وقـوة، وأنـه بعـد قـراءة طالعـي أبعـدني أبي عـن القـصر، وعهـد بي إلى صديقـه ألفـي بيـك، وأقسـم هـذا الأخـير ألّا يقـول شـيئاً حتـى أبلـغ مـن العمـر اثنـين وعشريـن سـنة، ولهـذا رفـض أن يبـوح لي باسـم والـدي، وقـال لي: إنـه عـليّ الوجـود في اليـوم الرابـع مـن شـهر رمضـان في تـلال سروجـة، وإذا وجـدت رجـلاً هنـاك، أسلّمـه هـذا الخنجـر، وأقـول لـه: إننـي الرجـل الـذي ينتظـره، فسـيرد عـليّ: بـورك في الرسـول الـذي بعثـك، وعـليّ أن أتّبعـه ليقـودني إلى والـدي.

ارتبـك لبقـان مـن الـكلام الـذي قـرأه، وأيقـن أن الشـاب المسـمّى عمـر، الـذي التقـاه هـو صاحـب هـذه الرسـالة. فكـر لبقـان قليـلاً ثـم امتطـى حصانـه، واتّجـه إلى تـلال سروجـة، وكان ذلـك في اليـوم الثالـث لشـهر رمضـان، ووصـل في الغـد عنـد السـاعة الثانيـة عـشرة إلى المـكان المحـدد، وبـدأت نبضـات قلبـه تتسـارع عندمـا فكـر في اسـتغلال الفرصـة، فلـماذا لا يدّعـي أنـه عمـر ألفـي، وأن معـه الخنجـر.

عندهـا رفـع بـصره فـرأى المـكان يعـج بمجموعـة مـن الخيـل والمهـاري؛ عليهـا راكبيهـا وهـم في أحسـن هيئـة، فلـم يجـد وقتـاً ليتراجـع عـن خطتـه.

رأى بـين الجمـوع رجـلاً بـدَا أكـثر وجاهـةً ونبـلاً، وأغـلى ثيابـاً، فتقـدم لبقـان نحـوه وحيّـاه، وقـدّم لـه الخنجـر قائـلاً:

ـ إنني من تنتظر.

فرد عليه الآخر:

ـ بورك الرسول الذي بعثك.

وانهالـت الدمـوع مـن عينيـه، ثـم احتضنـه وقبّلـه، وقـال لـه:

ـ أنا والدك يا بُني.

وبمزيـد مـن الفـرح، ارتمـى لبقـان في حضـن الرجـل، وعندمـا رفـع رأسـه رأى مـن بعيـد فارسـاً عـلى حصانـه، وهـو يـصرخ:

ـ توقفوا، توقفوا، أنا الأمير عمر.

عـرف لبقـان أن القـادم عمـر رفيـق طريقـه، لكـن اسـتولى عليـه شـيطانه، فقـال:

ـ يـا مـولاي هـذا خيـاط مجنـون مـن الإسـكندرية، لا يحمـل

(*) مترجم، بتصرف، عن النص الفرنسي: Le tailleur fou et le calife cigogne par M Latappy

معه سوى الشؤم، فلا تلقِ له بالاً، وحاول عمر النيل من لبقان، لكن الجند منعوه، وأوثقوه إلى جمل.

حاول عمر أن يخاطب والده، ويقول له:

ـ أنا ابنك عمر، الذي رباه صديقك.

لكن الرجل لم يكن على استعداد لسماعه.

كانت الملكة في القصر تنتظر قدوم الملك وابنها الأمير عمر، وعندما دخل عليها زوجها، وقدم لها ابنها، نظرت إليه نظرة غريبة، وقالت له:

ـ هذا ليس ابني، إنه ليس ذلك الذي أرتني إيّاه الملائكة في منامي.. هذا ليس ابني.

وبينما الكل منشغل بهذا الحدث العظيم، اغتنم عمر الفرصة، وأفلت من الجند ودخل إلى القاعة، وهو يقول:

ـ إنني أنا الأمير عمر، وهذا الشخص محتال.

عندما رأته الملكة عرفته على الفور، واندفعت نحوه، وهي تقول:

ـ هذا هو ابني.. هذا هو من رأيته في أحلامي.

لكن الملك رفض سماع كلامها، وأمر بإخراج الشاب، واتّجه نحو ابنه المدّعي، يغدق عليه من حنانه.

كانت الملكة امرأة حكيمة، فهي تعرف زوجها جيّداً، وطالما سيطرت عليه فكرة فلا يمكن إقناعه بغيرها بعدها؛ لذلك أرسلت إلى مستشاره تسأله عن تفاصيل اللقاء، وفي حديثه ذكر لها أن الأمير قال:

ـ إن هذا الذي يقول إنه ابن الملك، اسمه لبقان، ويعمل خيّاطاً.

تعجبت الملكة من ذلك، وطلبت من زوجها أن يمتحن الاثنين حتى يعرف أيهما ابنه، فرضخ مرغماً لرأيها.

كان الامتحان بتسليم كل واحد منهما قطعة قماش ومقصّاً وإبرة وخيطاً، ثم يطلب منهما خياطة ثوب.

بدّا لبقان في غاية السعادة، فهو يعرف مدى براعته، ومن المؤكد أنه سيصنع أجمل ثوب.

أغلق على كل واحد منهما في غرفة مدة يومين، ثم طالبت الملكة بالفستانَيْن، فقدَّم لها لبقان فستاناً جميلاً مطرَّزاً، أظهر فيه براعته في فن الخياطة، ولم يشك لحظة في أنه سيكون الفائز.

أما عمر فقد جاء بأدوات الخياطة كما هي، وخاطبها قائلاً:

ـ لقد تعلمت الفروسية، ودرست العلوم، وأتحدث بخمس لغات، ولم أتعلم كيف أعمل بالمقص والإبرة.

هنا تأكّدت الملكة أنه ابنها عمر، لكن الملك خامره الشك؛ ولم يدر ماذا يفعل؛ لذا ركب حصانه وغادر القصر، واتّجه نحو كاهنة كان والده يلجأ إليها في بعض الأمور الصعبة للمشورة.

عندما دخل عليها عرفت لماذا جاء فأعطته صندوقين من العاج مزينين بالجواهر والماس، مكتوب على أحدهما «غنى وثروة»، وعلى الآخر «شرف وحسن ذكر»، وقالت له:

ـ عُدْ إليهما، ودعْ كل واحد منهما يختار أحد الصندوقين.

جاء الملك بالصندوقين ووضعهما أمام الملكة، وجميع الحاشية، وطلب لبقان وقال له: اختر أحدهما، فاختار «غنى وثروة»، أما عمر فقد اختار «شرف وحسن ذكر».

بعد ذلك فُتح الصندوقان من تلقاء نفسيهما، فظهر في صندوق عمر تاج صغير استقر على وسادة من الديباج الأبيض، وفي صندوق لبقان إبرة وخيط.

رفع الملك التاج، الذي أخذ حجمه يزداد حتى أصبح بقياس رأس عمر، فوضعه الملك على رأس ابنه، ثم التفت إلى لبقان، وقال له:

ـ يبدو أنه عليك العودة إلى مكانتك كخياط، فأنت لا تستحق عطفي، وإذا كان هنا أحد يحقن دمك، فسوف أسامحك، وإلا عاقبتك، وتدخل الأمير عمر وحقن دمه، فخرج لبقان لا يلْوي على شيء وبيده صندوقه.

عاد لبقان إلى معلمه، وعندما رآه لم يعرفه في بادئ الأمر، وهو يرتدي اللباس الذي ألبسه إياه الملك، وعندما عرفه انهال عليه ضرباً بالنعال، هو وصبيانه، فأوجعوه، ومزقوا ثيابه.

هرب لبقان، وهو جريح مهان، وبعد أن استراح، قرَّر أن يعود إلى حياته وعمله، فباع الصندوق واشترى بيتاً، ووضع لافتة مكتوباً عليها «لبقان الخياط»، ثم جلس يُرقّع ثوبه الممزق، وكم كانت دهشته كبيرة، إذ إن الإبرة كانت تتحرك من تلقاء نفسها، فخيَّط الثوب، فأصبح كأنه جديد، وهكذا استمر في عمله كخياط، وانهال عليه الزبائن، وأصبح غنيّاً، والناس متعجبون، كيف لا يستعين بأحد لمساعدته في عمله.

لقد حقق لبقان الغنى والثروة التي سعى لها، وحقق عمر الشّرف وحسن الذكر، وأيقن لبقان أنه من الأحسن له أن يبقى خيّاطاً؛ لأنه لم يخلق للشرف وحسن الذكر.

مزرعة غابة
سايهانبا الميكانيكية

الكاتب: جلال لي ون جيه
المترجمة: زينب تشانغ تشيان يوي
المراجع: جمال بن علي آل سرحان

اليوم، منطقة سايهانبا المترامية الأطراف خضراء تغطيها الأشجار المورقة الكثيفة، ومئات الأفدنة من الغابات التي تمنع غزو الرياح والرمال وتمدد الصحراء. تعيش فيها الطيور الراقصة والعصافير المغردة، والأسماك القافزة، والنمور الصيادة، الأمر الذي يخلق مشهداً نابضاً بالحياة. هي بنفسها والصناعات التي تقودها مثل السياحة ومعالجة المنتجات الزراعية والجانبية توفر عدداً كبيراً من الوظائف وفرص العمل للسكان المحليين، وتخلق قيمة غير محدودة للصين الحديثة. لكن من كان يتخيل أنه قبل عقود، كان هذا المكان مهجوراً، ومملوءاً بالرمال والصخور المتطايرة، ولا تطؤه قدم إنسان؟

تاريخياً، كانت منطقة سيهانبا عبارة عن حديقة طبيعية تزخر بالمياه والأعشاب الوفيرة والغابات الكثيفة، وكثير من الحيوانات البرية. في الصين القديمة، خصصها كثير من الأباطرة لتكون منطقة صيد لترفيه الأقوياء. مع تقدم تاريخ أسرة تشينغ الملكية، عانت حكومة تشينغ مشكلات داخلية وخارجية. وللخروج من هذا المأزق، بدأت الحكومة في استصلاح الأراضي في هذه المنطقة في السنة الثانية من حكم الإمبراطور التاسع لأسرة تشينغ الملكية الإمبراطور تونغزي عام 1863م، وتم تدمير الغطاء النباتي للغابات.

خلال مقاومة الغزو الياباني، تعرضت غابة سايهانبا لأعمال النهب والتخريب وقطع الأشجار من قبل الغزاة اليابانيين، ومن حرائق الغابات المتعاقبة، وبحلول الأيام الأولى للتحرير، اختفت الغابة البدائية الأصلية تماماً. وتحولت منطقة سايهانبا إلى هضبة قاحلة، مما مثّل مشهداً مقفراً.

بعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية الجديدة، أخذت الحكومة في إصلاح وإعادة بناء سد سايهان. في البداية، لم يتم بناء سوى عدد قليل من مزارع الغابات الصغيرة، لكنها عانت انتكاسات بسبب التكنولوجيا غير الناضجة، ونقص الخبرة.

في عام 1962م، أنشأت وزارة الغابات مزرعة غابات سايهانبا الميكانيكية (كانت تحت إدارة مقاطعة خبي في عام 1968م، أما حالياً فقد أصبحت وحدة تابعة مباشرة لمكتب الغابات الإقليمي بالمقاطعة) على

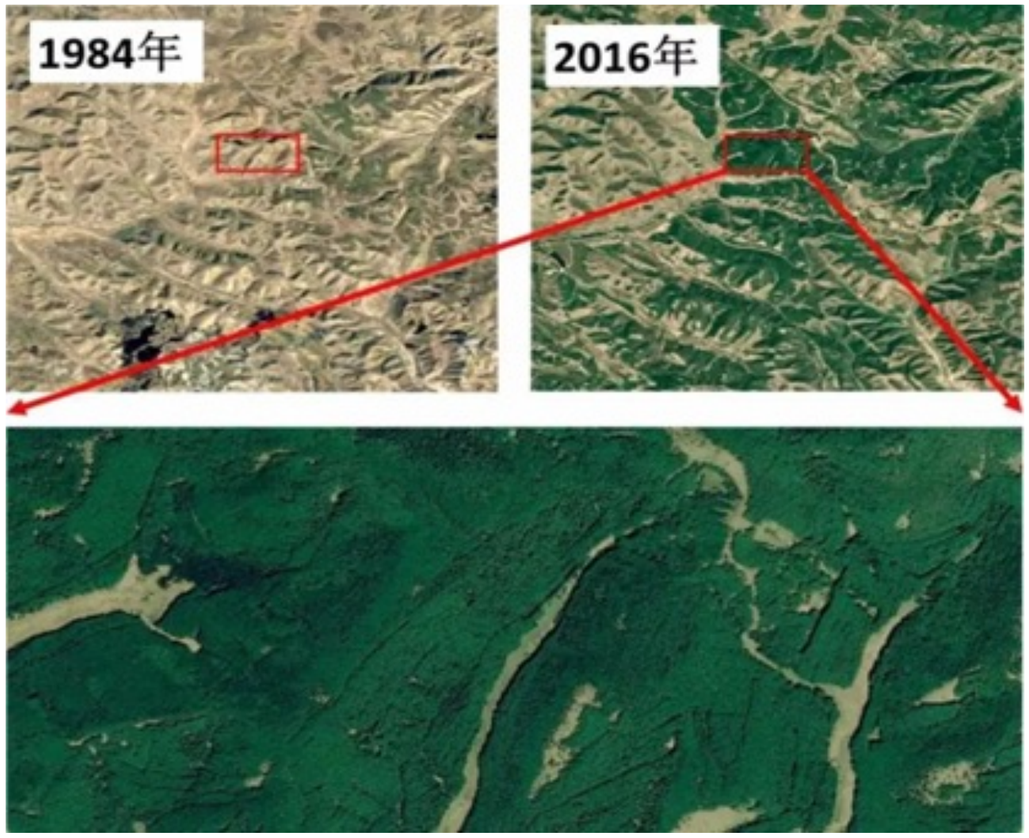

أساس مزرعة غابات سايهانبا الميكانيكية ومزرعة غابات داهوهونغ ومزرعة غابات يينخة. من عام 1962 إلى عام 1982م، قامت وزارة الغابات بتشجير 960 ألف متر من الأراضي البور القاحلة الرملية، بما في ذلك 105 آلاف متر من التشجير الميكانيكي و855 ألف متر من التشجير الاصطناعي.

أصبحت منطقة سايهانبا حالياً منطقة سياحية وطنية على مستوى A5، ويبلغ إجمالي مساحتها التشغيلية 1.4 مليون متر، منها ما يصل إلى 1.12 مليون متر مساحة الغابات، ويصل معدل تغطية الغابات نحو 80٪. في الوقت نفسه، يبلغ إجمالي حجم مخزون الغابات 10.12 مليون متر مكعب.

منذ إنشائها في عام 1962م، التزمت الأجيال المتعاقبة من شعب سايهانبا التنمية الخضراء، وخلقت معجزة تحويل الأراضي القاحلة إلى بحر من الغابات، وصاغت روح سايهانبا المتمثلة في «وضع المهمة في الاعتبار، والعمل الجاد، والتنمية الخضراء».

إن تنفيذ جهود التشجير يعني أنه يجب علينا التغلب على الصعوبات التقنية والتحديات الطبيعية واحدة تلو الأخرى. عند نقطة انطلاق بداية جديدة، يقف الجيل الجديد من شعب سايهانبا في تحدٍّ غير مبالين بالصعوبات والتحديات، مركزين على دراسة تكنولوجيا التشجير وإجراء تجارب بحثية مختلفة.

وبعد أكثر من 10 سنوات من الاستكشاف، لخصت سايهانبا مجموعة من المواصفات الفنية للتشجير، والتي وفرت خبرة قيمة لتنفيذ وإنشاء الغابات الاصطناعية في مناطق أخرى من البلاد.

شرفة

د. منّي بونعامة
مدير التحرير

تراث في مهب الريح

منذ بداية الوجود الإنساني على هذه البسيطة، بدأ يتفاعل ويتواصل مع بيئته ومحيطه، ومنها عمّر مسكنه، وشيّد حصنه، وبنى معلمه، الذي دلّل على وجوده وحضوره في الحياة حيناً من الزمن، قبل أن يؤذن له بالرحيل، بيد أن تلك المعالم على أهميتها التاريخية، وقيمتها التراثية لم تسلم من عابث يعبث بها تحت أي حجة أو سبب، وكان للكوارث الطبيعية أثرها الكبير وقسطها الوفير في الهدم والتدمير، بفعل الزلازل والكوارث التي أودت بعدد من المباني التراثية والمعالم التاريخية في شتى البقاع والأنحاء، ولعل آخرها ما شاهدنا في سوريا، والمغرب وأفغانستان وإندونيسيا وغيرها.

ومع ظهور الحركات الظلامية التي انتشرت كالنار في الهشيم في العالم، سخّر أصحابها وأتباعها فكرهم، ومدوا نظرهم إلى الهياكل والمجسمات والمباني والمعالم، فانهالوا عليها ضرباً باليمين، فأصبحت كالصريم، ولم تبق لها باقية تذكر، بل أصبحت هشيماً تذروه الرياح في يوم عاصف، وهذا ما ينسحب بشكل واضح ومباشر في يد الإنسان العابثة الماكرة، التي أحرقت الحرث والنسل في بؤر الخطر ومواطن الفتن في العالم، فهدمت المساجد والكنائس والبيع، والمعالم والآثار المتبقية من القرون الخالية، كما حدث في العراق وسوريا واليمن والسودان ومالي والحبل على الجرار.

معالم شامخة مضت عليها مئات السنوات، تحيل إلى التاريخ العريق والتراث العميق لتلك المجتمعات ومثيلاتها، طالتها يد التطرف، ونالتها بأطرافها، ولم تبق لها باقية، وقد سارعت دول ومنظمات ومجموعات إلى رفع شعارات وإطلاق مبادرات بضرورة المحافظة على الإرث الحضاري والتراثي العتيد للأمم والشعوب في كل مكان، انطلاقاً من التشريعات والقوانين والمبادرات الرامية إلى الاضطلاع بالغاية المنشودة، وقد نجح بعضها في إدارة المخاطر والتخفيف من آثارها الوخيمة، في حين أخفق بعضها الآخر وتلاشى أثره، حتى غدا تراثاً في مهب الريح، والقادم أنكى وأشد، فهل من معتبر؟!

and wise leader, the late father, Sheikh Zayed Bin Sultan Al Nahyan. Heritage was present in his thought and vision over years in safeguarding and documenting heritage, and harnessing all efforts to advance that noble goal, within a comprehensive and integrated cultural vision that contributed to preserving heritage as a true expression of the local identity and cultural specificity of the UAE society.

Over the past year, this care has also been strengthened and consolidated, contributing to registering many Emirati heritage elements on the UNESCO lists for the protection of human heritage, particularly the Emirate of Sharjah, which had great achievements in preserving cultural heritage locally, regionally and globally.

Recently, the world witnessed many natural disasters, from earthquakes and floods that swept the cities and villages of the world, leaving behind a lot of devastation and destruction that affected the landmarks of countries and their historical sites, as well as their heritage buildings. They were until recently tourist and heritage attractions, and a destination for every visitor. We cannot also ignore the obscurantist forces that caused tragic and painful destruction of human heritage, leaving a significant negative impact and a deep gap in the lives of peoples.

In this issue, we will shed light on this important heritage topic, to monitor the areas of danger, and the sites of damage in the Arab heritage and civilizational monuments. We are also proposing the ways to confront and address them, through a number of sober approaches that dive into the depths of the Arab heritage, and review for us examples of threatened heritage in the time of dangers.

The issue also presents rich topics and important readings that explore the landmarks of Emirati, Arab and international cultural heritage, with all its elements and components.

Heritage in Time of Danger

The UAE's experience in heritage caretaking is one of the pioneering experiences in the Arab world, because of its importance and specificity. It shows us the first beginnings of caring for heritage, reviving it, and instilling its values in the hearts of children, young people, and all members of society through all life aspects.

The country of union paid a great attention to heritage thanks to the efforts of the pioneering